رواية

لقد مات فارحل

حسن البنا من الميلاد حتى الاغتيال

د. نافذ الشاعر

جميع حقوق الطبع محفوظة

رواية

لقَدْ مَاتَ فارْحَلْ

(حسن البنا من الميلاد حتى الاغتيال)

د . نافذ الشاعر

اسم الكتاب: لقد مات فارحل

تصنيف الكتاب: (رواية)

اسم المؤلف: د. نافذ الشاعر

الطبعة الأولى: ٢٠٢٥

جميع حقوق الطبع محفوظة

واضح أنك تكتب بحرية واستقلالية. ربما لأنك مهتم به لأهمية الموضوع. واضح أيضاً أنك رجعت إلى كتب التاريخ وصحافة تلك الأيام حتى تستطيع أن ترصد ما حدث وتورد حوارات الشخصيات وأوصافهم ونفسياتهم. أتصور أنه سوف يشد القراء متى عرضته للنشر والتوزيع وسوف يكون مرجعاً هاماً من مراجع موضوع الإخوان.

أ.د/ إبراهيم عوض
كاتب وناقد ومترجم
كلية الآداب جامعة عين شمس

تقريـض

بقلم فضيلة الدكتور/ **وائل عمر بشير** (حفظه الله)

الحمد لله الذي علم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على صاحب اللسان الأقوم والبيان الأعظم، محمد بن عبد اللهَّ النبي العربي الأكرم، وعلى آله وصحابته مصابيح الدجى ونجوم الهدى في الأمم، أما بعد:

يهب اللهَّ لمن يشاء من عباده منحاً إبداعية في القدرة على سبر أغوار النفس البشرية واستخراج مكنوناتها المطوية، ويكرم من يشاء منهم ببصيرة ثاقبة قوية، تجمع أحداث التاريخ بين يدي قارئها في لوحة فنية، ومن بين هؤلاء الموهوبين أخي الدكتور نافذ الشاعر الذي أتشرف اليوم بكتابة هذه التقدمة بين يدي روايته، فقد أكرمه اللهَّ بامتلاك عين ناقدة ونظر ثاقب في كشف اللثام عن ظواهر النفوس وعوارض الأحداث ليخلص إلى بواطنها ومكامنها ونوازعها والدوافع الكامنة من ورائها.

وقد جاءت روايته هذه (حياة حسن البنا من الميلاد حتى الاغتيال) – في ثاني إصدارات هذه السلسلة الروائية النقدية – لتُجلِّيَ للقارئ الكريم كثيراً من غوامض هذه الشخصية الفذة التي شغلت الحقبة المعاصرة من تاريخ أمتنا الإسلامية تأثراً وتأثيراً ونقداً وتحليلاً وأخذاً ورداً، وكان أستاذنا الدكتور نافذ في روايته هذه كمن يدخل إلى خلية نحل قد امتلأت إلى جانب شهدها وغذاء ملكتها يعاسيب تقرص كل من يقترب منها، فولَج متجشماً عناء تلك البقعة الغامضة المحفوفة بأنواع الأذى ليشور شهدها ويُجلِّي تضاعيف متاهاتها الداخلية للناظرين والباحثين عن حقيقة هذه الشخصية الاستثنائية.

ومما تميزت به حياة البنا وما رافقها من أحداث، كثرةُ تفاصيلها وتعقيداتها بحيث تصل الأمور إلى حد أنك تفهم الشيء ونقيضه من الحدث الواحد لما يكتنفه من غموض، ولما يقف خلفه من دوافع اشترك في حياكتها وصناعتها أطراف متعددة الأغراض فضلاً عن تلك المتنافرة.

وقد أتيت على قراءة هذه الرواية كلمة كلمة حتى آخرها فراعني منها قدرة الكاتب على التسلل ببراعة خلف ظواهر تلك الأحداث المتناقضة ليصنع منها حدثاً واحداً

منسجم الأطراف ملتئم الأركان فتبدو لك أحداثها وكأنما انتظمت في سلك واحد بما كشف لك من كوامن حدوثها ودوافع أصحابها.

ومما يسلب لبَّك ويأسر فؤادك أثناء قراءتك لسطور هذه الرواية الأسلوب الوصفي الدقيق الذي تمتع به كاتبنا في إخراج مشاهد الرواية وكأنها مشهد مرئي تجري فصوله أمام ناظريك، وفي رسم شخوصها فلكأن أحدهم يقف أمامك للتو تبصره ويبصرك وتَخبُره ويَخبُرك.

وفوق كل هذه الإبداعات يتميز كاتبنا بتمكنه من سبر أغوار نفوس شخصيات روايته التي يكتبها، وهذا هو محور هذا اللون من ألوان الرواية، تلك التي تركز على السيرة الذاتية لبطل الرواية بحيث يقوم الكاتب باستبطان واستنباط كوامن هذه الشخصية ونوازعها، فيغوص في بحور وجدانها وغرائزها ويتسلل بين طيات أفكارها ليرسم ويُخرج للقارئ تلك الشخصية من حيث هي هي، لا من حيث قرأها الآخرون بأهوائهم ومزجوها بمشاربهم.

وقد تميزت هذه الرواية بالتركيز على هذه الشخصية الفذة والتي أثارت جدلاً بين معاصريها، من جهة السرد والنقد الذاتي لها لا من جهة التركيز على الحركة الفكرية والتنظيمية التي أنشأها البنا – رحمه اللهَّ –.

وختاماً فإن أخي الدكتور نافذ الشاعر حفظه اللهَّ قد أجاد وأبدع وأمتع في هذه الرواية التي تشكل – في وجهة نظري – قطعة أدبية رائعة رائقة منمقة متحفة بأفانين الوصف الدقيق المسهب الماتع الذي يميط اللثام عن مكنونات نفوس أبطالها ويكشف عن أغوار نفوس شخصياتها، وهي من جهة أخرى قطعة تاريخية شاهدة على أحداث تلك الفترة المزدحمة بالأحداث الجسيمة التي رسمت معالم تلك الحقبة التاريخية وما بعدها من مستقبل الأيام.

فجزى اللهَّ أستاذنا الحبيب أبا محمد خير الجزاء عن الأدب والتاريخ بهذا العمل النفيس.

د. وائل بن عمر بشير

غزة – فلسطين، في ثاني عشر ربيع الأول لعام ١٤٤٦ هـ الموافق ١٥ من سبتمبر لعام ٢٠٢٤ م.

١ - المحمودية

هناك في قلب مصر، وفي محافظة البحيرة، وعلى شاطئ تِرْعَة- تبدأ من النيل وتشق مدينة الإسكندرية وتصل إلى البحر- تقوم مدينة المحمودية.

وترعة المحمودية كانت من أهم الموانئ التجارية، فمنها يتم نقل البضائع المصرية من الوجه البحري والصعيد إلى ميناء الإسكندرية، ومنها تدخل البضائع المستوردة من ميناء الإسكندرية إلى كافة المدن المصرية.

وسُمّيت "المحمودية" بهذا الاسم تيمناً بالسلطان التركي محمود خان. وفي مدخل المدينة يقوم نصب تذكاري، على شكل قبة جميلة، تذكاراً لشق ترعة المحمودية عام ١٨٢٠م، وعليه تشاهد لوحة مكتوب عليها قصيدة باللغة التركية مترجمة للعربية والإنجليزية تمجد السلطان محمود خان، ولا تمجد الاثني عشر ألف مصريٍّ، الذين قضوا نحبهم بالطاعون أثناء حفر هذه الترعة، فأمر الوالي بأن يُدفنوا في أماكنهم حتى لا ينقلوا الوباء لغيرهم.

وليس ببعيد عن هذه القبة الجميلة، التي كانت مثار سخط النساء الأرامل والأمهات الثكالى، يقع مسجد المحمودية، وبجانب هذا المسجد دار متواضعة تبدأ فيها قصتنا.

سكن في هذه الدار شيخ وقور له دكان لتصليح الساعات، وفي ركن منزوٍ من هذه الدكان توجد منضدة لأعمال أخرى سأعرج على ذِكرها بعد قليل.

كان الشيخ نحيف الجسم، قوي البنية، قمحي البشرة، متوسط القامة، تظهر على محياه الصبوح دلائل العزم والجد والذكاء. حذق صناعة إصلاح الساعات منذ نعومة أظفاره، ولم يكن يضيّع وقته هباء، وليس له كيف من الكيوف، فهو لا يدخن، ولا يجلس على المقاهي، ولا يسهر للمزاح والسمر. فإذا تخطَّيت العتبة داخلاً إلى دكانه الصغير، إما تراه يعمل في إصلاح الساعات، حتى إذا لم يبق لديه ما يصلحه قام إلى

المنضدة في ركن دكانه يجلد الكتب، فإذا لم يكن لديه ما يجلِّده من الكتب، شاهدته وبيده قلم رصاص مخمس الأضلاع، قصير ومبرِيٌّ من الناحيتَين، منهمكاً في ترتيب "مسند الإمام أحمد" الذي انتهى منه في نحو سنتين، وأسماه: (الفتح الرباني في شرح ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني- شيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي).

كان الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي- والد بطل قصتنا هذه- من علماء الحديث، حيث رتّب معظم أسانيد الأئمة الأربعة على أبواب الفقه، وله مؤلفات أخرى منها: " بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن".

٢ - الشيخ محمد زهران

وفي جهة تُطلُّ على النيل في المحمودية، تقع مدرسة الرشاد الدينية التي أنشأها الشيخ محمد زهران، وكان شيخاً ضريراً، وهي ليست مدرسة بالمعنى المتعارف عليه، إنما ساحة تضم عدداً من الكتاتيب، ذات حديقة يانعة الشجر، تطل أغصانها من فوق الجدران. وفي جانبي فناء المدرسة شجرتان باسقتان معمرتان، تحملان في أوان الربيع الزهر المونق الجميل، الذي ينفذ أريجه من شبابيك الفصول يصافح أنوف الصبية الصغار الذين يرتِّلون القرآن.

وكان للشيخ زهران أسلوبه المؤثر في التدريس الذي يبعث في النفس النشوة والابتهاج، أو يذيقها قوارص الحزن والانزعاج.

وفي ذات يوم من شهر أبريل سنة ١٩١٤، انطلق صوت الشيخ الأجش، ينبعث من أحد الفصول، موجَّهاً إلى فتى أجاب إجابة أطربت الشيخ أيما طرب فقال: اكتب يا بُنيَّ في كراستك تحت درجتك ما أمليه عليك:

حسنٌ أجاب وفي الجواب أجادا فالله يمنحه رضا ورشادا

كان ذلك الفتى هو (حسن البنا) المولود في ١٤ أكتوبر ١٩٠٦م، وكان في ذلك الوقت قد تجاوز الثامنة من عمره ببضعة شهور. وكان فتى طويلاً نحيلاً، أسود الشعر، وعلى شفتيه الواسعتين نضرة الشباب وبراءة الأطفال، فإذا انفرجت شفتاه تكشفتا عن أسنان قوية ناصعة البياض.

ثم توجه الشيخ بصوته الأجش إلى تلميذ آخر وأمره أن يكتب في كراسته تحت درجته:

يا غارةَ الله جِدِّي السيرَ مسرعةً في أخذ هذا الفتى يا غارة الله

ومن يومها جرى هذا البيت مثلاً، فأصبح الصبية عندما يريدون أن يغيظوا هذا التلميذ ينادونه (يا غارة الله)!

هكذا كان الشيخ زهران يعبر ببيت من الشعر أو بآية من القرآن من وحي اللحظة على كل موقف من المواقف.

٣ - المدرسة الإعدادية

لكن مدرسة الرشاد ما لبثت أنْ تداعت وأصبحت خاوية من الصبية النابهين بعدما انشغل الشيخ زهران عنها فلم يقدر أن يتابعها أو يدرس فيها، فعهد بمتابعتها إلى بعض العرفاء الذين أساءوا إليها ونفَّروا الصبية منها، وكان أول النافرين بطل قصتنا هذه.

لقد كان هذا الطفل مزوداً بغريزة نادرة. غريزة ستصحبنا على طول الكتاب كله. غريزة كانت تهديه إلى التعرف على أنسب الأوقات التي يجب أن يمضي فيها لحال سبيله ويرحل، فبدلاً من تضييع وقته فيما لا طائل وراءه، أراد أن ينهي علاقته بهذه الكتاتيب إلى غير رجعة. فإن كان لديك ميت فلا يحسن بك أن تتفقده كل خمس دقائق باحثاً عن النبض. لقد مات فارحل.

لذا فجأة، وفي تصميم عجيب، صارح حسنٌ والدَه بأنَّه لم يعد يطيق أن يستمر في هذه الكتاتيب، وأنه لا بد له من الذهاب إلى المدرسة الإعدادية. لكن والده الذي كان حريصاً على أن يتم ولده حسن حفظ القرآن عارض هذا الأمر، ولم يوافق على ذهابه إلى المدرسة الإعدادية إلا بعد أن تعهد الغلام أن يتم حفظ القرآن في البيت، فأصبح يقسم وقته بين المدرسة نهاراً، وتعلم صناعة الساعات، التي أغرم بها، بعد الانصراف من المدرسة إلى صلاة العشاء ثم يذاكر دروسه وينام، وبعد صلاة الفجر يبدأ في حفظ حصته من القرآن الكريم إلى أن يحين وقت ذهابه إلى المدرسة.

وفي المدرسة الإعدادية نضجت مواهبه القيادية، فأسس جمعية أسماها (جمعية الأخلاق الأدبية) وترأس هو قيادتها، وسنَّ لها لوائح داخلية تتلخص في الآتي:

"من شتم زميله غرم مليماً واحداً، ومن شتم والد زميله غرم مليمين، ومن شتم أمَّ زميله غرم قرشاً، ومن سبَّ الدين غرم قرشين، ومن يرفض التنفيذ يقاطعه زملاؤه حتى ينفذ".

ولا مندوحة عن القول أنه بمجيء نهاية العام كان قد تجمع مبلغ لا بأس به من هذه الغرامات تم إنفاقه في تكريم بعض الطلاب، وتجهيز ميت غريب أَلقى به النيل إلى جوار سور المدرسة.

وكان من عادة هذا الغلام السير على النيل ليُسَمِّع لنفسه ما حفظه من القرآن الكريم، فشاهد أثناء سيره عدداً من العمال الذين يعملون في صناعة السفن الشراعية قد عَلّق أحدهم على سارية السفينة تمثالاً خشبياً لامرأة عارية، فطلب منه بأدب جمٍّ أن يزيل هذا التمثال، إلا أن العامل النزِق[1] استحقره وسخر منه وأغلظ له في القول، فذهب الغلام إلى ضابط النقطة وقصَّ عليه القصة مستنكراً هذا الأمر، فأكبر الرجل هذه الغيرة من هذا الفتى الصغير، وقام معه من فوره، حيث هدد صاحب السفينة

[1] النزق الخفة والرعونة والطيش

وأمره أن ينزل هذا التمثال في الحال فأنزله بصمت دون أن ينبس بكلمة، وهو ينظر إلى هذا الفتى بغيظ وشر. وفي اليوم التالي حضر الضابط وأخبر مدير المدرسة بالأمر فأُعجب به أيما إعجاب، وأذاعه في طابور الصباح.

بطبيعة الحال، أثارت هذه الحادثة حنق بعض زملائه وحسد بعضهم الآخر وراحوا يسخرون منه قائلين: "الله يعطينا رضاك يا مولانا". لكن، والحق يقال، إنَّ هذه الأقوال لم تكن تؤثر فيه أدنى أثر، بل أحياناً كان يُسرُّ لسماعها؛ فقد كان محصناً ضدها بشكل عجيب.

وإلى جانب المدرسة يقع مسجد صغير، راح الغلام يحث زملاءه على الصلاة فيه جماعة في فسحة ما بعد الغداء. لكن حينذاك تكون صلاة الظهر قد انتهت في المسجد وخرج المصلون، وبطبيعة الحال، سيكون هذا الغلام هو إمامهم في الصلاة. وبتشجيع من هذا الغلام أخذ عدد التلاميذ يزداد يوماً بعد يوم، حتى زاد على ثلاثة صفوف، إلا أن إمام المسجد أزعجه إسراف التلاميذ في الوضوء وإفراغهم صهريج ماء المسجد. كذلك أصبح يرى بعض الخروق التي بدأت تظهر في حصير المسجد.

أحسَّ الشيخ بأنَّ الأمر بمثابة استيلاء على مسجده، فوقف ذات يوم بعد فراغ التلاميذ من الصلاة وقال بتهكم: ما شاء الله.. ما شاء الله!

ثم راح يفرقهم منذراً ومتوعداً، ففر الكثير منهم من سيل شتائمه. لكن الإمام الصغير لم يفر وأخذ ينظر إلى الشيخ بتحدٍّ واندهاش، ثم كتب له خطاباً وأرسله في البريد، ولا تسل عن مدى الفرحة التي تلقى بها الشيخُ الظَرْفَ البريدي؛ فقد ظنَّ أنَّ تبرعات للمسجد وَصَلته من أهل الخير، وتخيل نفسه والنقود تصلصل في جيبه؛ فإذْ به يفاجأ بأنَّ الخطاب لا يحوي سوى هذه الآية فقط:

{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}.

طبعاً لم يَحْتَجْ الأمر من الشيخ إلى ذكاء كبير ليَحْدِس ممن جاءته هذه الصفعة. نعم إنه ذلك المشاكس الصغير، عاشق القيادة الأبدي! فقابل والده شاكياً ومعاتباً -وكانت له به معرفة سابقة- ومن لا يعرف الساعاتي الوحيد في المدينة؟ لكنَّ الوالد أوصى الشيخَ بالتلاميذ خيراً، وعقد بينهما اتفاقاً غير مكتوب بأنْ يملأ التلاميذ صهريج المسجد بالماء قبل انصرافهم، وأن يجمعوا التبرعات لشراء الحصير للمسجد إذا ما أدركها البِلى فوافق التلاميذ وقضي الأمر.

***

في الحقيقة، لقد كان الغلام مديناً لتلك التجربة بالفضل في إطلاق عملية تطور ونمو شخصيته القيادية إلى حد كبير، (أقصد تجربة إرسال الخطاب إلى إمام المسجد). فالنمو عملية تراكمية متكررة لا نهاية لها، والإنسان عندما يتعلم شيئاً جديداً لا ينتقل من «خطأ» إلى «صواب»؛ إنما ينتقل من «خطأٍ قليل» إلى «خطأ أقل»، فهو خطأ بمقدار طفيف. ثم عندما يتعلم شيئاً جديداً آخر، فإنه ينتقل من «خطأ» أقل إلى «خطأ» أقل بقدر بسيط من الخطأ السابق، وهكذا دواليك يبقى في عملية اقتراب دائم من الكمال من دون أن يصل إلى ذلك الكمال أبداً.

فبعد هذه الحادثة اجتمع نفر من الأصحاب في المدرسة، وقرروا تأليف جمعية باسم (جمعية منع المحرمات) وتم توزيع أعمالها على أعضائها. فمنهم من كانت مهمته تحضير النصوص وصياغة الخطابات، وهو قائدهم، ولا حاجة بي لتذكيركم به فأنتم الآن تعرفونه جيداً، ومنهم من كانت مهمته كتابة هذه الخطابات. وآخر كانت مهمته طباعتها، والباقون كانت مهمتهم توزيعها على الذين يرتكبون بعض الآثام، أو على الذين لا يحسنون أداء بعض العبادات على وجهها الصحيح، خصوصاً الصلاة؛ فمن أفطر في رمضان وصله خطاب فيه نهي شديد عن هذا الفعل، ومن قصَّر في صلاته ولم يخشع فيها وصله خطاب كذلك، ومن تحلى بالذهب وصله خطاب فيه النهي عن

التحلي بالذهب، وأيَّما امرأة لطمت وجهها في مأتم وصل زوجها خطاب... وهكذا ما كان أحد من الناس صغيراً أو كبيراً يُعْرَف عنه شيء من المآثم إلا وصله خطاب من الجمعية ينهاه أشد النهي عما يفعل.

واعتقد الناس أنَّ من يقوم بهذا العمل هو الشيخ زهران، صاحب الكتاتيب، فكانوا يقابلونه ويلومونه لوماً شديداً ويطلبون منه أن يتحدث إليهم فيما يريد بدلاً من هذه الخطابات المستفزة. وكان الرجل يتنصل من ذلك ويدافع عن نفسه وهم لا يصدقونه، حتى وصله ذات يوم خطاب ينهاه عن الصلاة بين السواري.

فاستدعى الشيخُ تلميذَه حسن، وكان من عادته أن يقرأ للشيخ حكم مسألة من المسائل التي يطلبها الشيخ من أحد المراجع، فطلب منه أن يراجع حكم الصلاة بين السواري في كتاب "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"، فكان يقرأ الحكم وهو يبتسم، بينما كان الشيخ يتساءل مستغرباً عن هؤلاء الذين كتبوا له ووجد أنَّ الحق معهم! وأنهى حسن هذا الأمر إلى أعضاء الجمعية فكان سرورهم به عظيماً.

استمرت الجمعية تؤدي عملها أكثر من ستة أشهر، وهي مثار عجب الناس ودهشتهم، حتى اكتُشِف أمرها على يد صاحب قهوة استدعى راقصة فوصله خطاب من الجمعية. وكانت الخطابات لا ترسَل بالبريد اقتصاداً في النفقات، إنما يحملها أحد الأعضاء ويضعها خفية في مكان يراه صاحبها فيستلمها ولا يرى مَنْ جاء بها، ولكن «المعلم» كان يقظاً فشعر بحركة حامل الخطاب فقبض عليه متلبساً بخطابه وعاتبه عتاباً شديداً أمام رواد القهوة، وعُرِفت الجمعية من هذا الطريق وأحسّوا بالخطر من استمرارها.

إننا نحن البشر، مثل كل الكائنات، نستشعر بوجود الخطر، فلدينا نعمة وجود حارس داخلي ذكي مستعد دوماً لتحذيرنا من المخاطر وتوجيهنا أثناء الأزمات. لذلك رأى قائد الجمعية أن يتوقفوا عن إرسال الخطابات ويعملوا بأسلوب آخر لمنع المنكرات.

٤ - الشيخ حسنين الحصافي

في الوقت الذي كان فيه حسن البنا في المدرسة الاعدادية كان الشيخ حسنين الحصافي رجلاً يناهز الستين، كان مصرياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، طويل القامة نحيفاً، أسود الشعر واللحية، رقيق الشفتين، ضيِّق العينين، أملس الجبهة، يميل لونه إلى الشحوب، يرتدي دوماً عمامة سوداء، حاد الملامح، لا توجد تجاعيد على صدغيه ووجهه، كان يبدو كمن لو عاش ألف سنة لن تطاله الشيخوخة.

وُلِد الشيخ حسنين الحصافي عام ١٨٤٨م، في كفر الحصافة، وحفظ القرآن الكريم قبل أن يتوجه إلى الأزهر لطلب العلم. وفي قائمة أسماء العلماء الذين تتلمذ على أيديهم نجد كبار الأزهريين في عصره، فاشتهر بنبوغه بين أقرانه في تحصيل العلوم الشرعية والعقلية، مع علو همته الروحية.

لكنَّ هذا ليس كل شيء؛ فالشيخ حسنين الحصافي كان غريب الأطوار يحيط به الغموض، يزوره كبار رجال الدولة، ويتقربون منه ويخشونه في الوقت ذاته. كان يجوب الأقاليم شرقا وغرباً كمن يبحث عن شيء لا يَعرف كنهه. يزور أولياء الله الصالحين باستمرار، حتى عرفه أهل دمنهور وأحبوه، وأصبحوا يسمون أبناءهم باسمه. وفي نهاية المطاف اشترى قطعة أرض بجوار مقابر دمنهور لإقامة الحضرات النبوية، أصبحت فيما بعد تسمى "مسجد الحصافي"، أشهر مساجد الصوفيين في دمنهور.

قيل إنه لما وفد إلى دمنهور كانت تعجُّ بالربا والبلطجية والخمور وتجار السلاح، فما إن انتقل إليها حتى تحول أكثرهم إلى طريقته الصوفية ولازموه كظله وأصبحوا يرتشفون تعاليمه ارتشافاً.

ومن الغرائب التي تروى عنه: أنَّ رجلاً رآه يتوضأ فقال ساخراً: زمزم يا سيدي. وكانت زوجة هذا الرجل تسمى زمزم، فردَّ عليه الشيخ قائلاً: عوضك الله عنها خيراً. فلما رجع الرجل إلى بيته وجد زوجته "زمزم" قد توفيت!

سوف يسارع البعض وينسب هذه الأمور إلى الخرافة والدجل، لكن هذا لن يريحنا ولن يحل المسألة. كلا! لست على وشك كشف سرِّ هذه الأشياء، وأعرف أنني لن أبوح بالتفسير الذي يريحكم لأننا كائنات بشرية معقدة أشدَّ التعقيد، وإننا لن نملك أبداً القدرة على فهم كل شيء، وهذا لن يبدو لنا منطقياً، لكن يجدر بنا أن نكتفي بقبول أنَّ هناك دائماً أشياء تفوق قدراتنا على الفهم، وإننا لن نحصل على إجابات شافية لها، فهي تفتقد إلى المنطق في كثير من الأحيان. لكن دع الأمور تجري في أعِنَّتها وثِقْ بأنك لن تفهم كل شيء مهما حاولت!.

ومن الحكايات التي تروى عن الشيخ حسنين الحصافي أنه زار رياض باشا رئيس الوزارة، فدخل أحد العلماء وسلّم على الباشا وانحنى حتى قارب الركوع، فقام الشيخ مغضباً وضربه على خديه بمجمع يده ونهره بشدة قائلاً: استقم يا رجل فإنَّ الركوع لا يجوز إلا لله، فلا تذلوا الدين والعلم فيذلكم الله. ولم يستطع العالِم ولا الباشا أن يؤاخذاه بشيء.

ودخل أحد الباشوات، من أصدقاء رياض باشا، وفي إصبعه خاتم من ذهب وفي يده عصا مقبضها من ذهب كذلك، فالتفت إليه الشيخ وقال: يا هذا إنَّ استعمال الذهب هكذا حرام على الرجال حلال على النساء؛ فأعط هذين لبعض نسائك ولا تخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأراد الرجل أن يعترض فتدخل رياض باشا ومنعه من الاعتراض، وهمزه بإشارة فهم معناها: «دع هذا اليوم النحس يمضي على خير». وبقي الشيخ حسنين مُصراً على أنه لا بد من خلع المقبض والخاتم فاضطر الباشا إلى خلعهما.

وزار مرة بعض مريديه من الموظفين في دائرة المساحة فرأى على مكتبه بعض تماثيل من الجبس فسأله ما هذا يا فلان؟ فقال: هذه تماثيل نحتاجها في عملنا. فقال: إنَّ ذلك حرام. وأمسك بالتمثال وكسر عنقه، وفي هذه اللحظة دخل المفتش الإنجليزي ورأى هذا المنظر فناقش الشيخَ فيما صنع. فرد عليه وأفهمه أنَّ الإسلام إنما جاء ليقيم التوحيد

الخالص ويقضي على كل مظهر من مظاهر الوثنية في أية صورة كانت. ثم أفاض في الحديث فظنَّ المفتش أنَّ في الشيخ لوثة من الجنون فأذعن ولم يعترض حتى خرج.

ومنذ ذلك الحين ما إن يسمع موظفو دائرة المساحة بقدوم الشيخ حسنين حتى يسارعوا إلى إخفاء تماثيلهم حتى لا يحطمها، فإذا خرج من الدائرة مشيَّعاً بالضحكات المكتومة أعادوها إلى مكانها ساخرين.

توفي الشيخ حسنين الحصافي يوم الخميس ٢٤ يونيو ١٩٢٠[٢]م، وكان حسن البنا إذ ذاك في الرابعة عشرة فلم يجتمع به على كثرة تردده على المحمودية، فلَكَمْ أسِفَ على ذلك أشدَّ الأسف.

جملة القول، لقد افتتن الفتى بالشيخ حسنين وأحبه حباً جماً، حتى صار يراه في أحلامه، سائلاً عن حكاياته وأخباره، محاولاً الاقتداء به وتقفي آثاره، لكنه سرعان ما أدرك في أسى عميق أنه مهما حاول فلن يصل إلى مقام الشيخ ولا نصيفه. وهنا اكتشف بطلنا قرينة أذهلته حتى أعماق روحه: أنه «حسنٌ» واحد، بينما الشيخ «حسنين» اثنين!

رأى الغلامُ الشيخَ حسنين ذات ليلة في منامه. رأى نفسه يذهب إلى مقبرة البلد فشاهَدَ هناك قبراً ضخماً يهتز ويتحرك، حتى انشق فخرجت منه نار عظيمة امتدت إلى عنان السماء ثم تشكلت فصارت مارداً هائل الطول والمنظر، واجتمع الناس عليه من كل مكان فصاح المارد فيهم بصوت واضح مسموع قائلاً: «أيها الناس إنَّ الله قد أباح لكم ما حرم عليكم، فافعلوا ما شئتم!» فانبرى حسن البنا من وسط الجموع قائلاً: كذبت. ثم التفت إلى الناس قائلاً: «أيها الناس إنَّ هذا إبليس اللعين جاء يفتنكم عن دينكم فلا تصغوا إلى قوله». فغضب المارد وقال: «لا بد من أن نتسابق أمام هؤلاء الناس فإن سبقتني ولم أقبض عليك فأنت صادق». فأخذ يعدو أمامه بأقصى سرعته. وانطلق المارد يعدو خلفه بخطوات جبارة، وقبل أن يدركه ظهر الشيخ حسنين

[٢] أشار حسن البنا في مذكراته أنَّ الشيخ حسنين الحصافي توفي عام ١٩١٠ وهذا خطأ مطبعي لم ينتبه له أحد، وتابعه في هذا الخطأ كل من كتب عن الشيخ الحصافي؛ فالبنا وُلد عام ١٩٠٦ فكيف كان له من العمر ١٤ سنة يوم توفي الشيخ الحصافي؟

فاحتضن حسن واحتجزه بيساره، ورفع يمناه صائحاً في المارد: «اخسأ يا لعين» فولى الأدبار واختفى.

إذن، هاكم هذا الذي صقل روح بطلنا: إنه الصوفي المثير للجدل حسنين الحصافي. فقد ورث عنه حسن البنا الكثير من الخصال التي كان يخفيها في ثياب عصرية ويقدمها في أطباق شهية.

فَحْوى الأمر، لقد أصبح بطلنا حصافياً مبتدئاً لا بأس به.

٥ - بداية التعارف مع الحصافيين

كانت بداية معرفة حسن البنا بالحصافيين في المسجد الصغير بالمحمودية، عندما رآهم يذكرون الله تعالى عقب صلاة العشاء من كل ليلة. وهنا وقع الغلام في تناقض صارخ، فقد كان مواظباً على حضور دروس الشيخ زهران بين المغرب والعِشاء. ولست بحاجة إلى القول بأنَّ الشيخ زهران كان يكره الحصافيين ويسخر منهم بطريقته اللاذعة المعروفة، فقد كان صاحب نكتة، ولسان سليط، وخطب رنانة، وذاكرة حادة تحفظ القرآن الكريم والمتون الفقهية والقصائد الشعرية.

لكنَّ الحصافيين، على الرغم من ذلك كله، اختطفوا تلميذه النجيب بأصواتهم المنسقة، ونشيدهم الجميل، وروحانيتهم الفياضة، وتواضعهم له عندما اقتحم عليهم مجلسهم عِشاءً ليشاركهم في ذِكر الله، فواظب على حلقاتهم، وتوطدت الصلة بينه وبين شباب الحصافيين، فأصبح يبتعد عن الشيخ زهران رويداً رويداً.

لقد ارتشف الفتى الروح الزهرانية ارتشافاً، فلم يَبقَ لدى الشيخ زهران ما يحتاج إليه لصقل روحه العطشى بالمسحة الزهرانية. وهنا أدركت الفتى غريزته المدهشة في الوقت المناسب. تلك الغريزة التي تجسدت في عبارة: «لقد مات فارحل!».

في حلقة الذكر هذه التقى الفتى لأول مرة بالشيخ أحمد السكري، الذي أصبح وكيل الإخوان المسلمين لاحقاً، ثم الشيخ المطرود آخِراً.

أخذ الفتى يواظب على الأوراد الروحية للحصافيين صباحاً ومساء. وأصبح يتطلع إلى التعرف على الشيخ «عبد الوهاب الحصافي» نجل الشيخ حسنين الحصافي، الذي أصبح شيخ الطريقة الحصافية خَلَفاً لوالده، وتطلع إلى الالتقاء به وأخذ العهد عنه.

حضر الشيخ عبد الوهاب إلى دمنهور فكان الفتى شديد الفرح بهذا النبأ، وذهب إلى الشيخ بسيوني، أقرب المقربين للشيخ عبد الوهاب، ورجاه أن يقدمه للشيخ ففعل.

وفي يوم الأحد عقب صلاة العصر ٢٠ ابريل ١٩٢٣م، كان يُقَبِّل يد الشيخ «عبد الوهاب الحصافي» فتى في السابعة عشرة ويأخذ العهد على يديه. وبعد ذلك راح الاثنان يتهامسان حتى أذان المغرب. ما الذي قالاه؟ لسنا ندري.

***

لقد كان بطلنا يبحث عن الشيخ حسنين الحصافي في شخصية نجله الشيخ عبد الوهاب الحصافي، لكن هيهات أن يدرك الضالع شأو الضليع!

لا شك أنَّ الشيخ عبد الوهاب ورث عن والده الكثير من الخصال الطيبة، كالعفة والزهد، والجد في الأمور، والروحانية العالية، والتحرر من صرف الأوقات في غير العلم أو التعلم أو الذكر.. لكن أين ذلك كله من والده الشيخ حسنين الحصافي أعجوبة الأعاجيب!.

جملة القول، لم يشعر بطلنا بأستاذية الشيخ عبد الوهاب، ولم يشعر بأنه تلميذ مريد بين يدي شيخ مراد، إنما شعر شعور الند للند. ومذ تعارفا أصبحا كفرسي رهان، يسابق أحدهما الآخر في نفس المضمار، لكن بدون أن يذعن له إذعان المريد للرائد، إنما كانا يتناقشان ويتجادلان ويختلفان ويفترقان ويتصالحان، وهكذا دواليك.

أحيانا كان الشيخ عبد الوهاب يغتاظ من هذا الفتى فيقول في دروسه تعريضاً بهذا الفتى صعب المراس: (كان الأشياخ في قديم الزمان أصحاب قدم، والمريدون أصحاب ألم، فاليوم- واحسرتاه- ذهب القدم والألم). وكان أحياناً يقول ساخراً: (المريد يسأل عن غصة والشيخ يعرف القصة!).

في هذه الأثناء بدا للفتى أن يؤسس في المحمودية جمعية إصلاحية أسماها «الجمعية الحصافية الخيرية» واختير الشيخ أحمد السكري رئيساً لها وانتُخِب الفتى سكرتيراً لها، وزاولت الجمعية عملها في ميدانين؛ الأول: نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ومقاومة المنكرات الفاشية كالخمر والقمار وبدع المآتم. والميدان الثاني: مقاومة الإرسالية التبشيرية التي هبطت إلى المحمودية فجأة واستقرت فيها، وأخذت تبشِّر بالمسيحية تحت ستار التمريض والتطريز وإيواء المشردين.

كان الشيخ عبد الوهاب الحصافي سعيداً بهذه الجمعية الحصافية، وإن كانت قد بدأت تنتهج نهجاً ثورياً أقلقه وتوجس منه ريبة، لكن لا بأس ما دام الفتى ومعاونوه تحت السيطرة، منضوين تحت عباءة الحصافيين لم يخلعوا ربقة الطاعة بعد.

لكن في عقل الفتى أومضتْ شارة حمراء كتب عليها: «لقد مات فارحل!».

جملة القول، لقد استمرت صلة «حسن البنا» بشيخه «عبد الوهاب الحصافي» على أحسن حال حتى أُنشِئتْ حركة (الإخوان المسلمون) عام ١٩٢٨، وكانت ضربة قوية للحصافيين، إذ لم يكن لهم منافسٌ قويٌ حتى الآن. وكان للشيخ عبد الوهاب فيها رأي واضح لم يتزحزح عنه، ولحسن البنا رأي واضح لم يتزحزح عنه، وانحاز كلٌّ إلى رأيه، وافترق الرأيان افتراقاً لا رجعة فيه.

لقد ظن الشيخ عبد الوهاب أنَّ مريده حسن البنا سوف يُصغي إليه ويطيعه كما يطيعه مريدوه وأتباعه. لكن هيهات هيهات! فقد كان هذا المريد المشاكس لا ينصت إلا لصوت حدسه الداخلي، فهذا هو مستشاره الوحيد الذي يثق به.

فيما بعد، سيقول أعداء بطلنا من الحصافيين المعاصرين، وهم من الكثرة بمكان: (إنَّ «حسن البنا» خان العهد ولم يصن البيعة التي أعطاها للشيخ عبد الوهاب الحصافي، وذهب لإنشاء جماعة "الإخوان المسلمون"، مما جعل الشيخ يغضب عليه، ويُصدِر أمراً بفصله من الطريقة، ويمنعه من حضور الحضرة في مسجد الحصافي بدمنهور).

بل إنَّ بعضهم أكَّد أنَّه سمع الشيخ عبدالوهاب الحصافي، يدعو على جماعة الإخوان عند تأسيسها بثلاث دعوات: (اللهم إنهم فتنة سيشتكي منها أهل الأرض، وتضج منها ملائكة السماء، فلا تُقم لهم ذلًّا إلا بعد عزٍّ. اللهم وسلطهم على أنفسهم، وأرهم الباطل حقاً والحق باطلاً. اللهم كثِّر عددهم وقلل مددهم).

إنَّ أيِّ شخص سيشعر بدهشة هائلة عندما يسمع هذا الكلام المنسوب إلى الشيخ عبد الوهاب الحصافي، ومن غير المفهوم من الذي اختلق هذه الدعوات الثلاث، (هذا مع العلم أنها أربع وليست ثلاث!).

لكنني أؤكد أنه كانت تربط حسن البنا بالشيخ عبد الوهاب صلات روحية عميقة إلى آخر يوم في حياتيهما، فقد كتب البنا في مذكراته قبل اغتياله بشهور: «ولا زلنا نحفظ للسيد عبد الوهاب الحصافي- جزاه الله عنا خيراً- أجلَّ ما يحفظ مريد محب مخلص لشيخ عالم عامل تقي، نصح فأخلص النصيحة، وأرشد فأحسن الإرشاد، فقد كانت توجيهاته كلها إلى الخير وما علمنا عليه إلا خيراً، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين».

كما أنه من غير المعلوم بدقة متى انقطع البنا عن حضور الحضرات التي يقيمها الشيخ عبد الوهاب الحصافي بدمنهور، وقرار منع حضوره الحضرات- إنْ صدر- فلن يكون ذا قيمة، ولن يكون له أيُّ أثر يذكر، إنما يمكنني قول شيء واحد بأنَّ حسن البنا

منذ تأسيس جماعة الاخوان لم يكن لديه الوقت الكافي ولا الرغبة الملحة لحضور هذه الحضرات، فهي شيء من الماضي الذي لا يتلاءم مع نموه الفكري وتطوره الروحي. ودوماً ستجد رأسه مشحوناً بنشاطات الاخوان والشُّعَب الإخوانية، والمؤتمرات، والمعسكرات، والرحلات...

كما يمكنني القول بأنَّ أخلاق الشيخ عبد الوهاب ورجاحة عقله تمنعانه من التصرف بمثل هذا النزق.

بل إنَّ بعضهم قال، وهو من جماعة الإخوان بطبيعة الحال: (إنَّ من أسباب موت الشيخ عبد الوهاب حزنه على المحنة التي لاقاها صديقه حسن البنا، حيث مات الشيخ عبد الوهاب قبل نحو شهر من اغتيال حسن البنا).

بل إنَّ بعضهم ذهب إلى أكثر من ذلك مؤكداً بأنَّ الشيخ عبد الوهاب- منذ صدور قرار حل جماعة الإخوان- كان يرى والده الشيخ حسنين الحصافي، كل ليلة في المنام وهو يبكي «حسن البنا» حتى ابيضت عيناه من الحزن، وهو يقول: (قتلوا ولدي.. قتلوا ولدي)!.

في الحقيقة كل هذه الأقوال لا أقدر أؤكدها أو أنفيها، إنما بمقدوري تأكيد شيء واحد فقط، وهو أنَّ الشيخ عبد الوهاب الحصافي توفي بتاريخ ١٤ يناير ١٩٤٩ قبل اغتيال حسن البنا بتسعة وعشرين يوماً، وبعد معرفته لحسن البنا بتسعة وعشرين عاماً.

٦ - في دمنهور

منذ دخول الفتى مدرسة الرشاد الاعدادية إلى مبايعته الشيخ عبد الوهاب الحصافي عام ١٩٢٣، جَرَت أحداث كثيرة لا بد من سردها؛ فقد تم إلغاء نظام المدارس الإعدادية وتحويلها إلى مدارس ابتدائية، فلم يكن أمام الطالب إلا أن يتوجه إلى مدرسة المعلمين الأولية بدمنهور، وكان إذ ذاك في منتصف الرابعة عشرة.

تبعد دمنهور عن المحمودية ١٢ ميلاً، فاضطر الفتى أن يقيم في دمنهور طوال الأسبوع ويعود إلى المحمودية يوم الخميس. وكانت أيام مدرسة المعلمين في دمنهور أيام استشراق روحي كبير، وتعمقٍ في التصوف إلى أبعد حد؛ فقد نزل الفتى دمنهور مشبعاً بالفكرة الحصافية. ودمنهور مقر ضريح الشيخ حسنين الحصافي. وفي مدرسة المعلمين بدمنهور نخبة من المدرسين الكبار، أتباع الشيخ حسنين الحصافي، فاندمج سريعاً في وسطهم وغرق في اتجاههم حتى أذنيه.

وكان بعض هؤلاء المدرسين يعقد اجتماعات علمية ووعظية في بيته، يدرِّس فيها كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، فكان يجد نفسه، وهو الطالب الصغير، بين كبار الأساتذة الذين شجعوه على السير في هذا الطريق.

وفي رمضان كان يعتكف لياليَ بطولها مع لفيف من الحصافيين في مسجد «الجيشي» فيصلي العشاء ثم يتناول قليلاً من الطعام، ثم يذكر الله بعض الوقت، ثم ينام قليلاً، وفي نحو منتصف الليل يقوم للتهجد إلى الفجر، ثم يقرأ الأدعية والأوراد، ثم ينصرف إلى مدرسة المعلمين.

أما يوم الجمعة- التي لا ينزل فيها إلى المحمودية ويقضيها في دمنهور- فإنه يقضيها في زيارة قبور الأولياء في ضواحي دمنهور وما أكثرها، فيسير على أقدامه من بعد صلاة الفجر، فيصل في الساعة الثامنة صباحاً، ويزور قبر أحد الأولياء ويسأل عن سيرته وأحواله وكراماته، ثم يصلي الجمعة هناك، ويستريح إلى صلاة العصر، ثم يعود أدراجه إلى دمنهور فيَصِلَها بعد الغروب.

في هذه الأيام أراد أن يطبق على نفسه بلا هوادة كل ما سمعه أو قرأه عن الأولياء، فبدأ يصوم عن الكلام ويبتعد عن الناس لأيام، فلا يكلم أحداً إلا بالذكر أو القرآن. وانتهز الطلبة الخبثاء هذه الفرصة لمعاكسته والسخرية منه، فكانوا يذهبون إلى الناظر أو الأساتذة مبلغين أنَّ فلاناً أصيب بشلل في لسانه، ويأتي الأستاذ يستوضح الأمر، فكان يجيبه بآية من القرآن فينصرف. لكنَّ بعض الأساتذة المتصوفين كان يُكْبِر هذا الأمر

فيزجر الطلاب، ويوصي بقية الأساتذة ألا يحرجوه بالأسئلة في فترة صمته، إذ كانوا يعلمون حقاً أنَّ ذلك ليس هرباً من إجابة أو تخلصاً من امتحان، فهو دائماً مجيد لدروسه إجادة تامة.

لقد كان هذا الفتى يرى بأنَّ الإنسان يمتلك حدوداً للراحة يشعر داخلها بالدفء والأمان. لكنه من وقت لآخر يكون بحاجة لاختراق هذه الحدود الآمنة ومواجهة التحدي والصعاب. إنه إنْ بقي متشبثاً بحدوده الآمنة المعهودة؛ فإنَّ هذه الحدود سوف تشرع في الانكماش، فلا يجب أن تبقى حياته على وتيرة واحدة.

إذن، عليه أن يوجه لنفسه، من حين لآخر، لكزة توقظه من سباته الآمن؛ فلا بدَّ من القيام بشيء لم يسبق له القيام به، فهذه القيود تَحُدُّه، وتدفعه للتراجع إلى الوراء. فإقدامه على تخطي حدوده الآمنة سوف يضعه خارج حدود نفسه، ويجعله دائماً في حالة تطور ونمو وتحدي.

لذا، فقد كان كل يوم في حالة مختلفة، تتطور يوماً بعد يوم، فأحياناً تصل به إلى نفور من الناس واعتزالهم وقطع العلائق عن كل شيء سوى الله، لدرجة ألا يحاول قراءة الخطابات التي تأتيه من الأصدقاء أو حتى فتحها. كما أنه أجج النار في ديوان شعر كبير كان قد كتبه في المرحلة الاعدادية، وكذلك أحرق رواية كان قد كتبها في نفس المرحلة، لأنه رأى أنَّ الاشتغال بغير عبادة الله حائل عن الوصول إلى مقام أولياء الله الصالحين.

وأحيانا كان يجعل له حبلاً في سقف حجرته يربط نفسه به حتى لا يضع جنبه على الأرض، وقد بالغ في التورع حتى كان لا يمر في ظل عمارة أحدٍ من الأغنياء خوفاً من أن يكون في ماله شبهة حرام. وكان لا يأكل شيئاً إلا بعد التفتيش عن مصدره غاية التفتيش، ثم أصبح ينظر إلى لون الطعام أو رائحته فيخيل إليه أنه يدرك للحلال رائحة، وللحرام رائحة. ثم هَمَّ أن يسفَّ التراب، كما كان يفعل «إبراهيم بن أدهم» عندما لا يجد طعاماً، فيجد له دسَماً كدسم اللحم أو السمن أو اللبن. لكنْ، وأسفاه، كان والده يرسل إليه مصروفه الذي يكفيه ويزيد عن حاجته، فلا حاجة به إلى سَفِّ التراب!.

لكن على الرغم من هذا كله، فإن نزعة القيادة ودعوة الناس، التي تجري في عروقه كانت تتغلب عليه دائماً، فكان يؤذن الظهر والعصر في مصلى المدرسة، ويدعو الطلاب إلى الصلاة ويصلِّي بهم إماماً ويعظهم ببعض المواعظ.

في هذه الفترة كان لا يرتدي إلا العمامة ذات العَذَبَة[٣]، والرداء الأبيض، ولا ينتعل إلا الخفَّ، تطبيقاً للسُّنة النبوية كما قرأها في كتب السيرة؛ مما عرَّضه للعديد من المشاكل بَلْه[٤] السخرية من الطلاب.

رآه ذات يوم مدير التعليم، فسأله لماذا يلبس هذا الزي؟ فقال: تطبيقاً للسُّنة. فقال : وهل عَمِلْت كل السنن ولم يبق إلا الزي؟ فقال: لا، لكن ما لا يدرك كُلُّه لا يترك جُلُّه. فقال مدير التعليم: لكنك بهذا الشكل خرجت عن النظام المدرسي. فقال: لِمَ؟ ثم استدرك يقول: إنْ كان النظام المدرسي في المواظبة فأنا لم أغبْ عن درس أبداً. وإن كان النظام المدرسي في التفوق فأنا أول فرقتي، وأساتذتي راضون عني والحمد لله، ففيمَ الخروج عن النظام إذن؟.

فقال مدير التعليم وقد أذهله الجواب حقاً: لكنك إذا تخرجت وأصررت على هذا الزِّيِّ فلن تسمح الوزارة بتعيينك مدرساً. فقال: على كل حال هذا لم يجئ وقته بعد، وحين يجيء وقته تكون الحرية للوزارة في تعييني، وتكون الحرية لي في اللباس أو خلعه، والأرزاق بيد الله لا بيد الوزارة. فسكت المدير، وتدخل الناظر في الأمر حتى لا يتطور النقاش إلى ما لا يحمد عقباه، فقدمه إلى المدير بكلمة طيبة ثم صرفه إلى فصله، وانتهت المشكلة بسلام.

وكان قد ألزم نفسه بالصدق وتجنب الكذب مهما كانت التبعات. حدث ذات يوم أن اشترك في مظاهرة، فداهم البوليس منزل امرأة عجوز كان يسكن فيه بدمنهور، فلما اقتحم البيت وسألها عن المتظاهرين، أجابت العجوز بأنهم خرجوا منذ الصباح ولم

---

[٣] العذبة. طرف الشَّيْء يُقَال عذبة السَّوْط وعذبة اللِّسَان وعذبة الْعِمَامَة.

[٤] بَلْه : ناهيك عن

يعودوا. لكن هذا الجواب، غير الصادق، لم يرُقْ لبطلنا فخرج إلى الضابط وصارحه بالأمر، وكان موقف المرأة حرجاً، فأخذ يناقشه بحماس وقال له فيما قال: إنَّ واجبه الوطني يفرض عليه أن يكون مع المتظاهرين لا ضدهم، فكانت النتيجة أن الضابط استجاب لهذا القول فعلاً، فخرج وصرف عساكره، ورجع الفتى إلى زملائه المختبئين وهو يقول: هذه بركة الصدق، فلا بد أن نكون صادقين ونتحمل تبعة عملنا، ولا لزوم للكذب أبداً مهما كانت الأحوال.

وقد تقاسم مع بعض الأصحاب- أو إن شئت الدقة الأتباع- أن يوقظوا الناس لصلاة الفجر قبل الأذان بقليل، فكان يجد سعادة كبرى وارتياحا عظيماً حين يوقظ المؤذنين لأذان الفجر، ثم يقف في هذه اللحظة السحرية الشاعرة على شاطئ الترعة يُصغِي إلى الأذان وهو ينطلق من حناجرهم في وقت واحد، ويخطر بباله أنه سيكون سبباً لإيقاظ هذا العدد من المصلين، وأن له مثل ثوابهم، وكان يضاعف هذه السعادة عندما يذهب بعد ذلك إلى المسجد فيرى نفسه أصغر الجالسين سناً، فيحمد الله على هذا التوفيق.

بقي شيء واحد يمكن قوله بخصوص مدرسة المعلمين حينذاك؛ فهي قد جمعت نخبة من الأساتذة الأزهريين الذين كانوا يحثون الفتى ويشجعونه على القراءة والدرس والمطالعة، بل إنَّ بعضهم اختصه بتصحيح بعض بروفات كتبه، التي كانت تطبع إذ ذاك بمطبعة دمنهور. وكان لهذه العوامل أثرها في نفسه مما جعله يحفظ كثيراً من المتون؛ فحفظ ملحة الإعراب للحريري، ثم الألفية لابن مالك، والياقوتية في المصطلح، والجوهرة في التوحيد، والرجبية في الميراث، وكثيراً من متن القدوري في فقه أبي حنيفة، والتقريب لأبي شجاع في فقه الشافعية، ومنظومة ابن عامر في مذهب المالكية، ومتن الشاطبية في القراءات. ومما كان يشجعه على ذلك العبارة المأثورة: (منْ حفِظَ المتون حاز الفنون).

ومن الطرائف أن بعض المفتشين زار فصله في حصة من حصص اللغة العربية، فسأل عن علامة الحرف الإعرابية. فانتدبه الأستاذ للإجابة، فكان جوابه بيتاً من ملحة الإعراب للحريري:

والحرف ما ليست له علامة فَقِسْ على قولي تكن علَّامة

فابتسم الرجل وقال: حاضر يا سيدي، سأقيس على قولك لأكون علَّامة!

وشكر الأستاذ والطالب وانصرف.

٧ – إلى دار العلوم

بعدما نال الطالب حسن البنا شهادة المعلمين الأولية في دمنهور، كان لا بدَّ أن يتقدم إلى كلية دار العلوم في القاهرة، حتى يصبح مدرساً عالياً لا مدرساً أولياً. وفي نفسه تصارعت أفكار عنيفة متناقضة: لماذا أريد دخول دار العلوم؟ هل للجاه حتى يقول الناس إنني مدرس عالٍ لا مدَّرس أولي؟ أليس هذا طلباً للجاه، وطلب الجاه حرام؛ فهو داء من أدواء النفس، وشهوة من شهوات القلب. فإذا تغلب على هذه الفكرة، راودته فكرة أخرى: هل تريد دخول دار العلوم لتضاعف المرتب، وتكنز الأموال، وتلبس الملابس الفاخرة، وتطعم المطاعم اللينة، وتركب المركبات الفارهة؟ أليس هذا شر ما يعمل له إنسان، وقد تعس عبد الدرهم والدينار؟

لقد شغلته هذه الأفكار المثالية طويلاً، وسوف تشغله مرة أخرى عندما يتخرج من دار العلوم بالقاهرة بعد سنوات قلائل، وحينئذ سوف يتطلع إلى ترشيح نفسه للبعثة إلى الخارج للاستزادة من العلم من أوروبا أو حتى من الصين، وسوف يضحك على أفكاره الساذجة التي أتعبته كثيراً في هذه اللحظة!

على أي حال، في نهاية عام ١٩٢٣، وصل حسن البنا إلى القاهرة لأول مرة في حياته، كانت القاهرة تعيش أجواء رمضان، وكانت سِنُّه إذ ذاك قد شارفت على السابعة عشرة.

نزل في باب الحديد عصراً، ومن هناك ركب الترام إلى العتبة، ومنها إلى سيدنا الحسين، حيث قصد دكان أبو الوفا، تاجر الكتب صديق والده، وسلمه الخطاب الذي استغرق الوالد في كتابته أكثر من ساعتين وهو ينتقي أفخم العبارات لتؤثر في أبو الوفا، لكنَّ أبو الوفا، الذي لم يكن لديه من الوفا إلا اسمه، لم يستغرق في قراءة الخطاب أكثر من دقيقة، ولم يكترث بالخطاب ولا بحامله، ولما طلب حاملُ الخطاب المذهول أن يدله أبو الوفا على صانع نظارات يصنع له نظارة استعداداً للكشف الطبي أعرض وأبى. فأصبح الوضع شاقاً على الطالب.

لحسن الحظ، فإنَّ المتصوفة يعرفون بعضهم بعضاً من النظرة الأولى، فقد لاحظ أحد عمال المحلِّ الموقف، وكان متصوفاً، فلحق بالطالب المحبط بعدما خرج هائماً على وجهه، فرحب به وأكرم وفادته، ثم أخذه إلى منزله وتناولا الإفطار والسحور معاً، وبات عنده تلك الليلة، ومع أن والدته قد خصته بكمية كبيرة من الفطائر والجبن، إلا أنه لم يتناول منها غير النزر اليسير لفرط اهتياج مشاعره، وأهداها بربطتها للرجل المضياف. وفي الصباح دلَّه الرجل على مدرسة دار العلوم، وعلى دكتورة يونانية متمصرة، وصفها بالحذق والمهارة، فصنعت له نظارة مناسبة، ثم ركب الترام إلى شارع القصر العيني مقابل دار العلوم. وهناك تعرف على أصدقائه فسكن معهم في منزل قريب منها.

وتوالت ضربات الحظّ على طالب دار العلوم الجديد، فاجتاز امتحان الكشف الطبي بسهولة ويسر، حيث كان اسمه في كشف أكثر الأطباء إغضاء وتسامحاً، فنجح مع شكه التام في النجاح. أما زملاؤه فقد أوقعهم حظهم العاثر في كشف أشد الأطباء غلظة وتزمتاً، فرسبوا مع تأكدهم التام من النجاح. وكان الوقت لا يزال رمضان، والصيام يفعل فعله في بعض النفوس؛ فيزيدها إما جفاء إلى جفوتها، أو سماحة إلى سماحتها.

وما إن خرجت نتيجة الكشف- والوقت لا يزال رمضان- حتى حمل الطالب أمتعته وكتبه ويمم وجهه شطر الأزهر الشريف. وهناك في القبلة القديمة حطَّ رحاله ونوى الاعتكاف أسبوعاً للقراءة استعداداً لامتحان دار العلوم. وكان أشدَّ ما يكره النحو والصرف والعروض، إلا أن رؤيا صالحة طافت برأسه ليلة الامتحان، فقد رأى نفسه يركب زورقاً يسير الهوينا في نسيم ورخاء على صفحة النيل، فتقدم منه عالم أزهري وقال: أين شرح الألفية لابن عقيل؟ فقال: ها هو ذا. فقال: هيّا نراجع فيه بعض الموضوعات: هات صفحة كذا وكذا، وصفحة كذا وكذا. فاستيقظ في الصباح منشرح الصدر مسروراً، وكم كانت فرحته غامرة، عندما لم يتجاوز الامتحان في ذلك اليوم تلك الصفحات التي رآها في الرؤيا!.

تجب الإشارة هنا إلى أنَّ فرحة طالبنا، بتحقق الرؤيا كانت أكبر من فرحته بنجاحه في الامتحان. فالرؤى والأحلام شيء أساسي في حياة المتصوفة، بل ربما يكونان المقياس الأوحد بأنَّ الصوفيَّ الحق يسير في الاتجاه الصحيح!

على أي حال، فإنَّ الاحباطات سوف تتوإلى على رأس هذا الدَّرْعمي[٥] الصغير بين الفينة والأخرى بما يفوق رؤاه وأحلامه، فقد كان هذا الطالب أصغر المتقدمين سناً للقسم العالي في دار العلوم، حتى إنّ الأستاذ الذي امتحنه شفهياً نظر إليه شزراً وسأله:

- أنت سنك كام؟

فقال طالبنا: ستة عشر عاماً ونصف.

فقال الأستاذ ساخراً: يبقا دار العلوم ح تِصْغَر أووي!

خرج الطالب من الامتحان محبَطاً، ولما علم بذلك صديقه الصوفي العامل في محل أبي الوفا، هوَّن عليه الأمر وأخبره بأن له صلة قوية بالأستاذ الممتحِن، ولا مانع لديه أن يزوره ويقدم له بعض الكتب مشفوعة بالتوصية على هذا الطالب، لكنَّ صوفيَّنا

[٥] لقب يطلق على طلاب كلية دار العلوم

المبتدئ، لم يجد في نفسه توجهاً إلى تلك الوساطة، وشعر بأنَّ هذا لجوء لغير الله، واعتماد على سواه وركون إلى الناس، فصمم على الاستعانة بالله وحده، فشكر للرجل عَرْضَه واكتفى بذلك.

بيد أنَّ النتيجة ظهرت في نهاية الأمر، ونجح الطالب اليائس، بل وكان ترتيبه متقدماً في الامتحان، والتحق بدار العلوم ومنحته الكلية مكافأة مادية جنيهاً في الشهر خصصه لشراء الكتب غير المقررة. وبهذا ابتعد عن المحمودية واستقر في القاهرة. ولا بدَّ من الإضافة أنه لم يكن يعكِّر صفوه في ابتعاده عن المحمودية إلا عدم رؤيته لصديقه الحميم «أحمد السكري» الذي كان يشتغل بالتجارة هناك.

ولا بدّ من إضافة أخرى بأنَّ الشيخ «عبد الوهاب الحصافي» كان له منزل في القاهرة، يقيم «الحضرة» فيه عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع. وهل هناك حاجة للقول بأنَّ طالب دار العلوم كان يداوم على حضور هذه «الحضرة» ممتعاً ناظريه برؤية شيخه؟

٨ – حادثة

حيث إنَّ صيف عام ١٩٢٥ كان حاراً بصورة غير عادية، فقد كانت أحداثه حارَّة كذلك. ففي أثناء الامتحان الأخير في نهاية العام، وقعت حادثة مؤسفة كادت تكون كارثة. ذلك أنَّ أحد زملاء الدراسة والسكن، عزَّ عليه– وهو الأكبر سناً وقد قضى في التعليم سنين عدداً– عزَّ عليه أن يتقدم عليه هذا الناشئ الصغير. فهو يرى نفسه، على الرغم من غبائه الاستثنائي، أنه الأجدر بالأولية والتقدم، ففكر في حيلة يعيق بها طالب القسم العالي عن الامتحان، فانتهز فرصة نوم الجميع، وصبَّ صبغة «اليود» المركزة على وجه طالبنا وعنقه، فاستيقظ من نومه فزعاً، ولم يتبين في الظلام مَنْ الفاعل، وقد اندس المعتدِي في فراشه سريعاً وتظاهر بالنوم. فقام المسكين من فوره إلى صنبور المياه وغسل وجهه من هذا الماء الكاوي، وسمع في هذه الأثناء أذان الفجر فنزل مسرعاً إلى الصلاة،

ثم عاد فنام قليلاً من شدة التعب من المذاكرة، فلما استيقظ في الصباح وجد أثار الحروق واضحة على وجهه وعنقه، وكان المعتدِي البليد قد خرج مبكراً، فقال أحد الزملاء إنه رأى معه زجاجة يود بالأمس.

رجع المعتدِي مساء، وفي يده حزمة من الفجل، وفي اليد الأخرى أرغفة من الخبز الساخن وكأن شيئاً لم يحدث. وبسؤاله وبالتضييق عليه اعترف بفعلته، وذكر صراحة أنَّ الحسد وراء ذلك، فقام عليه زملاؤه في السكن وأوسعوه ضرباً وركلاً، وقذفوا بأمتعته في الشارع وطردوه من المنزل. والعجيب أنَّ المعتدَى عليه المسكين كان يحول بينهم وبينه، ورأى فيما حدث نعمة يجب أن تقابل بالشكر لله، وليس الشكر إلا العفو والصفح، وتلى عليهم قوله تعالى: (فمن عفا وأصلح فأجره على الله).

وفي تلك اللحظة تجلت في نفسه هذه الحقيقة: من أراد أن يكون صوفياً حقيقياً فلا بد أن يكون مستعداً لكل شيء، ولا بد أن يتقبل الشوكة والوردة، ولا بد أن يتقبل مساوئ الحياة ومحاسنها على حد سواء!.

على أيِّ حال، مثل كل الأخبار السيئة في سرعة الانتشار والذيوع، طار الخبر مع الريح إلى البلد، وكانت الإجازة قد بدأت وسافر حسن إلى المحمودية، وظهرت النتيجة فكان من المتقدمين.

وفي البيت حدثت هزة وبلبلة، وأبَتْ أمه إلا أحد أمرين: إما أن ينقطع عن العلم ويَقبَل الوظيفة بالشهادة الأولية، وإما أن تنتقل معه إلى القاهرة. وفي هذه الأثناء كان أخوه عبد الرحمن قد أتم الدراسة الابتدائية، أما أخوه محمد فقد أتم الأولية، ورأى الوالد أن يُلْحِقه بالأزهر، وبالتالي ترجح الرأي بأن ينتقلوا جميعاً للسكن في القاهرة.

ما يهمنا هو أنَّ الأم أدركت، ربما من زمن بعيد، أنَّ مقامهم بالمحمودية لم يعد له مبرر، فهل استجابت لنداء غريزتها: (لقد مات فارحل)؟ وهل الابن ورث عن الأم هذه الخصلة التي سوف تصاحبه مدى حياته؟ لسنا ندري بالضبط!

٩ – الشيخ أحمد السكري

أيًّا كان الأمر، فقد كان طالبنا سعيداً بهذا الانتقال، لكنَّ سعادته كان لا بدَّ أن يترصدها دوماً ما ينغصها ويعكرها، فإن كان لا بدَّ للشباب المراهقين أن يستجيبوا لنداء العاطفة الغضة الطرية التي تتفجر في نفوسهم في تلك الفترة، فمنهم من يقع في التدين المتزمت، ومنهم من يقع في الحبّ الرومانسي يغذيه بالرسائل الغرامية ، فقد وقع بطلنا في الحب الرومانسي كذلك، لكن بصورة أخرى، فقد نشأت صداقة متينة وعاطفة جياشة بينه وبين ابن بلده أحمد السكري.

إنَّ الصداقة بين الرجل والرجل قلما تستمر، وغالباً لا يرحب الرجل بصداقة رجل، إلا إذا كانت تربطه به مصلحة أو منفعة، فيعتقدان أنَّ تلك صداقة لكنها في حقيقة الأمر صحبة وليست صداقة. والصحبة غالباً ما تقوم على منافع متبادلة ومصالح مشتركة، في حين أنَّ الصداقة تقوم على منافع روحية متوهمة.

أما الصداقة بين الرجل والمرأة فهي سهلة الوجود سريعة النشوء، لكنها لا تلبث أن تنحرف عن مسارها؛ فتتحول إلى حب إما من طرف واحد، أو من طرفين.

وعندما تنشأ صداقة حقيقية بين رجلين، لا بدَّ أن يكون كلٌّ منهما محتاجاً إلى الآخر احتياج الأرض العطشى إلى ماء السماء. وصداقة كتلك قلما تتحقق أو تستمر. وكلما كان الشخص صاحب نفس عالية وروح شفافة صافية، كلما كانت صداقته صداقة حقيقية، فتمتلئ نفسه بروح صديقه، فلا يبقى فيها متسع لصديق آخر. فالإنسان لا

يمكن أن يتسع قلبه لصديقين في آن، إنما هو صديق واحد يملأ القلب ويتخلل ثنايا الروح.

هكذا كانت الصداقة بين حسن البنا وأحمد السكري، ومنذ قرار انتقال عائلته إلى القاهرة، أضاع الإجازة الصيفية في اجتماعات يومية وجلسات ليلية مع صديقه التاجر أحمد السكري في المحمودية، حتى انتهيا إلى أن يتخذ صديقه قرار انتقاله إلى القاهرة أيضاً، فهو تاجر والتاجر لا وطن له.

عموماً، فقد بدأ العام الجديد وتوجَّب على السكري أن يبذل جهداً كبيراً ليتخلص من إلحاح صديقه بألطف الأشكال، فانتقل بدون اقتناع إلى القاهرة وقضى في بيت صديقه حسن قرابة شهر، ولم يحالفه الحظ في التجارة هناك، وظل يتسكع في شوارع القاهرة حتى قرَّر العودة أخيراً إلى المحمودية، وظلَّا يتكاتبان ويتبادلان الرسائل حتى انتهى العام وبدأت الاجازة الصيفية.

جاءت الإجازة الصيفية التالية، وكان لزاماً على بطلنا أن يقضيها في المحمودية، لكن لا بدَّ من ذريعة للذهاب إلى المحمودية بعدما باعت العائلة كل شيء هناك وغادرتها إلى القاهرة بلا رجعة. فاقترح الابن أن يذهب ويفتتح دكاناً في المحمودية لتصليح الساعات. وكان الوالد الذكي يعرف الدافع الحقيقي وراء سفر ابنه إلى المحمودية.

في الحقيقة، كان الوالد يبذل جهده ليشعر بشيء من الحب تجاه صديق ابنه أحمد السكري، ولم يستطع أن يرغم نفسه على الشعور بحب هذا الشاب ذي العينين الواسعتين الممزوجتين بالذكاء الحاد والاستهتار والاحتقار لكل شيء. وعادة ما يكون لدينا حدس لتحذيرنا من أناس أو مواقف معينة، لكن مشكلة هذا الحدس أنَّ البشر ليسوا مستعدين دوماً لتصديقه والثقة به.

وعلى الرغم من هذا كله فقد سمح الوالد لابنه بالسفر للبقاء بجانب صديقه.

وصل الساعاتي الصغير إلى المحمودية وافتتح دكاناً هناك، واشتغل بإصلاح الساعات، ونزل ضيفاً في بيت صديقه السكري، فكانا لا يفترقان في ليل أو نهار، وكان يجد في ذلك سعادتين: سعادة الاعتماد على النفس وكسب العيش من عمل اليد، وسعادة الاجتماع بصديقه الفريد الوحيد أحمد السكري فكانا يقضيان الوقت معاً، إما في الحضرات التي تقيمها الحصافية، وإما في مذاكرة العلم في المساجد تارة، وفي المنازل تارة أخرى، وإما في الاعتكاف في الخلوات بظاهر البلد حيناً، أو بالسباحة في النيل أحياناً أخرى.

لكن متى تستيقظ غريزة بطلنا وتدق الناقوس معلنة الحقيقة المرة: (لقد مات صديقك السكري فارحل)؟ نعم ليس بعد!

١٠ – انتهاء الإجازة والعودة للقاهرة

انتهت الإجازة السعيدة سريعاً، وعاد الطالب حسن إلى القاهرة عام ١٩٢٦، ولسنا ندري بالضبط لماذا ثارت في نفس بطلنا هذا العام نزعته القديمة لتكوين الجمعيات، بعدما خمدت بضع سنين؟

البعض يُرجِع السبب إلى جمعية «مكارم الأخلاق الإسلامية» التي كانت تقوم بإلقاء المحاضرات الإسلامية في مقرها بدار السادات بِبِرْكِة الفيل أسبوعياً، حيث لم تكن في القاهرة جمعية إسلامية غيرها آنذاك.

لكن أنا أرجِع السبب إلى مظاهر التحلل والبعد عن الأخلاق الإسلامية في القاهرة، وقد صَدمت وعي صاحبنا الذي نشأ في الريف المصري الآمن. كذلك ما كانت تنشره بعض الجرائد من أمور تتنافى مع الأخلاق الاسلامية، مثل إعلانات الخمور والكباريهات وبيوت الدعارة، بالإضافة إلى جهل العامة بأحكام الدين.

لكن، والحق يقال، إنَّ جمعية «مكارم الأخلاق الإسلامية» هي التي أضرمت النار التي كانت تُدَخِّن منذ عهد طويل. وهنا بدأ طالبنا يسأل نفسه: لماذا لم تفعل المساجد فعلها في تغيير هذا المنكر؟ فكان جوابه بأنَّ المقاهي تغص بفئات كثيرة متنوعة أكثر مما تغص به المساجد، وأغلب روادها ممن لا يرتادون المساجد، ويجهلون أحكام الدين. ولا شك أنَّ المساجد في هذا التاريخ كان بها عدد من أفاضل العلماء الذين يلقون الدروس على روَّادها المعدودين، لكنها وحدها لا تكفي في إيصال التعاليم الإسلامية إلى جميع الناس، وخصوصاً رواد المقاهي.

هنا، خَطَر لعاشق الجماعات، أنْ يقوم بتكوين جماعة من الطلاب للوعظ في المقاهي والمجتمعات العامة، ثم ينتشرون في القرى والأرياف والمدن المصرية. فدعا لفيفاً من الأصدقاء المقربين وطرح عليهم المشاركة في هذا المشروع، فاستغربوا واعترضوا: كيف يمكنهم تضييع أوقاتهم في التسكع على المقاهي والاحتكاك بروادها الذين كان تسعة أعشارهم ينتمون إلى طبقات متناقضة؛ إذ كنت ترى فيهم أبناء الذوات، والباشاوات، والعمال، والفلاحين، والفقراء ذوي الملابس البالية، والأحذية المهترئة، ومدمني الأفيون والحشيش والخمر..

أيضاً كان الاعتراض بأنَّ أصحاب المقاهي لا يسمحون بتعطيل أشغالهم، كما أنَّ جمهور الجالسين على هذه المقاهي قوم منصرفون إلى ما هم فيه وليس أثقل عليهم من الوعظ والإرشاد.

لكنَّ صاحبنا خالفهم في هذه النظرة وقال: إنَّ هذا الجمهور أكثر استعداداً لسماع العظات من جمهور المساجد. كان يقول هذا الكلام، وهو يضع نصب عينيه ما فعله الشيخ حسنين الحصافي، عندما قدم دمنهور وأخذ يدعو مدمني الخمور وتجار السلاح والبلطجية، ونجح في ذلك أيما نجاح.

على أيّ حال، ما اقترحه بطلنا كان شيئاً طريفاً وجديداً، وأوضح أنَّ العبرة بحسن اختيار الموضوع، وعدم التعرض لما يجرح شعور الناس، وعرض الدعوة بأسلوب شائق وجذاب.

لعلكم تذكرون الآن أنَّ آخر تجربة لصاحبنا في تكوين جماعة لتغيير المنكر انتهت في مقهى على يد معلم يقظ منذ اثني عشر عاماً، وها هو الآن يعيد الكرة من جديد ويقتحم المقاهي من أوسع أبوابها جهاراً نهاراً بعدما قام بتغيير جلده.

أما «الجمعية الحصافية الخيرية» التي كانت قد أنشئت في المحمودية، بعدما بايع بطلُنا ذو السبعة عشر عاماً شيخه عبد الوهاب الحصافي، فقد انحلت شكلاً، وإن بقي أعضاؤها تجمعهم الطريقة الحصافية، ويجاهدون في تزكية أنفسهم أكثر من جهادهم في تغيير المنكر من حولهم.

وقد سَالَ في تعليل فتور همة صاحبنا وعزوفه عن الجماعات في هذه الفترة حِبْر كثير، وتكاد تتفق الآراء على أنَّ سبب هذا الفتور هو النضوج الروحي والنفسي الذي يمر به الشباب في هذه الفترة. لكنِّي لست ممن يميلون إلى الأخذ بهذه الآراء المقولبة، وأكاد أجزم بأنَّ السبب هو عدم انبثاق هذه الجمعية من بنات أفكار صاحبنا، فكان يشعر بنفسه تابعاً وليس بمتبوع، ومن ثَمَّ كان عليه الرجوع وطلب الإذن من شيخه قبل كل قرار يتخذه، أو خطوة يخطوها، وهذا ما لا يُرضِي صاحبنا، بل لقد أصابه هذا الأمر بالإحباط وفتور الهمة، فانتهت الجمعية الحصافية إلى الفتور والتفكك غير مأسوف عليها.

أما بعد عام ١٩٢٨، بعد تأسيس الإخوان المسلمين فقد عاد حسن البنا إلى الجمعية الحصافية بالمحمودية، وبدأ يحييها من جديد ويحولها في شكلها وهدفها إلى الصورة الجديدة، صورة الإخوان المسلمين. وهذا ما أثار حنق شيخه عبد الوهاب الحصافي وسبَّبَ القطيعة بينهما.

باختصار، لم يكن هذا الإنسان قادراً على البقاء بدون جماعة يقودها بنفسه ولو لثانية واحدة.

عموماً، لقد طال الجدال حول موضوع الوعظ في المقاهي، فقال واعظنا المتحمس: ولِمَ لا تكون التجربة هي الحد الفاصل في الأمر؟ فقبل الرفاق.

لقد كان واعظنا المتحمس يرى أنَّ التقاليد حدود حجرية تحدق بالحاضر وتكبله، ومن أراد دخول المستقبل عليه أن يتخطاها. فالحياة لا تريد توقفاً عند نظام معين، إنها تسلم نفسها للذين يخربون النظام القديم من أجل نظام جديد، وهي تتوق إلى أولئك الفاتحين الذين ينطلقون إلى عوالم جديدة.

وفي ليلة الاثنين ربيع عام ١٩٢٦، خرج جماعة الرفاق، فبدأوا بالقهاوي الواقعة بميدان صلاح الدين، ثم أحياء طولون، ومن أحياء طولون انطلقوا إلى السيدة زينب، وألقى واعظنا المتحمس في هذه الليلة أكثر من عشرين خطبة استغرقت الواحدة منها ما بين خمس دقائق إلى عشرة، وكان بوسعه أن يُلقِي المزيد لولا أن أذن الفجر وأقفلت المقاهي.

لقد كان في واعظنا شيءٌ مغناطيسيٌّ؛ فجسمه ووقفته يرسلان ذبذبات تسترعي الانتباه حتى في الصمت، وحيويته دافقة حتى وهو ساكن لا يبدي حراكاً. فالعباقرة كالعواصف أو الأعاصير تجتذب إلى طريقها كل شيء من أغصان وحجارة وتراب، ولا شيء يتصدى لمقاومتها بل كل شيء مجبر على الدوران في الاتجاه ذاته حتى أوراق الشجر الجافة!

وإنه ليصعب عليَّ تصوير وجوه أصحاب المقاهي، وزبائنها بشكل خاص. لكنَّ شعور السامعين كان عجيباً. كانوا ينصتون في إصغاء ويستمعون في شوق، وكان أصحاب المقاهي ينظرون بغرابة أول الأمر، ثم يطلبون المزيد بعد ذلك. وفي نهاية الخطبة، وبعد أن نطق السامعون بالمجاملات اللائقة، كان أصحاب المقاهي يُقْسِمون

بأنْ يشرب الوعاظ شيئاً، لكنَّ واعظنا كان يعتذر بضيق الوقت، وبأنهم نذروا هذا الوقت لله فلا يريدون تضيعه في شيء. وكان هذا التصرف يؤثر في أنفسهم تأثيراً كبيراً.

إذن، لقد نجحت التجربة مائة في المائة، وعاد الأصحاب إلى مقرهم سعداء بهذا النجاح، وعزموا على استمرار الكفاح في هذا السبيل، وبقي الواعظ المتحمس مصابراً على ذلك لعدة شهور.

١١ - الجُبَّة والعمامة

في نهاية عام ١٩٢٦ كان حسن البنا في السنة الرابعة والنهائية في دار العلوم، وكان لا زال يرتدي الجُبَّة والعمامة، فبدأ يشعر بأنَّه غريب عن رواد المقاهي الذين يعظهم، بينما جُلُّهم من الأفندية المطربشين. كان يود ألا يختلف عنهم في شيء، فيُشْعِرهم أنه منهم وهم منه، فقد أصبح كثير منهم يلتفون حوله ويتقربون منه. لكنه كان يشعر بأنَّ جبته وعمامته تصدهم عن الدين، حيث يتصورون الدين يحارب التحضر الذي كانوا مولعين به، وكان خيالهم ينفر من الدين عندما يتصورون أنه لا بدَّ لمن يطبق الشريعة حقاً أن يخلع هذه الملابس العصرية ويرتدي الجبة والعمامة والجلابية..

هنا راودته فكرة خلع الجبة والعمامة وارتداء البدلة والطربوش، لكنه شعر بالخجل والحياء، وربما تعرض للسخرية والانتقاد حيث سبق له أن دافع عنهما باستماتة.

وفي هذه السنة اشتدت رغبة طلاب دار العلوم لتغيير الزي، وتهيأت لها نفوس الطلاب جميعاً، وساعد على ذلك إقدام كثير من كبار المتخرجين على هذه الخطوة فعلاً. وأصبحت دار العلوم يدخلها عدد من الأفندية وعدد من الشيوخ، لكن في كل يوم يزداد المطَربَشون ويقل عدد المعممين حتى لم يَبق إلا طالبان أحدهما بطلنا هذا.

وعندما جاء دور التمرين العملي، دعاهما المدير وتحدث إليهما في أنَّه يحسن بهما أن يذهبا إلى المدارس بالزي الجديد حتى لا يظهر مدرسو دار العلوم أمام التلاميذ بمظهر المنقسمين: فريق معممون وفريق مطربشون!

في واقع الأمر، لقد جاءت كلمة المدير في موعدها المضبوط، وكان صاحبنا لا ينتظر إلا كلمة كهذه حتى ينسحب من معركة المطَرْبَشين والمعممين بأقلّ الخسائر. كان المدير يتكلم وصاحبنا صامت، ولسنا ندري ما الذي أسكت صاحب الجبة والعمامة، ولا ندري أين ذهبت بلاغته وسرعة بديهته في ردِّ الجواب الذي دوماً ما يكون حاضراً، وأين مقولته الشهيرة التي قالها لمدير مدرسة دار المعلمين في دمنهور: "ما لا يدرك كُلُّه لا يترك جُلُّه.. والأرزاق بيد الله لا بيد الوزارة"؟.

عموماً، لا أحد يجاري صاحبنا في معرفته متى ينصت ومتى يجب أن يتكلم، وقد رأى صاحبنا، قبل مدير كلية دار العلوم، أنَّ الجبة والعمامة قد ولَّى زمانهما وفات أوانهما، فلا بدَّ أن يتركهما ويرحل. ومنذ الآن فصاعداً سوف يرتدي البذلة والطربوش بدلاً من الجبة والعمامة، وكان ذلك قبل أن يتخرج من دار العلوم بقليل.

١٢ - موجة الإلحاد والإباحية

في هذه الفترة كانت قد اشتدت موجة التحلل في النفوس وفي الآراء والأفكار باسم الحرية العقلية والحرية الشخصية، فكانت موجة إلحاد وإباحية قوية جارفة طاغية، لا يثبت أمامها شيء.

لقد قامت تركيا بانقلابها الكمالي وأعلن مصطفى كمال إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة عام ١٩٢٤، كما أصبح كثير من أساتذة الجامعة المصرية[٦] يرون أنَّ الجامعة المصرية لن تكون جامعة متقدمة إلا إذا تحلى أساتذتها وطلابها بالتحلل والانطلاق من

[٦] يقصد جامعة الملك فؤاد التي سميت فيما بعد: جامعة القاهرة.

كل القيود، وثارت على الدين وحاربت التقاليد، وطبقت التفكير المادي الغربي بحذافيره وأظافيره.

وظهرت كتب وجرائد ومجلات تنادي بهذا التفكير الذي لا هدف له إلا إضعاف الدين والقضاء عليه في نفوس الشعب، لينعم بالحرية الحقيقية في زعم هؤلاء الكتاب والمؤلفين. وظهرت (صالونات)[٧] في كثير من الدور الكبيرة يتطارح فيها زوارها مثل هذه الأفكار، ويعملون على نشرها بين الشباب وفي مختلف الأوساط.

وكان لهذه الموجة الفتاكة رد فعل قوي في الأوساط الخاصة المعنية بهذه الشئون كالأزهر وبعض الدوائر الإسلامية. لكن جمهرة الشعب حينذاك كانت إما من الشباب المثقف، وهو معجب بما يسمع من هذه الألوان، وإما من العامة الذين انصرفوا عن التفكير في هذه الشئون وانشغلوا بلقمة العيش.

لقد كان صاحبنا متألماً لهذا التيار الجارف أشد الألم، وكان يريحه بعض الشيء أن يُفضِي بهذا الشعور إلى كثير من الأصدقاء الخلصاء من زملائه بدار العلوم والأزهر والمعاهد الأخرى. كان هؤلاء جميعاً يتحدثون في هذه الموضوعات ويأملون بالقيام بعمل إسلامي مضاد، وكان في هذا الأمل المرتقب ترويحاً عن النفس وتسلية عن هذا الهم. كما كان صاحبنا يُسَرِّي عن نفسه بالتردد على المكتبة السلفية، حيث يلتقي بالعالِم البليغ والصحفي القدير «السيد محب الدين الخطيب»، أو يذهب إلى دار المنار يلتقي الأستاذ «رشيد رضا»، أو إلى منزل محمد فريد وجدي، أو منزل الشيخ الدجوي.

لكن هذا القدر لم يكن يكفي ولا يشفي الغليل، وخصوصاً وقد اشتد التيار فعلاً، وصار يرقب هذين المعسكرين فيجد معسكر الإباحية والتحلل في قوة وانتعاش، ومعسكر الدين والتدين في تناقص وانكماش، واشتد به القلق، حتى إنه قضى رمضان ذلك العام في حالة أرق شديد، لا يجد النوم إلى جفنيه سبيلاً، فاعتزم أمراً إيجابياً وهو

[٧] الصالون هو مكان يستضيف فيه شخص بارز مجموعة من الناس لتبادل المعارف والسجالات والحوارات الأدبية والسياسية والفلسفية، مثل صالون عباس العقاد وصالون مي زيادة.

دعوة من يعرف من العلماء والمفكرين المسلمين إلى أن يتكاتفوا على صدِّ هذا التيار، فإن استجابوا فذاك، وإلا كان له شأن آخر. وبدأ التنفيذ.

١٣ - الشيخ يوسف الدجوي

كان من العسير انتقاء حسن البنا لهذه المهمة شخصية أكثر ملائمَة من الشيخ يوسف الدجوي، فقد كانا متعلقَين ببعضهما البعض، وكان الشيخ الدجوي من هيئة كبار العلماء، ومن ألمع الشيوخ في عصره، شديد الذكاء، قوي الذاكرة، سريع الخاطر، لم يتأثر بما أصابه من مرض أفقده بصره في صغره. وقد وصفه العلامة الكوثري[٨] بقوله: (كان آية في الذكاء، وسرعة الخاطر، وجودة البيان، وقوة الذاكرة، وسعة العلم، مفسر الأزهر ومحدثه وفيلسوفه وكاتبه وخطيبه، وموضع ثقة الجماهير في شتى الأقطار الاسلامية لسعة علمه، وعظيم إخلاصه، وبالغ ورعه، كانت تتوارد إليه استفتاءات من شتى الأقطار والجهات).

تعرَّف «حسن البنا» بالشيخ الدجوي أثناء تدريسه بعض المقررات في كلية دار العلوم، ثم أصبح يواظب على الاستماع إلى دروسه بالأزهر، وأُعجِب الطالب بشيخه الذي كان يبدو كأنه صوفي ضليع، لديه اطلاع واسع وإلمام تام بعلوم التصوف، حلو الحديث، صافي الروح. كما أُعجِب الشيخُ الدجوي بطالبه النبيه وأحبه وزالت بينهما الكلفة، وتلاقت روحَاهُما بسرعة مذهلة، فأصبحت مكانته لدى الشيخ الدجوي تفوق مكانته لدى الشيخ زهران أيام مدرسة الرشاد في المحمودية. وأخذ التلميذ يتردد على زيارة شيخه الفينة بعد الفينة بمنزله بقصر الشوق، أو بعطفة الدويداري بحيِّ الأزهر، ويقرأ له بعض المسائل من المراجع التي يشير إليها، ويتناقشان في شتى الأمور.

---

[٨] ولِد الشيخ محمد زاهد الكوثري في تركيا عام ١٨٧٨م، لأسرة قوقازية، وتلقى الفقه في جامع الفاتح وحاز على منصب وكيل المشيخة الإسلامية، وكان متقناً للعربية والفارسية والتركية والشركسية، متبحراً في علوم الشريعة. وبعد تضييق الكماليين واشتداد إجراءات العلمنة في تركيا، عُزل من منصبه، وهاجر إلى مصر واستقر فيها، وتجرع مرارة موت الابناء والبنات، واشتد عليه المرض، وضيق العيش، وقلة ذات اليد، حتى توفي عام ١٩٥٢م.

ومن خلال تردده على بيت شيخه الدجوي رأى حسن البنا مدى صِلات الشيخ بكثير من رجال المعسكر الإسلامي من علماء ووجهاء كانوا يحبونه ويقدرونه. لذلك عزم على مكاشفته بما في نفسه، والاستعانة به على تحقيق الفكرة التي تراوده منذ زمن.

بعد الإفطار في رمضان عام ١٩٢٦، توجه حسن البنا إلى منزل شيخه الدجوي بقصر الشوق، ولا يدري لماذا كان يتردد في خاطره طوال النهار قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}. كان المنزل عبارة عن فيلَّا صغيرة، سقط الطلاء من جوانب كثيرة من واجهتها. وكانت الحديقة جرداء، خالية من أحواض الزرع، وليس فيها غير ثلاث أشجار عتيقة تظلل الجوسق[٩] الخشبي القائم في ركن منها.

دخل حسن إلى صالة المنزل الواسعة، وتناهت إلى سمعه ضحكات وفكاهات صادرة من قلوب خالية لا تفكر في شيء فأثارت غيظه. كانت الصالة مزدحمة بالمقاعد والأرائك المذهبة المشتراة من أحد المزادات، وكانت الجدران محلاة بالآيات القرآنية في إطارات مذهبة، وعجب أن تقع عيناه أول ما تقع على قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} فاستبشر خيراً. كان يتوسط الصالة أقداح الشاي وأطباق الحلوى، وعن يمين الشيخ ويساره جلس لفيف من العلماء وبعض الوجهاء يضحكون ويمزحون ويسألون فيما يعِنُّ لهم من الأسئلة والشيخ ينصت بهدوء، ويهز رأسه بوقار، ويرد ببديهة على السائلين. فلما علم أنَّ القادم تلميذه حسن، ناداه بقوله: تعال اجلس هنا، وأشار إلى مكان قريب.

أراد الطالب المضطرم، وهو يتمالك أعصابه بصعوبة، أن يدخل في موضوعه بلطافة عن طريق طرح سؤال كما يفعل الحضور، فقال: يا سيدي ما سبب موجة الانحلال والإلحاد التي نراها في مصر؟

---

[٩] الجوسق: هو البيت الصغير، ثم انتقل إلى اللغات الأوربية فأصبح يسمى (كشك) ويطلق على الدكان الصغير يقام على جانب الشارع لبيع المشروبات ونحوها.

في واقع الأمر، لم ينتبه الشيخ إلى احتدام مشاعر تلميذه، فأخذ يظهر الألم والأسف، ويُرجِع السبب إلى ضعف المعسكر الإسلامي أمام المتآمرين عليه، وكيف أنَّ الأزهر (مشكوراً) حاول كثيراً أن يصد هذا التيار فلم يستطع، ثم تطرق إلى جمعية «نهضة الإسلام» التي أنشأها الشيخ هو ولفيف من العلماء، ومع ذلك لم تُجدِ شيئاً، ثم أشار إلى كفاح الأزهر ضد المبشرين والملحدين، وإلى مؤتمر الأديان في اليابان، ورسائل الإسلام التي ألفها فضيلته، لكنه خَلُص إلى أنه لا فائدة من كل هذه الجهود المبذولة..

لكن منذ متى كان عطش القلب يسكن بنقطة ماء؟ لذا، شعر طالبنا الثائر، قليل الصبر، كأنه في درس من دروس الشيخ في الأزهر، فكان شديد الضيق بهذا الكلام الذي سمعه عشرات المرات، وقد حوَّل الشيخ السؤال بدهائه إلى موضوع إنشاء، وشعر بأنَّ الشيخ يريد أن يتملص من الموضوع، فقاطعه بقوله:

- إذن ما العمل الآن يا مولانا؟ هل نضع رؤوسنا في الطين ونسكت؟

رد الشيخ وقد امتعض قليلاً من لهجة العناد التي تصبغ كلام تلميذه:

- حَسْبُ الإنسان أن يعمل لنفسه وينجو بها من هذا البلاء. ثم أوصى تلميذه المشاكس أن يعمل بقدر الاستطاعة، ويدع النتائج لله الذي لا يكلف نفْساً إلا وسعها، وتمثل بقول القائل الذي كان كثيراً ما يتمثل به:

وما أبالي إذا نفسي تطاوعنـي على النجاة بمن قد مات أو هلكا

طبعاً هذا الكلام، لم يُعجِب صديقنا المتحمس، فأخذته فورة الحماسة وتمثل أمامه شبح الإخفاق المرعب إذا كان هذا الجواب سيكون جواب كل من لقِيَ من العلماء.

فقال في قوة وبدون أدنى تواضع: إنني أخالفك يا سيدي كل المخالفة في هذا الذي تقول. وأعتقد أنَّ الأمر لا يعدو أن يكون ضعفاً، وقعوداً عن العمل، وهروباً من التبعات.

وهنا ندَّتْ من بعض الحضور شهقة تعجب، وساد في المكان صمت، وكان الخادم يهم برفع طبق من الحلوى من أمام الحضور فتوقف برهة، ونظر إلى هذا المجترئ على الشيخ في بيته.

لكنَّ المتحمس استطرد يقول وكأنه لا يرى مَنْ حوله ولا يشعر بوجودهم، وقد أخذته حالة وَجْد شديدة، كالتي كانت تأخذه في «الحضرة» ويغيب خلالها عن الوجود، فقال:

-مما تخافون؟ من الحكومة أو الأزهر؟ يكفيكم معاشكم واقعدوا في بيوتكم واعملوا للإسلام، فالشعب معكم لو ناديتموه، فهو شعب مسلم، وقد عرفته في القهاوي، وفي المساجد، وفي الشوارع، فرأيته يفيض إيماناً، لكنه قوة مهملة بسبب هؤلاء الملحدين والإباحيين، ولو زجرتموهم لدخلوا جحورهم صاغرين.

وعصفت حالة من الجذب الشديد بهذا المتصوف فأردف يقول:

- إنْ لمْ تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذي تأكلون، فإذا ضاع الإسلام ضاع الأزهر، وضاع العلماء، وضاع الرغيف. فاعملوا للدنيا إن لم تريدوا أن تعملوا للآخرة، وإلا فقد ضاعت دنياكم وآخرتكم على السواء.

استاء أحد العلماء الجالسين من هذا السليط الذي يتمادى على الشيخ، فانبرى يرد عليه في قسوة، ويتهمه بأنه أساء إلى الشيخ وخاطبه بما لا يليق، كما أنه أساء إلى العلماء والأزهر، وأساء إلى الإسلام العظيم.

في الحقيقة، لقد كان بطلنا في حالة وَجْدٍ شديدة، كان يشعر وكأنه منشار حاد لا يعترض طريقه حجر ولا صخر إلا فرمه وقطَّعه إرباً، لقد كان قادراً على أن يُلجِم كل من يعترض سبيله أو يناقشه، وقبل أن يهمَّ المنشار بفرم هذا العالِم المدافع عن الشيخ الساكت، انبرى شخص يرتدي بذلة وطربوشاً، يبدو كأنه باشا، فقال للعالِم المدافع عن الشيخ:

-لا يا أستاذ.. من فضلك!. هذا الشاب لا يريد منكم إلا الاجتماع لنصرة الإسلام. وإنْ كنتم تريدون مكاناً تجتمعون فيه فهذه داري تحت تصرفكم افعلوا بها ما تريدون، وإن كنتم تريدون مالاً فلن نعدم المحسنين من المسلمين، ولكن أنتم القادة فسيروا ونحن وراءكم. أما هذه الحجج فلم تعد تنفع بشيء.

هنا غادرت الصوفيَّ حالةُ الوجد التي كانت قد تلبَّسته وعاد إلى الواقع. وسأل جاره بصوت خافت عن هذا الرجل: من هو؟ فقال: أحمد بك كامل، ولم يكن قد رآه من قبل، ولن يراه من بعد أبداً! وكأنه ما حضر إلا ليقول هاتين الكلمتين ويختفي.

وانقسم المجلس إلى فريقين: فريق يؤيد رأي العالم، وفريق يؤيد رأي الباشا. وكان الشيخ الدجوي ساكتاً، ثم بدا له أن يُنهي هذا الجدل فقال: أظننا الآن على موعد مع الشيخ محمد سعد فهيا لنزوره.

وقاموا جميعاً إلى منزل الشيخ محمد سعد، وكان قريباً من مجلسهم وقد ظنَّ الشيخ الدجوي بأنَّ طالبه المجذوب قد فارقته حالة الوجْد وانصرف إلى بيته، وهدأت نفسه فهو يعرف هؤلاء المتصوفة ونزواتهم الطارئة، فلما ذهبوا إلى منزل الشيخ محمد سعد، ودعاهم لتناول قطائف رمضان، تقدم الشيخ ليأكل فأحس بوجود شاب بجانبه فسأل: من هذا؟ قال: أنا حسن يا سيدي.

فقال الشيخ باستياء: هو أنت ثاني؟

فقال المتصوف الذي لم تزايله حالة الوجد تماماً: نعم يا سيدي. أنا ثاني وثالث..

ردَّ الشيخ باستياء وهو بالكاد يكتم غيظه:

- نعم! عايز ايه يا سي حسن؟

فقال المجذوب بنبرة أقل حدة مما سبق:

- لن أفارقكم إلا إذا انتهينا إلى أمر.

فأخذ الشيخ بيده حبة قطايف، ومدها للمجذوب وهو يقول:

خذ هذه، وإن شاء الله نفكر في الموضوع.

فقال صاحب الجواب الذي الحاضر دوماً:

- سبحان الله يا سيدي! إنَّ الأمر لا يحتمل تفكيراً، ولكن يتطلب عملاً، ولو كانت رغبتي في هذه الحلوى، لاستطعت أن أشتري بقرش وأظل في منزلي ولا أتكلف مشقة زيارتكم. يا سيدي إنَّ الإسلام يُحارَب حرباً عنيفة قاسية، ورجاله وحماته وأئمته يقضون الأوقات غارقين في هذا النعيم. أتظنون أنَّ الله لا يحاسبكم على هذا الذي تصنعون؟ إن كنتم تعلمون للإسلام أئمة غيركم وحماة سواكم فدلوني عليهم لأذهب إليهم، لعلي أجد عندهم ما ليس عندكم!

وسادت لحظة صمت عجيبة، وفاضت عينا الشيخ بدمع غزير بلل لحيته، وبكى بعض الحاضرين. وقطع الشيخ هذا الصمت بأنْ قال في حزن عميق وفي تأثر بالغ:

- وماذا تريدني أن أصنع؟

فقال يا سيدي الأمر يسير، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. لا أريد إلا أن تحصر أسماء من تتوسم فيهم الغيرة على الدين من ذوي العلم والوجاهة والمنزلة، ليفكروا فيما يجب أن يعملوه: يُصدِرون ولو مجلة أسبوعية أمام جرائد الإلحاد والإباحية، ويكتبون كتباً وردوداً على هذه الكتب. ويؤلفون جمعيات يأوي إليها الشباب، ويُنَشِّطون حركة الوعظ والإرشاد..

فهز الشيخ رأسه قائلاً: جميل!

ثم أشاع في المجلس روح الأُنس ثانية بطرفة من طرفه الكثيرة فقال للخادم مازحاً:

ارفع يا بني «الصينية» عشان الليلة باينة من أولها، وأحْضِر ورقة وقلماً واكتب.

فأملى عليه أسماء فريق كبير من العلماء النجباء في عصره، منهم: الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ عبد العزيز جاويش، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ محمد الخضري، والشيخ عبد العزيز الخولي، وغيرهم..

ولما جاء اسم الشيخ رشيد رضا، وكان الشيخ الدجوي يعلم مبلغ حبِّ تلميذه العنيد للشيخ رشيد رضا، قال: نعم. اكتبوه اكتبوه.. فإنَّ الأمر ليس أمراً فرعياً نختلف فيه، ولكنه أمر إسلام وكفر، والشيخ رشيد خير من يدافع بقلمه وعلمه ومجلته.

وعلى يد هؤلاء العلماء في ربيع عام ١٩٢٦ بعد عيد الفطر، ظهرت مجلة، جلبت لصاحبنا بعض الراحة.

قيل إنهم اختلفوا على تسميتها، وهنا ظهرت لصاحبنا قرينة أذهلته حتى أعماق روحه، فقد طاف برأسه قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، نفس الآية التي طافت برأسه يوم زيارته المشهودة للشيخ الدجوي. لهذا اقترح أن تُسمى «الفتح». وقد كتب في مجلة «الفتح» كبار العلماء والمفكرين أمثال الأخوين أحمد ومحمود شاكر، ومصطفى الرافعي، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، ومحمد الخضر حسين، وعلي الطنطاوي، وتقي الدين الهلالي، وكان لها دور بارز في فضح مخططات المبشرين والملحدين، وكشف سياسة المستعمرين والمتآمرين.

وفي صيف عام ١٩٤٩بعد اغتيال حسن البنا، وبعد نيف وعشرين عاماً من صدورها، كفَّتْ مجلة «الفتح» عن الوجود وإلى الأبد!

١٤ - بين البعثة والإسماعلية

أخيراً في يونيو عام ١٩٢٧ نال «حسن البنا» شهادة دار العلوم من القاهرة وكان الأول على دفعته، وأغراه بعض الزملاء بفكرة التقدم بطلب الترشح لبعثة دار العلوم إلى أوربا. لكنه كان متردداً بين حب الاستزادة من العلم من أوروبا، وبين ممارسة الدعوة إلى التعاليم الإسلامية في الأقاليم المصرية.

ولحسن الطالع أو لسوئه، فإنَّ دار العلوم لم تُرَشّح عام ١٩٢٧ أحداً للبعثة لأوروبا، وهذا ما أشعَره بالراحة والسرور بعض الشيء، لأنه يرى نفسه أنه يُصنَع على عين الله

وحكمته، ولا يقع له أمر كَبُر أم صَغُر، إلا كان في صالحه، ووراءه تكمن مشيئة الله التي تعده لأمر جلل؛ أما فكرة أنه يستطيع التحكم بمسيرة حياته مهما اتخذ من خيارات عقلانية، فإنه يعتبرها فكرة سخيفة مثل سمكة تحاول أن تتحكم بالمحيط الذي تسبح فيه!

إذن، لم يبق أمامه إلا الوظيفة، لكنَّ تعيينه جاء في الإسماعيلية ليعمل في التدريس بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية.

ذهب موظفنا الجديد-بدون وساطة- إلى ديوان المعارف معترضاً على تعيينه في الإسماعيلية، لكنه رجع بخفي حنين. فلما رجع إلى البيت واستشار والده، قال: على بركة الله، والخير فيما يختاره الله. فانشرح صدره بذاك، وأخذ يعدُّ العدة لهذا السفر وهو مشغول البال بالأسلوب الذي سيسلكه في الدعوة في الوطن الجديد.

في ذلك الحين، لم يكن مدرسنا يعرف عن الإسماعيلية شيئاً إلا ما قرأه في الأطلس المدرسي: بأنها بلد ناءٍ بعيد شرق الدلتا، يفصله عن القاهرة فضاء فسيح من رمال الصحراء الشرقية، ويقع على بحيرة التمساح المتصلة بقناة السويس.

وفي ١٦ سبتمبر عام ١٩٢٧، وعلى رصيف محطة القطار الصاخبة، تسارعت دقات قلب مسافر على وشك الشروع في رحلة لا تنقله من مدينة مصرية إلى أخرى فحسب، بل تنقله إلى عالم آخر وحياة أخرى لم يدْرِ عنها شيئاً. فلما جلس في القطار لم يستطع احتواء حماسه للحياة التي تنتظره. ثم هسهس المحرك البخاري وانفجرت الصافرة، وبدأ صدى صوت عجلات القطار المتناغم يتردد على مسارات السكَّة الحديدية.

كانت مقاعد القطار خشبية مكسوة بالجلد المهترئ، وكانت شمس سبتمبر الحارقة تتوهج من خلال النوافذ الزجاجية، والهواء داخل القطار يمتلئ بروائح الخشب والجلود والماشية، وكان الجو خانقاً يزدحم بصخب المحادثات بين المسافرين والمودِّعين.

ابتعد القطار عن المحطة، فأفسح مشهدُ القاهرة الصاخب الطريقَ تدريجياً للكثبان الصحراوية الذهبية والجبال الصخرية أن تقدم نفسها للمدرس الجديد. كان الفضاء الشاسع يمتد إلى ما لا نهاية، وكانت الشمس تُلقِي بوهجها الحار على الرمال، وبدا الوقت وكأنه ساكن، بينما مدرسنا يحدق خارج النافذة، مفتوناً بالجمال الأثيري للطبيعة المصرية.

وفي القطار تعرف على زميل له، ينتمي إلى الطريقة الشاذلية، فأفضى إليه مدرسنا المتوثب بآماله في الإصلاح الإسلامي والدعوة إلى الإسلام، لعله يتخذه عوناً في مهمته، فتبين أنّ منتهى أمل زميله أن يعيش ليحفظ حياته بعمله، ويَسعَد بعقيدته في ربه ودينه وشيخه، ويُسَرّ بما يَلْقى من مظاهر الاحترام من الآخرين، فهو لا يطلب أكثر من ذلك وإلا كان ذلك أكبر من وسعه وطاقته، وفي بيت النملة تصبح قطرة الماء طوفاناً. وفي الحال سقط بينه وبين زميله حاجز وابتعد عنه، فقد كانت عقيدته لا ترْضَى أن تكون قاصرة عليه وحده، وقد كان فكره شيئاً آخر غير مظاهر احترام الآخرين له.

على أي حال، لقد أفسد هذا الزميل مزاج صاحبنا الرائق، لكنَّ حركة القطار الإيقاعية دفعته إلى حالة من الهدوء مرة أخرى. كانت الحقول الخضراء المزروعة بأشجار المانجو تزيِّن الطريق على الجانبين، بينما ضواحي الإسماعلية تنكشف أمام عينيه من فوق قنطرة سكة الحديد، فاستهوت هذه المناظر قلبه وأخذت بلبِّه، فوقف هنيهة، وسَبَح لحظة في عالم من الخيال والمناجاة، يحاول أن يقرأ في لوح الغيب ما كُتب له في هذا البلد، ودعا الله في حرارة وصفاء، أن يقدر له ما فيه الخير، وأن يجنبه ما فيه الإثم والشر؛ فإنه يحسّ من أعماق قلبه أنه لا بد أن يكون له في هذا البلد شأنٌ غير شأن هؤلاء الغادين والرائحين من أهله وزائريه.

وصل القطار إلى الإسماعيلية ظهراً، وتفرق المسافرون كلٌّ إلى وجهته، وواجه القادم الجديد قدَرَه وجهاً لوجه.

١٥ - في الإسماعيلية

ثمة بين القادمين، مدرس سرق الأنظار ولفت الانتباه ببذلته الأنيقة وطربوشه الجميل، ومشيته الموزونة المميزة. أسرع متخطياً الجميع، ثم استقل عربة سارت في اتجاه فندق «الملك جورج». كانت حوافر الخيل تخبُّ على الطريق الأسفلتي الذي تحفه الأشجار على الجانبين، وسط جو خريفي متقلب. وصل القادم إلى الفندق فأودع فيه حقيبته التي ليس معه غيرها، ورأى هناك صديقه الأستاذ إبراهيم البنهاوي، ورغب أن يرافقه في سكنه، فإذا بهذا الصديق يقترح أن يسكنا معاً في بنسيون، فلا يرى الضيف بأساً في موافقته على ما يرى، فسكنا في بنسيون السيدة «أم جيمي» الإنجليزية، ثم انتقلا إلى منزل «مدام ببينا» الإيطالية.

أخذ بطلنا يستكشف الإسماعيلية كقائد عسكري يستكشف مدينة قبل اجتياحها، فهي تبعد عن القاهرة ١٢٠ كيلومتراً، ولم تكن مدينة آنذاك، بل هي أشبه بالقرية، لكنها ليست كالقرى التي في ريف مصر، تشاهد فيها المنازل غير المنتظمة، والروث يملأ الطرقات، والبهائم مربوطة في الأشجار التي يستظل بها الناس. كلا، إنها أشبه بالقرى في الريف الإنجليزي، طرقها مستوية نظيفة، حدائقها متعددة متنوعة، شوارعها خالية من التراب والأوحال.. هكذا كانت الإسماعيلية عام ١٩٢٧.

أما إدارة المدينة فقد كانت تهتم بها أيما اهتمام، لسبب سيتضح بعد قليل، فقد كان موظفو الصحة يقومون بواجباتهم، فيمرّون على القنوات والمستنقعات التي تقع خارج البلدة يضعون فيها المبيدات التي تمنع تكاثر البلهارسيا، ويرشّون أجواءها بالأدوية للقضاء على الناموس والذباب.

وفي المسجد العباسي، الذي بناه الخديوي عباس حلمي، يجلس الشيخ فرغلي عبد الحفيظ، عالم أزهري، ملتحٍ بلحية خفيفة، يصادق كبار الناس في البلدة، ولا يختلط بصغارهم، ويعطي درسه اليومي بين صلاة المغرب والعِشاء، ويجلس إليه بعض الصالحين من صغار الموظفين والتجار والعمال.

أما مركز البوليس، فكان لا يثير الاشمئزاز أو السخط، ولا يبصق عليه المواطنون أو يلعنونه سراً إذا مروا به. فالناس هنا تحترم النظام والقانون، ويعملون لهما ألف حساب، رغم أنَّ البوليس لم يكن يضرب أحداً أو يعذبه. ودوريات الشرطة على الخيل تجوب البلدة ليلاً ونهاراً.

أما الأقباط فهم يعملون في صناعة الذهب «الصاغة». وهناك كنيسة تقع أمامها إرسالية للتبشير المسيحي. ويحتكر الأقباط الأنشطة الهامة في المدينة؛ فالصيدلية الوحيدة في ذلك الوقت هي «أجزاخانة وديع». وجميع مدرسي اللغة الإنجليزية والحساب والعلوم كانوا أقباطاً، وكذلك الصرّافين.

وبصفة عامة، فإنَّ الأقباط يحتلون الأماكن الحساسة في المدينة، وعلاقاتهم بالمسلمين كانت طيبة خصوصاً عندما كان المسلمون بسطاء، قبل أن يُنشئ الإخوان «مدارس الجمعة» للتصدي لمدارس الأحد؛ التي أنشأها الأقباط في الإسماعيلية.

أما سبب العناية الفائقة بمدينة الإسماعيلية فلأنها كانت مقراً لنشاط المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط، وكان الإنجليز يحتلون مدن القناة، ويقيم ضباط المخابرات البريطانية في فندق «الملك جورج» حتى يسهل اختلاطهم بالأهالي. وكان الكابتن «جود» أحد ضباط المخابرات المخضرمين مشهوراً بخفة الظل، وسرعة البديهة، وحب الاختلاط، وحسن العِشرة؛ مما جعله مؤهلاً لإقامة علاقات مع المصريين بمختلف طبقاتهم. وكان الضباط المصريون الذين يتدربون في الإسماعيلية يعتبرونه «لُقطة» بما ييسره لهم من شراء السجاير الإنجليزية الواردة للجيش، أو الأطعمة الفاخرة بثمن زهيد أو بلا ثمن كهدايا؛ ولا ننسى أيضاً المجندات الصهباوات.

١٦ - استكشاف

على أي حال، قضى مدرسنا الجديد وقته بين المسجد والمدرسة والمنزل لا يحاول أن يختلط بأحد ولا يتعرف إلى غير زملائه في المدرسة. أما وقت فراغه فأكبَّ فيه على دراسة هذا الوطن الجديد على مدى أربعين يوماً كاملة. ومن المسجد استطاع أن يلتقط من هنا وهناك كثيراً من أنباء الإسماعيلية الدينية والاجتماعية. وقد عرف فيما عرف، أنَّ هذا البلد تَغْلب عليه النزعة الأوربية؛ إذ هو محصور بين المعسكرات البريطانية غرباً، وبين مستعمرة شركة قناة السويس شرقاً، ومعظم أهله يشتغلون في المعسكرات البريطانية، ويتصلون بالحياة الأوربية من قريب، وتطالعهم وجوه الحياة الأوربية في كل مكان. ومع هذا كله، فإنَّ في هذا البلد شعوراً إسلامياً قوياً، والتفافاً حول العلماء وتقديراً لهم!.

عموماً لقد عرف نزيل الإسماعيلية الجديد فيما عرف أنَّ مدرساً اسمه «عبد الحي الكفراوي» سبقه في هذا البلد، وطلع على أهله بنظرات شاذة في الفكر الإسلامي، بدت غريبة لمعظمهم، ونشط لمقاومتها بعض العلماء فضلاً عن العامة، فنتج عن ذلك انقسام بين الناس في المسجد، وتحيَّز كل فريق لآرائه، وأصبح كل فريق يواجه الفريق الآخر بفكرته، ويريد أن يضمه إلى حزبه وجماعته، ولا ينصت أحد لواعظ حتى يعلم أولاً هل هو من حزبه أو من أعاديه!.

لقد كان «عبد الحي الكفراوي» محباً للرياء والظهور وإثارة الخلافات الدينية، فقد كان يرى نفسه بصيراً والعالم كله أعمى، لكن في النهاية بدا الأمر بالعكس من ذلك تماماً! فقد كان العالم يبصر بشكل رائع، والأعمى الوحيد هو هذا الكفراوي.

أخذ صاحبنا يفكر فيما يصنع، وكيف يواجه هذا الانقسام الحاصل، فهو يريد أن يخاطب الجميع، ويتصل بالجميع ويلم شتات الجميع!. فَكَّر طويلاً في ذلك، ثم قرر أن يعتزل هذه الفرق كلها، وأن يبتعد ما استطاع عن الحديث إلى الناس في المساجد،

فالمسجد وجمهور المسجد هم الذين ما زالوا يذكرون موضوعات الخلاف، ويثيرونها في وجه كل واعظ، وعند كل مناسبة.

ثَمَّةَ قاسم مشترك في سيرة الشخصيات الفذة تاريخياً ممن لعبوا دوراً عميقاً على صعيد المجتمع الذي يعيشون فيه. فبالنسبة للرجال الاستثنائيين لا بدَّ أن تنطوي نفوسهم الكبيرة على قدرات كافية تمكنهم من خرق المألوف والإتيان بشيءٍ جديد.

إذن، فليترك المسجد وأهله، وليفكر في سبيل أخرى يتصل بها بالناس، ولمَ لا يتحدث إلى جمهور المقاهي، وهم عبارة عن منجم من الذهب، وقد كانوا صيداً سهلاً من قبل؟

ساورته هذه الفكرة، فلما اختمرت في رأسه بدأ ينفذها فعلاً، واختار لذلك ثلاث مقاهٍ كبيرة تجمع ألوفاً من الناس، ورتب في كل منها درسين في الأسبوع وأخذ يزاول الوعظ بانتظام في هذه الأماكن. وقد بدا هذا اللون من ألوان الوعظ غريباً في نظر الناس أولاً، ثم ما لبثوا أن ألِفوه وأقبلوا عليه.

فهل ساورته فكرةُ انبعاث الرسالة الإسلامية في قوم أميين بسطاء، فهي لم تظهر لا في أثينا ولا في روما، ولا في المدائن، بل ظهرت في قلب الصحراء في قومٍ أميين لا يعرفون عن الفلسفات شيئاً ولم يسمعوا بها من قبل. والذي أتى بهذه الرسالة ليس فيلسوفاً كأفلاطون أو أرسطو أو سقراط، وليس حكيماً من حكماء الصين أو الهند، إنما هو شاب أمِّي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

أو هل ساورته قصة تيه بني إسرائيل وحرمانهم النصر، وهم على أبواب الأرض المقدسة حتى تنبت منهم نابتة جديدة، وينشأ منهم جيل غير هذا الجيل الذي أفسد الذلُّ والحذلقة فطرتَه، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل!

ربما هذا وربما ذاك، لكن ما يهمنا هو أنَّ دخوله لهذا الأمر كان من مدخله الصحيح.

إذن، هكذا كانت البداية في الإسماعيلية: قوم أميُّون في العقيدة، يعلِّمهم رجل بسيط كأنه ما عرف عن الفلسفات شيئاً ولا سمع بها، وكأنه ما قرأ آراء الفقهاء ولا حفظها، لكنه كان يجيد المجال الذي يتحرك فيه إجادة تامة.

لقد كان مدرسنا دقيقاً في أسلوبه الفريد الجديد، فهو يتحرى الموضوع الذي يتحدث فيه جيداً بحيث لا يتعدى أن يكون وعظاً عاماً: تذكيراً بالله واليوم الآخر، وترغيباً وترهيباً، فلا ينال أحداً بتجريح أو تعريض، ولا يتناول المنكرات والآثام التي يعكف عليها هؤلاء الجالسون بلوم أو تعنيف. وكان يتحرى الأسلوب فيجعله سهلاً جذاباً مشوقاً يخلطه بشيء من العامية أحياناً، ويمزجه بالمحسوسات والأمثال والحكايات في معظم الأحيان. كان كلامه يتدفق سلساً كأنه مقالة تمت مراجعتها وتنقيحها مئات المرات، فلا تجد فيه نشوزاً ولا توقفاً ولا ارتباكاً، إنما هي كلمات تتدفق وتنسكب في النفوس بصوت رائق جميل كأنه السحر، فإذا انتهت كلمته تركت المستمعين عطشى يطلبون المزيد.

هكذا كان يتحايل على جذب النفوس باعثاً الرغبة والشوق إلى ما يقول، ثم هو بعد هذا لا يطيل حتى لا يُمَل، ولا يزيد في الدرس على عشر دقائق، فإذا أطال فربع ساعة، مع الحرص التام على أن يقدم في كل درس معنى خاصاً يَقصِد إليه، ويتركه وافياً واضحاً في نفوس السامعين. أما حين يَعْرِض لتفسير آية فإنه يتخيرها تخيراً مناسباً، ويقرأها قراءة خاشعة، متجنباً التفاسير الاصطلاحية والتعليقات الفنية، ومكتفياً بالمعنى الإجمالي يوضحه ويشرحه.

أقبل الناس إلى هذه المقاهي ينتظرون، بفارغ الصبر، الدرس بعد الدرس، وعمل الوعظ عمله في نفوسهم، فأخذوا يفيقون ويفكرون، ثم يسألون عما يجب أن يفعلوا ليقوموا بحق الله عليهم وليؤدوا واجبهم نحو دينهم وأمتهم، وليضمنوا النجاة من العذاب، والفوز بالنعيم، وابتدأ هو يجيبهم- بدهاء- إجابات مقتضبة جذباً لانتباههم واسترعاء لقلوبهم، وانتظاراً لفرصة سانحة حتماً ستلوح عما قريب.

إنَّ أهم ما يميز المبدعين أنهم يستطيعون تغيير الطريقة الراسخة التي كان الناس يرون بها الأشياء. فإذا كان الإبداع الحقيقي هو نتيجة تفاعل معقد بين الشخص وبيئته، فلا بدَّ أن يعتمد هذا التفاعل على شيء أساسي وهو «التوقيت المناسب». فهل لو خرج الآن مئات الوعاظ إلى القهاوي فهل سيؤثرون في روادها كما أثر فيهم هذا الواعظ بمفرده؟

قال البعض ممن يكرهون صاحبنا إلى حد العمى: إنه كان يمارس «الابتزاز العاطفي» لمستمعيه! وهو تفسير مضحك فضلاً عن أنه بالغ السُّخف، إذ يتبين لنا من سيرة تلاميذ البنا ومريديه أنهم شخصيات تتميز بالمهارة والنجاح في مجالات حياتها، تتهافت على القرب منه بحب وأريحية، فكيف إذن كانت معدومة القوة أمام شخصية البنا حيث بَدَوا كما لو كان يلفهم كالسلسلة حول أصابع يديه؟

عموماً، لقد توالت الأسئلة على واعظنا المبدع من هذه القلوب الطيبة، ولم يَشفِ غليلها هذا الجواب المقتضب، وألحَّ نفر منهم، في وجوب رسم الطريق التي يجب أن يسلكوها، ليكونوا مسلمين ينطبق عليهم وصف الإسلام، فهم يريدون أن يتعلموا أحكام الإسلام بعد أن حرَّك وجدانهم بشعور أهل الإسلام، فأشار عليهم المدرس باختيار مكان خاص يجتمعون فيه بعد درس المقهى أو قبله ليتدارسوا هذه الأحكام، ووقع اختيارهم على زاوية نائية بحاجة إلى شيء من الترميم.

أسرع هؤلاء المتيمون، إلى الزاوية يرممونها، ويستكملون أدواتها، ويهيئونها لما يريدون. وفي ليلتين اثنتين استطاعوا أداء المهمة على أكمل وجوهها. وانعقد بالزاوية أول اجتماع.

١٧ - أول اجتماع

كان المجتمعون في الزاوية حديثي عهد بالتدين، فسلك بهم شيخهم مسلكاً عملياً بحتاً، فلم يبادر إلى العبارات يلقيها، أو إلى الأحكام المجردة يرددها، إنما أخذهم إلى «الحنفيات» توّاً، وصفَّهم عليها صفاً، ووقف فيهم موقف المرشد إلى أعمال الوضوء عملاً عملًا، حتى إذا أتموا وضوءهم، دعا غيرهم، ثم غيرهم، وهكذا حتى أصبح الجميع يتقنون الوضوء بشكل عملي.

ثم أفاض معهم في فضائل الوضوء الروحية والبدنية والدنيوية، وشوَّقهم فيما ورد في مثوبته من الأحاديث النبوية، مثيراً بذلك شوقهم ويرغبهم فيما ندبهم الله له.

ثم انتقل بهم بعد ذلك إلى الصلاة شارحاً أعمالها عملاً عملاً، مطالباً إياهم بأدائها أمامه، ذاكراً ما ورد في فضلها، مخوّفاً من تركها، وهو في أثناء ذلك كله يستظهر معهم الفاتحة، واحداً واحداً، مصححاً لهم ما يحفظون من قصار السور، سورة سورة، مقتصراً في حديثه، عن الصلاة، على الكيفيات المشهورة، مشفوعة بالترغيب والترهيب، لا يحاول أن يفرِّع المسائل، أو يلجأ إلى المصطلحات الغامضة، حتى رقَّت قلوبهم، وَصَفَتْ أذهانهم.

أما في العقيدة، فكان في كل مجلس من مجالسه، يطرق بابها الصحيح فيقويها ويُثَبِّتها بآيات من القرآن، وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسير الصالحين، ومسالك المؤمنين. ولا يعمد إلى النظريات الفلسفية، أو الأقيسة المنطقية، إنما يلفت الأنظار إلى عظمة الباري في كونه، وإلى جلال صفاته في خلقه، ويذكِّر بالآخرة في أسلوب وعظي لا يعدو القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ثم لا يحاول هدم عقيدة قديمة إلا بعد بناء عقيدة جديدة.

كان أعداد الناس المقبلين على هذه الزاوية في ازدياد، ورغب سريعو الاستيعاب في المزيد من تفسير الآيات، والمزيد من الأحكام بعدما استوعبوا سريعاً الدروس الأولى، فاقترح شيخهم بناء زاوية ثانية تكون بمثابة مرحلة إعدادية بعد المرحلة الابتدائية،

فاقترح الحاج مصطفى، وكان رجلاً صالحاً، صافي الروح، أن يبني زاوية على نفقته، وسرعان ما ذاع نبأ الزاويتين، فأقبل الناس عليهما، فكان يصلي بهم المغرب والعشاء، ويعطي دروسه بين الصلاتين، وبعدها يخرج إلى دروس القهاوي.

ولم يمضِ وقت طويل حتى تنبَّه هواة الخلاف وأحلاس[١٠] الفتنة، فقدموا إلى الزاوية ليثيروا فيها الخلافات التي أثاروها في المساجد من قبل.

وفي إحدى الليالي شعر الشيخ، بحاسته الصوفية التي تلتقط أدق التغيرات، أنَّ هواءً عَكِراً هبَّ على هذه الزاوية، فقد شعر بروح غريبة، روح تَحَفُّز وفرقة، ورأى المستمعين قد تميز بعضهم من بعض، حتى في الأماكن. ولم يكد يبدأ درسه حتى فوجئ بسؤال: ما رأي الأستاذ في مسألة التوسل؟

وهنا، يا لدهشة السائل والمستمعين، إذ بادر الأستاذ إلى الإجابة بقوله: «يا أخي أظنك لا تريد أن تسألني عن هذه المسألة وحدها، ولكنك تريد أن تسألني كذلك عن الصلاة والسلام بعد الأذان، وعن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، وعن لفظ (سيدنا) في التشهد، وعن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم، هل هما في الجنة أم في النار، وعن قراءة القرآن هل يصل ثوابها إلى الميت أو لا يصل، وعن هذه الحلقات التي يقيمها أهل الطرق هل هي معصية أو قربة إلى الله»؟!

هكذا بقي الأستاذ يسرد بصوته الرخيم مسائل الخلاف حتى سردها جميعاً، فاستغرب الرجل وأُسقِط في يده، ثم قال بتواضع مصطنع:

– نعم، هذا صحيح.. إنني أريد الجواب عن هذا كله!

فجاءه الجواب من صاحب الخبرة الطويلة وقد لبس جلود الثعالب:

«يا أخي لست بعالِم، ولكني رجل مدرس بسيط أحفظ بعض الآيات، وبعض الأحاديث، وبعض الأحكام الدينية من بعض الكتيبات، وأتطوع بتدريسها للناس؛

[١٠] الْأَحْلَاس جَمْع حِلْس وَهُوَ مَا يُوضَع عَلَى ظُهُور الْإِبِل تَحْت الرَّحْل.

فإذا أَخْرجْتني عن هذا النطاق فقد أَحْرجْتني، ومن قال لا أدري فقد أفتى، فإذا أعجبك قولي، فاسمع مشكوراً، وإذا أردت التوسع في المعرفة فسل غيري من العلماء المتبحرين، والفقهاء المختصين، فهم يستطيعون إفتاءك فيما تريد، أما أنا فهذا مبلغ علمي، ومستوى عقلي، ورحم الله امرَأً عرف قدر نفسه!».

بُهِتَ الرجل من هذا الجواب الذي لم يكن يتوقعه من هذا الفطن، ولم يَجِر جواباً وقد أُخِذ على حين غرة بهذا الأسلوب، وارتاح الحاضرون إلى هذا التخلص.

لكنّ صاحب البديهة الحاضرة دوماً لم يُرِد أن يضيع هذه الفرصة هباء، فالتفت إليهم وقال: يا إخواني أنا أعلم أنَّ هذا الأخ السائل- والكثير من حضراتكم- ما كان يريد من وراء هذا السؤال إلا أن يعرف هذا المدرس الجديد من أي حزب هو؟ هل هو حزب الشيخ موسى، أم من حزب الشيخ عيسى؟ لكنَّ هذه المعرفة لا تفيدكم شيئاً، وقد قضيتم في جو الفتنة عدد سنين.

ثم أردف يقول:

إنَّ هذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين، ولا زالوا فيها مختلفين، والله تبارك وتعالى يرضى لنا التآلف والوحدة، ويكره لنا الخلاف والفرقة، فأرجو أن تعاهدوا الله أن تتركوا هذه الخلافات، وتجتهدوا في أن نتعلم أصول الدين وقواعده، ونعمل بأخلاقه وفضائله، ونؤدي الفرائض والسنن، وندع التكلف والتنطع حتى تصفو نفوسنا، ويصبح غرضنا معرفة الحق لا مجرد الانتصار للرأي، وحينئذ نتدارس هذه المسائل في ظلّ الحب والثقة والوحدة والإخلاص. وأرجو أن تتقبلوا مني هذا الرأي ويكون عهداً فيما بيننا منذ الآن.

لم يخرج المستمعون من درس الليلة إلا وقد تعاهدوا على التعاون والعمل يداً واحدة. أما السائل، وقد تكللت مغامرته بالفشل، فقد قدَّم عهده هو الآخر، لكن كان ذلك بينه وبين نفسه بألا يعود إلى هذه الزاوية أبداً.

١٨ - دروس المسجد

بعد تلك المحاولة الفاشلة، عرف الآخرون قدر الرجل ودهاءه، فأصبح لا يتصدى له إلا العلماء الضالعون في الدهاء. لكنه كان يسلك معهم مسلك الصداقة والتوقير والإجلال؛ فلا يتقدم على أحد منهم في درس أو محاضرة أو خطبة.. فإذا كان يعطي درساً، وقَدِم أحدُهم، تنحَّى له بكل تواضع، وقدَّمه إلى الناس بألطف عبارة، فكان يَظفر، رغماً عنهم، بابتسامة ودودة وكلمة طيبة، وقد غمرهم بتواضعه البارع!.

كان الشيخ «عبد السلام الصنافيري» أحد قدامى المشايخ الذين قضوا في الأزهر الشريف سنواتٍ طوالاً، وكان من المولعين بالجدل والنقاش ومحاولة إحراج الوعاظ والعلماء بطرح المسائل غير المطروقة، والتعرض لمعانٍ وموضوعات مما تضمنته الحواشي القديمة والتقارير الدقيقة العميقة.

وكان دوماً يحاول إحراج هذا المدرس الذي أكل الجو وسطع نجمه في ومضة خاطفة. وفي ذات يوم وهو يقص على الناس، في درس في المسجد، قصة إبراهيم عليه السلام، استوقفه الشيخ عبد السلام وسأله: ما اسم والد إبراهيم؟ فابتسم المدرس، وهو يكتم ضيقه، وقد ظنَّ أن الشيخ يريد أن يختبره هل آزر أبوه أم عمه، ولكنه كان يريد شيئاً آخر، فقال المدرس الذي يكتم غيظه: يا مولانا قالوا: إنَّ اسمه «تارِخ» وإنَّ آزر عمه، والقرآن يقول إن آزر أبوه، ولا مانع من أن يكون عمه لاستخدام ذلك في لغة العرب.

ولسوء حظِّ الواعظ الشاب، نطق تارِخ (بكسر الراء)! فلم يشأ الشيخ عبد السلام أنْ يدع الموقف يمر بسلام؛ فقال: لكنَّ اسم أبيه «تارُخ» بضم الراء لا بكسرها. فقال: فليكن! وهو اسم أعجمي على كل حال وضبطه الصحيح يتوقف على معرفة هذه اللغة، فالمهم العبرة والعظة!.

وعلى الرغم من أنَّ الموقف مرَّ بهدوء إلا أنَّ الشيخ عبد السلام، أصبح يترصد هذا المسكين ليباغته بسؤال مما في بطون الحواشي القديمة مما لم يخطر له على بال.

ولكن مش كل مرة بتسلم الجرة! ففي درس آخر كان الواعظ الشاب يتحدث عن شروط الصلاة، فإذ بالشيخ عبد السلام يباغته بقوله: هل تقصد الشرط اللغوي؟ أم الشرط العقلي؟ أم الشرط الشرعي؟ وهل الحكم إذا عُلِّق بشرط دلَّ على انتفاء الحكم في حال انتفاء الشرط؟

لا بدَّ أن ثمة دافعاً مشتركاً وراء كل صور الغرور، فالشخص المغرور يضع لنفسه هدفاً لا يمكن بلوغه، حيث يريد أن يكون أكثر أهمية ونجاحاً من أي إنسان آخر، وهذا الهدف غالباً ما يكون نتيجة لإحساسه بالنقص.

عموماً، هكذا كان ديدن الشيخ عبد السلام، يسمم فكر المستمعين بهذا الجدل العقيم، ويجعلهم يهربون من الدرس، ويَدَعون الميدان للشيخ المجادِل والمدرس الحائر.

يقول علماء النفس: إذا عرفت نوعية شخصية أحدهم، فسوف تستوعب سلوكه. لكن لعلَّ الأصح أن نقول: إذا عرفت نوعية شخصية أحدهم، فسوف تغير سلوكه!

فَكَّر المدرس الحائر، خبير النفوس، في علاج ناجع يخلصه من غلاسة هذا الشيخ، فدعاه إلى منزله وأكرمه وأهداه كتباً في الفقه والتصوف جَلَّدهما تجليداً فاخراً جعلها تبدو على رف كتب الشيخ المتواضع مشرقة ناصعة كأنها أميرة بين الصعاليك، وقال له بأنَّه مستعد لمهاداته بما شاء من الكتب، فسرَّ الرجل بذلك سروراً عظيماً، وأصبح يواظب على حضور الدروس ويصغي إليها إصغاءً تاماً، دون أسئلة من بطون الحواشي؛ بل الأعجب من هذا أنه أخذ يدعو الناس إلى حضور دروس المدرس الجديد كي يشجعه على الحديث أمام الناس كما كان يقول!

أما رجال الطرق الصوفية فقد كانوا كثرة كثيرة. وفي الفترة التي كان «حسن البنا» منهمكاً فيها في الوعظ والدرس، زار الإسماعيليةَ الشيخُ «عبد الوهاب الدندراوي» وهو من أتباع الشيخ عبد الوهاب الحصافي، وأخذ يدرِّس ويعظ، ثم يترأس حلقة

الذكر بعد ذلك. وقد عَرَفه حصافيُنا القديم من النظرة الأولى، ورأى فيه أسلوب الطريقة الحصافية مجسداً.

والحق، أنَّ الحصافيَّ التائب، لم يكن متحمساً لنشر الطريقة الحصافية لأسباب أهمها: أنه لا يريد الدخول في خصومة مع أبناء الطرق الأخرى، كما لا يريد أن تكون دعوته محصورة في نفر من المسلمين، ولا في ناحية من نواحي الإصلاح الإسلامي فقط، إنما يريد أن تكون دعوته عامة جامعة لكافة أطياف المسلمين.

ومع هذا، فقد أكرم زميله الصوفي وأحسن استقباله، وتركه يدعو الراغبين إلى الأخذ عنه والاستماع إليه دون أن يُبْدِي اعتراضاً، حتى إذا انتهى المجلس العام طلب أن يخلوا به في حجرة خاصة. ولما دخل البنا خلع طربوشه ووضعه على الكرسي، ثم نزع عمامة زميله الصوفي ووضعها إلى جوار الطربوش، والرجل يستغرب هذا التصرف الذي لم يفاجأ به من أحد من قبل. وقال له: يا أخي لا تنتقدني في هذا العمل فإنما فعلته لأقضي على الفارق الشكلي بيني وبينك، ولأخاطب فيك المسلم الغيور فقط، أما الشيخ «عبد الوهاب الدندراوي» فقد تركناه في المجلس العام.

ثم استطرد قائلاً: ها أنت ذا ترى هذه الجموع، التي جمعها الله عليك، لتقضي الليل في ذكر ونشيد، ثم لا شيء بعد ذلك، بينما حال الكثير منهم: جهالة بالدين، وبُعْد عن الشعور بعزة الإسلام وكرامته فهل تَرْضَ هذا؟ فقال:

- وماذا أصنع؟

قال الحصافي القديم:

- العلم، والتنظيم، والرقابة، والتربية على سيرة سلفنا الصالح، وتاريخ أبطالنا المجاهدين. فالتصوف ليس توابل إضافية لنفس الطبق القديم، فهو ليس شيئاً يمكننا إضافته إلى حياتنا من دون أن يُحدث تغييرات فيها.

هل سبق لك أنْ شعرت بالشفاء بعد حوار طويل مع شخص ما؟ هل أشعرتك علاقاتك به بالرضا عن ذاتك؟ فلو حدث هذا، فإنه قد حدث لأن الحوار بينكما حدث في جو من الثقة والانفتاح والصراحة، وكان الآخر ينتبه لك انتباهاً كاملاً، ويستمع إليك دون أن يصدر أحكاماً عليك. فالشيخ قد تأثر بكلام حسن البنا تأثراً عميقاً، بعد الحوار الصريح الذي دار بينهما، وتعاهدا على العمل معاً لخدمة الإسلام. وما من مرة يزور الإسماعيلية بعد ذلك إلا يبدأ بزيارة الحصافيِّ التائب ويطمئنه بأنه على العهد مقيم.

بيد أنه، في هذه الفترة، لم تتجلَّ حرارة «حسن البنا» وإيمانه بدعوته إلى أبعد مدى فحسب، بل تجلت مرونته النفسية أيضاً، تلك المرونة التي سوف نراها تتضاءل وتنكمش كثيراً فيما بعد، أو في مناسبات خاصة على الأقل؛ ربما بسبب تقدم السِّن، أو ربما بسبب ضغوط المهام الثقيلة الملقاة على كاهله. وخير شاهد على هذه المرونة عندما استأجر منزلاً وسكن في الدور الثالث منه، فكانت المصادفة أن وجد الدور الأوسط لمجموعة من المسيحيين، اتخذوا منه نادياً وكنيسة، بينما دوره الأسفل اتخذته مجموعة من اليهود، نادياً وكنيسة. أما دوره الأعلى فقد اتخذه المدرس المتسامح مصلّى، فكأن هذا المنزل أصبح يمثل الأديان الثلاثة بصورة رمزية، وكان يجد فألاً حسناً حيث أعيد توزيع الأدوار الثلاثة في نصابها الصحيح، فكان مكان الإسلام الدور الأعلى، فهو يرمز إلى هيمنته على الأديان الأخرى.

ومن الطرائف في هذا المنزل أنَّ السيدة «أم شالوم» اليهودية، كانت تدعوهم كل ليلة سبت ليضيئوا لها النور، ويساعدوها في توليع وابور الجاز، وكانوا يمازحونها بقولهم: إلى متى تستخدمون هذه الحِيَل التي لا تنطلي على الله؟

لكنها كانت تعتذر، وتُنْهي المناقشة بسلام.

١٩ - الإخوان المسلمون

في الأيام الأولى من نوفمبر عام ١٩٢٨، وقبيل منتصف الليل بقليل، وفي المنزل السابق الذي يضم أفراداً يدينون بالأديان الثلاثة، كان يصعد على سلم البيت إلى الدور الثالث عدة أشخاص، وقد لفهم الظلام.

عند دخولهم البيت كان الظلام قد تبدد، وكان بالإمكان رؤية ستة أصدقاء هم: حافظ عبد الحميد (نجار)، أحمد الحصري (حلاق)، فؤاد إبراهيم (مكوجي)، عبد الرحمن حسب الله (سائق)، إسماعيل عز (جنايني)، زكي المغربي (عجلاتي)، وهم من الذين تأثروا بالدروس والمحاضرات التي كان يلقيها حسن البنا في الاسماعيلية.

جلس الأصدقاء يتحدثون إلى شيخهم وفي صوتهم قوة، وفي عيونهم بريق، وعلى وجوههم سَنَا الإيمان والعزم، قالوا: «لقد سمعنا ووعينا وتأثرنا، ولا ندري كيف الطريق إلى عزة الإسلام وخير المسلمين. وها أنت ترى أنَّ الناس في هذا البلد لا حظَّ لهم من منزلة أو كرامة، ونحن لا نملك إلا هذه الدماء التي تجري عزيزة في عروقنا، وهذه الدراهم القليلة، من قوت أبنائنا، ولا نستطيع أن ندرك كيف الطريق إلى العمل كما تُدرِك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما تعرف. وكل الذي نريده الآن أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله وتكون أنت المسئول بين يديه عنا وعما يجب أن نعمل».

كان لهذا القول المخلص أثره البالغ في نفس صاحبنا، ولم يستطع أن يتنصل من حمل ما حملوه إياه، فهو عين ما كان يدعو إليه ويبحث عنه، وتذكّر لعبته القديمة، لعبة تكوين جماعة هو قائدها!

إنَّ الألعاب التي نلعبها أشبه بأشرطة قديمة ورثناها عن طفولتنا، ونواصل تشغيلها في كل وقت حتى نجد الظرف المواتي؛ فهي قد أصبحت جزءاً من شخصيتنا. ورغم أنَّ تلك الألعاب قد تكون خطرة ومدمرة أحياناً، إلا أنها تقدم لنا نوعاً من الراحة، وتمنحنا الفرصة المناسبة لمواجهة المشاكل التي لا حل لها. فقال لهم في تأثر عميق:

– إنَّ جماعة تعاهد الله مخلصة على أن تحيا لدينه، وتموت في سبيله، لا تبتغي بذلك إلا وجهه، لجديرة أن تنتصر، وإنْ قَلَّ عددها وضعفت عدتها..

ثم أردف يقول:

شكر الله لكم وبارك هذه النية الصالحة، ووفقنا إلى عمل صالح يُرْضِي اللهَ وينفع الناس، وعلينا العمل وعلى الله النجاح. فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جنداً، وفي البيعة حياة الوطن وعزة الأمة!.

وكانت بيعة..

وأقسموا على أن يحيوا إخواناً يعملوا للإسلام ويجاهدوا في سبيله.

وقال قائلهم: بم نسمي أنفسنا؛ وهل نكون جمعية أو نادياً، أو طريقة، أو نقابة حتى نأخذ الشكل الرسمي؟

فقال صاحبنا الذي يدرك قواعد اللعبة جيداً:

لا هذا، ولا ذاك، دعونا من الشكليات، ومن الرسميات وليكن أول اجتماعنا وأساسه الفكرة والمعنويات والعمليات. نحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذن «الإخوان المسلمون». وجاءت بغتة، وولِدت فجأة، وذهبت مثلاً.

وتمخضت أول تشكيلة للإخوان المسلمين من هؤلاء الستة، حول هذه الفكرة، وعلى هذه الصورة، وبهذه التسمية. ولن يلبث أن يجتمع زخم غريب من طبقات شتى ومهن مختلفة: المحامين والقضاة والأطباء جنباً إلى جنب مع العجلاتية والنجارين والسائقين. وها قد حان الوقت الآن ليتجلى هذا الخليط ويكشف عن نفسه وقد امتزج بروح هذا الداعية ونفسه.

البعض يشكك في هذه الرواية العفوية التي يرويها مؤسس الجماعة في مذكراته. بل إنَّ بعضهم يشكك في المذكرات نفسها، بل ويشكك في اغتيال حسن البنا أصلاً!

وبعضهم يُرْجع تسمية جماعة الإخوان إلى أيِّ جماعة أو جمعية في التاريخ ورد فيها اسم إخوان أو جماعة؛ سواء الأخويات المسيحية في العالم المسيحي كجماعة فرسان الهيكل، والجمعيات الماسونية، أو الأخويات الإسلامية التي انتشرت في العالم الإسلامي كإخوان الصفا، وجماعة الحشاشين.

على أي حال، لن يخلو التاريخ من هؤلاء المشككين الظرفاء في كل دور من أدواره أو فترة من فتراته؛ فهم ملح الأرض، ومعدن الفهم، وينبوع العلم، وكالنجم للحيران، والماء البارد للظمآن. وهم- بحمد الله- يشككون في كل شيء حتى في دوران الأرض، وسفن الفضاء، والصعود إلى القمر.

٢٠ - مدرسة التهذيب

كانت نهاية عام ١٩٢٨، نهاية مشهودة، حيث بدا صاحبنا، في هذا العام، عام البيعة، مثل السمكة في الماء، وقد تجلى بمنتهى التألق والإشراق، وقد انتابه نشاط محموم لإخراج جماعة الإخوان من حيز الفكر إلى حيز الوجود، فتوجه لاستئجار مكان خاص اتخذه كمدرسة لتهذيب الرعيل الأول الذين كانوا سبعين رجلاً، قيل إنه اختارهم وفقاً لقوله تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا}. وفَرَض منهجاً صارماً قوامه: تلاوة القرآن بأحكام التجويد، وشرح بعض الآيات والسور وتفسيرها تفسيراً مناسباً، وحفظ بعض الأحاديث وشرحها، وتبسيط العقائد والعبادات، والتركيز على أسرار التشريع وآداب الإسلام العامة، ودراسة التاريخ الإسلامي وسيرة السلف الصالح والسيرة النبوية بصورة مبسطة مركِّزاً على النواحي العملية والروحية. وتدريب القادرين على الخطابة تدريباً عملياً.

كان أحد هؤلاء الرعيل الأول نجاراً يقال له: «حافظ عبد الحميد» استدعاه «مسيو سولنت» باشمهندس القنال ليصلح له بعض أدوات النجارة في منزله وسأله عما يطلب من أجر؟ فقال:

– ١٣٠ قرشاً.

– أنت حرامي!

– ولماذا؟

– لأنك تأخذ أكثر من حقك.

– تستطيع أن تسأل أحد المهندسين، فإن رأى أنني طلبت أكثر من اللازم فسوف أقوم بالعمل مجاناً ولن آخذ منك شيئاً.

استدعى «مسيو سولنت» مهندساً وسأله فقدَّر العمل بـ ٢٠٠ قرشاً.

توجه المسيو سولنت للشيخ حافظ وطلب منه بأن يبدأ بالعمل، لكنّ الشيخ رفض قائلاً:

– أنت أهنتني فعليك أن تعتذر وتسحب كلمتك!

استشاط الرجل غضباً وغلبه الطابع الفرنسي الحاد، وقال:

– ومن أنت حتى أعتذر لك؟ لو كان الملك فؤاد نفسه ما اعتذرت له!

ردَّ الشيخ في هدوء:

– وهذه غلطة أخرى يا مسيو سولنت، فأنت في بلد الملك فؤاد، ومن أدب الضيافة ألا تقول مثل هذا الكلام، وأنا لا أسمح لك أن تذكر اسمه إلا بكل أدب واحترام.

– افرض أنني لم أعتذر فماذا ستفعل؟

– الأمر هين: سأكتب تقريراً إلى قنصلكم هنا وإلى سفارتكم، ثم إلى مجلس إدارة قناة السويس بباريس، ثم إلى الجرائد الفرنسية، ثم أترقب كل قادم من أعضاء هذا المجلس

فأشكوك إليه، فإذا لم أصل إلى حقي بعد ذلك أستطيع أن أهينك في الشارع وعلى ملأ من الناس.

– يظهر أنني أتكلم مع أفوكاتو لا نجار! ألا تعلم أنني كبير المهندسين في قناة السويس فكيف تتصور أن أعتذر لك؟

– وألا تعلم أنَّ قناة السويس في وطني لا في وطنك!

تركه المسيو سولنت وأخذ يتمشى في البهو الفسيح وقد أشعل غليونه، وسادت فترة صمت لا يتخللها إلا وقع أقدام المسيو الثائر الحائر، وبعد قليل تقدم من الشيخ حافظ وعلى وجهه أمارات التأثر وطرق المنضدة بيده مرات في عنف وهو يقول:

– أعتذر يا حافظ. سحبت كلمتي.

فقام الشيخ حافظ بكل هدوء وزاول عمله حتى أتمه.

٢١ – الشيخ حامد عسكرية

إننا لو طلبنا دليلاً على قوة دعوة داعية من الدعاة ونفوذ كلمته، فلن نجد دليلاً أقوى من وجود خلفاء وأتباع يحملون دعوته وينشرونها في حياته وبعد مماته، فكما كان للنبي صلى الله عليه وسلم خلفاء، وللمسيح حواريين، ولبوذا رهبان، كان لحسن البنا مبايعين ومريدين. وإذا كان محمد عبده أول المتابعين المخلصين الأوفياء لجمال الدين الأفغاني، وكان رشيد رضا أول التلاميذ النجباء للشيخ محمد عبده، فإنَّ حامد عسكرية أول الدعاة المخلصين لحسن البنا، ولو امتد به الأجل لكان الخليفة الأول لحسن البنا بلا منازع، لكنه توفي في ريعان الشباب عام ١٩٣٧ وهو في الثلاثين.

وُلِد حامد عسكرية في محافظة الشرقية عام ١٩٠٧، وأرسله أبوه إلى كُتَّاب القرية فحفظ القرآن صغيراً، والتحق بالأزهر، واتصف بصوته الندي في الخطابة وقراءة القرآن. وقد اتصف بحبه الشديد للقرآن والسنة والدفاع عنهما.

وخلال دراسته في القاهرة، تعرف بحسن البنا وأصبحا صديقَين لا يكاد يُرى أحدهما إلا بصحبة الآخر، وكانا يجوبان القهاوي للوعظ، ثم تفرقا بعد تعيين حسن البنا في الإسماعيلية، فلما أنشأ الأزهر قسم الوعظ والإرشاد كان الشيخ حامد عسكرية أول من اختير من الوعاظ وجاء تعيينه بالإسماعيلية، وهناك التقى بالبنا مرة أخرى وبايعه.

يقول حسن البنا:

(وليت وجهي شطر الأصدقاء والإخوان، ممن جمعني وإياهم عهد الدراسة وصدق الود والشعور بالواجب، فوجدت الأخ المفضال المرحوم حامد عسكرية، أسكنه الله فسيح جنته، أسرعهم مبادرة إلى مشاركتي عبء التفكير، وأكثرهم اقتناعاً بوجوب العمل في إسراع وهمة. وكان من أوائل الذين وقع عليهم الاختيار من الأزهر لتولي مهمة الوعظ والإرشاد، وكان من توفيق الله وجميل صنعه أن عُيِّن بالإسماعيلية فاجتمعنا فيها على الدعوة معاً. وكان- رحمه الله- عليها خير معوان. ولن أنسى ذلك اليوم الشديد الحرَّ الذي قضينا أصيله أمام منزلنا بالعرايشية في ظل ظليل ونسيم عليل ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ونبني صروح الآمال ونترقب تحقيقها في ثقة واطمئنان على أهدأ ما نكون نفساً. وقد حركت هذه الجلسة في نفسي شعوراً خفياً فقلت: يا شيخ حامد إنني لم أشعر بمثل هذا الصفاء والفرح النفساني كما أشعر بذلك الآن، وإني ليخطر ببالي قول القائل: "وعند صفو الليالي يحدث الكدر" ولا أدري ما هذا الخاطر الذي أخذ يعكر في نفسي هذا الصفاء! فأخذ يُسرِّي عني، وانصرفنا إلى دار الإخوان فإذا بنا نجد خطاب النقل للشيخ حامد، فنظر كلانا لأخيه وقال كل منا لصاحبه: خير إن شاء الله ستستفيد الدعوة من هذا النقل ولا شك. والمؤمن كالمطر أينما وقع نفع).

مهما يكن من أمر، لقد ظل حامد عسكرية وفياً لبيعته التي اقتطعها على نفسه. ومنذ اللحظة الأولى، وضع نفسه في خدمة الدعوة والداعية، ولم تكد تخلو خطبة من خطبه من الدعوة إلى مبايعة حسن البنا والدخول في جماعته، مما جرَّ عليه المشاكل وأثار حفيظة أعداء الإخوان فجعلوا يقدمون فيه الشكوى تلو الأخرى، حتى تم نقله من الإسماعيلية إلى شبراخيت.

ومنذ أول يوم نزل شبراخيت راح ينشر دعوة الإخوان بأسلوب أكثر جرأة، ولم يمضِ على نقله سوى أيام قلائل حتى أسس شعبة شبراخيت، وتم افتتاحها في يونيو ١٩٣٠، في احتفال كبير، كاد يكون سبباً في هلاك حسن البنا وعدد من كبار الإخوان، فقد استغرق السفر إلى شبراخيت نحو عشر ساعات ذهاباً ومثلها إياباً، فلما عادوا الساعة الثانية صباحاً كان الكوبري عند قرية «زفتى» مغلقاً فسلكوا طريقاً كثيرة التعاريج والالتواءات يجهلها السائق، وكان القمر يلقي بنوره على الماء فيبدو كأنه أرض مستوية، فلما اجتازوا القناطر إذْ بالسائق يتوقف مذعوراً ليجدوا أنفسهم على لسان من الأرض ممتد في الماء عميقاً، لا يزيد عرضه على عرض عجلات السيارة. فلما حاولوا النزول وجدوا الماء عن يمينهم وشمالهم، ولم يكن بين مقدم السيارة والماء سوى نصف متر. ولم يسمعوا هنالك سوى خرخرة الماء عند عجلات السيارة، ونقيق الضفادع في الماء، ونباح كلب يأتي من بعيد.

هنا اضطرب السائق والركاب وحاول بعضهم النزول، فجاءهم الأمر حازماً جازماً من قائدهم بعدم الحركة حتى تهدأ الأعصاب، وقال لأمين الطعام وهو يضحك: أين الشاي المحفوظ عندك يا محمود أفندي؟ فقال: لماذا؟ فقال: نشرب، فقال أوَ تمزح في هذه الساعة؟ فقال: بل أنا جاد، هات الشاي وامتثِل الأمر. وأخرج محمود أفندي الترمس وصب الشاي وأخذوا يشربون وهم على حافة الموت. أما حسن البنا فقد بدا صامتاً خاشعاً كأنه في صلاة، وكان الجميع يعرفون منه هذه الحالة، فلم يزعجوه أو يحدثوا حوله أي ضجيج أو صخب.

تكمن القوة العظمى لحسن البنا في سيطرته على عقله الباطن وقدرته السريعة على اللجوء إلى تلك القوة العجيبة الموجودة في داخل نفسه والتي كانت تحقق له المعجزات، فهو يستطيع الوصول إلى تلك القوة وإخراجها من مكمنها بسهولة ويسر، وقد اكتسب هذه المقدرة أيام فترة التصوف التي عاشها من قبل.

إنَّ جميع الناس يمتلكون هذه القوة، لكن القليل منهم من يعرف كيف يستخدمها، إذ تكمن في أعماق عقلنا الباطن- في فترة الشباب- قوة لا حدود لها، قوة مطلقة ومخزون لانهائي من الطاقة ينتظر من ينميه ويظهره قبل أن يتلاشى ويندثر، وفيه تجد الحلول لكل المشكلات التي تواجهك.

لكن السؤال هنا: من يمتلك المهارة في تشغيل هذه القوة الجبارة، ومن يستطيع أن يستغل قواه الباطنة لتحقيق النتائج المؤكدة؟ إنهم الأشخاص الذين يتسمون بالفراسة والتبصر وينصبُّ تركيزهم على عالمهم الداخلي ليشكلوا من خلاله عالمهم الخارجي ويؤثروا فيه!

عموماً، ما هي إلا لحظات حتى خرج حسن البنا من حالته، وهدأت الأعصاب تماماً، وأخذ السائق يرجع إلى الخلف في بطء لا يزيد عن بطء السلحفاة. ومضت نصف ساعة وهم على هذه الحال حتى خرجوا من لسان الماء.

وما إن خرجوا من لسان الأرض الممتد في الماء حتى وجدوا أنفسهم على مفترق طرق زراعية متشابهة فلم يدر السائق أيها يسلك، وتلفتوا في الحقول وعلى رؤوس الطرق فلم يجدوا أحداً، وإذ بالأومباشي محمد شلش- وكان قد انضم إلى الإخوان حديثاً- يُخْرِج صفارة البوليس ويُصفِّر فيها، وما هي إلا لحظات حتى تسارع الخفراء من كل مكان، وجاء أقربهم وأدى التعظيم العسكري ببندقيته وسأل: مين يا أفندم؟ فقال الأومباشي: مباحث! وأسرَّ في أذنه كلاماً، ثم قال له أين الطريق؟ فدلهم الخفير عليها بكل أدب، فأخذوا وجهتهم إلى حيث أشار، فقال حسن البنا للأومباشي: لماذا تكذب؟ فابتسم وقال: ما كذبت إنما نحن مباحث عن الحق وعن الخير وعن الدين.

ولو قلت له غير ذلك لما رضي إلا بأن نصحبه إلى العمدة، ومن يدري كيف يتصرف معنا العمدة وقد يحجزنا عنده. واندفعوا يسيرون في الطريق بسيارتهم «الستروين» فوصلوا إلى الإسماعيلية في الساعة السادسة صباحاً. وكان عجبهم شديداً إذ وجدوا أنَّ السيارة قد نفد كل ما فيها من زيت ووقود.

وأصبح كثير من الاخوان يتناقلون هذه الحادثة فيما بعد للدلالة على كرامات حسن البنا، الذي جعل السيارة تسير بغير وقود ولا بنزين. أما حسن البنا فلم يعلق على هذه الحادثة إلا بقوله: «إنها المصادفة الموفقة أن يوافق نفاد الزيت والوقود نهاية الرحلة، والحمد لله على منه وكرمه وجميل لطفه إنَّ ربي لطيف لما يشاء».

تجب الإشارة هنا إلى أنَّ حسن البنا لم يعد إلى شبراخيت بعد هذه الحادثة، ليس بسبب المعاناة التي واجهتهم في الطريق، إنما بسبب الشكاوى التي استمرت تَتْرَى ضد الشيخ حامد عسكرية، حتى تم نقله من شبراخيت إلى شبين الكوم. وفي شبين الكوم لم تنقطع الشكاوى ضد حامد عسكرية حتى صدر قرار بنقله إلى البداري.

سنوات كثيرة عجاف من التنقل والترحال والشكاوى لم تغير فيه شيئاً، ونظرة واحدة إلى وجهه كانت كافية لتدرك أنَّ النكبات، أياً كانت، لن توقفه. كان التنقل من بلد إلى بلد يمنحه معياراً جديداً للرؤية، ولا يمكن لشيء أن يكون أكثر فائدة من معايشة مرارات الحياة ومفارقة مألوفات الإنسان. لا شيء يضعف فناناً أو قائداً عسكرياً أو داعية دينياً سوى توقف قدرته على فعل ما يشاء وقول ما يشاء وقتما يريد. ولا شيء سوى التجارب القاسية يمكن أن يعطي الإنسان رؤية واسعة وموغلة إلى حقائق العالم. قد تبدو هذه الفكرة قاسية، إلا أنَّ حقيقة التجارب القاسية التي مر بها الشيخ عسكرية أعطته فرصة لاختبار إيمانه بدعوته من فترة لأخرى، بحيث نضج نضجاً لطيفاً، وقد صَلُبت إرادته، وأصبح ذا همة وحزم، ولم يستطع هذا النفي من مكان إلى مكان أن يهدم قواه أبداً، إنما قوَّى إرادته وصقلها، وظل ثابتاً على موقفه حتى توفاه الأجل، ونعاه حسن البنا في جريدة الإخوان المسلمين بهذه السطور:

"إي وربي إنه الخَطْب يكاد يسلخ النفوس من الصبر، وفجيعة توشك أن تودي بثبات القلب، ذلك بأنَّ ركناً من أركان الإخوان المسلمين قد تزلزل بنيانه. لقد عصف الحِمَام[١١] بشقيق أرواحهم وأحد الصفوة المتقدمين في طلائع صفوفهم الأستاذ الكريم الشيخ حامد عسكرية".

٢٢ - الشيخ محمد فرغلي

إذا شبهنا جماعة الإخوان بدولة فإن حسن البنا يعتبر رئيسها، وحامد عسكرية وزير إعلامها، أما الشيخ محمد فرغلي فسيكون وزير دفاعها.

وُلِد الشيخ محمد فرغلي في أسيوط عام ١٩٠٧، وانضم إلى جماعة الإخوان منذ بداية تأسيسها في الإسماعيلية، ووثق به حسن البنا ثقة عمياء، واعتبره رجل المهمات الصعبة. وبعد تأسيس جماعة الإخوان، أخذ حسن البنا يجوب كافة المدن والقرى والنجوع المصرية خارج الإسماعيلية، فأنشأ شُعَباً للإخوان في كل ناحية: في أبو صوير، وبور سعيد، والسويس، والبحر الصغير، والمنزلة، وميت خضر، والبصراط، وغيرها..

ولم يكتف بذلك بل أخذ يزور تجمعات العمال، فوصل إلى شركة صناعة الجبس التي تسمى (شركة جبّاسات البلّاح) وكانت تضم أكثر من ثلاثمائة عامل، فبايعه بعضهم، وأوعز إليهم خفية أن يطلبوا من الشركة أن تبني لهم مسجداً، فاستجابت الشركة لمطلبهم، وبُني المسجد، وطلبت الشركة من الجماعة بالإسماعيلية، انتداب شيخ يقوم بالإمامة والتدريس، ومن لهذه المهمة في قلب الصحراء غير الشيخ محمد فرغلي!

وصل الشيخ محمد فرغلي إلى الشركة ضحى يوم السبت عام ١٩٣٠وتقدم إلى مكتب مدير الشركة. نظر «المسيو ماينو» إلى الشيخ فرأى أمامه رجلاً قوي البنية، عريض المنكبين، وقد خددت الأهوال وجهه، كان يبدو كأنه فلاح يضرب الحقل بفأسه

[١١] الحِمَام: الموت

طوال النهار. تعجب المدير مستبعداً أن يكون هذا الشخص واعظاً أو عالماً، فلم يأبه به كثيراً، وسلَّمه المسجد، وسكن في غرفة خاصة بجوار المسجد.

لم تمض أسابيع وجيزة على قدومه، حتى أصبح معظم العمال يداومون على الصلاة، ويعرفون الوضوء والغسل والطهارة، وبدأ معهم مثلما بدأ حسن البنا مع رواد القهاوي في الزاويتين، فارتفع مستواهم الفكري والنفسي ارتفاعاً عجيباً، وبدأ يحرضهم على المطالبة بحقوقهم، وإذا وقف أحدهم أمام رئيسه فعليه أن يقف مرفوع الرأس في أدب، شامخ الأنف في وقار، يحدثه في حجة ومنطق، ولا يَقْبل منه كلمة نابية، أو أي مظهر من مظاهر التحقير والاستصغار. أما من يعجز عن ذلك من العمال فكان يذهب معه بنفسه ويطالب بحقه، ولا يرجع حتى يلبى مطلبه، فأصبحت اليد الطولى على العمال لهذا الشيخ، فهو الذي يُصلح بينهم عند التخاصم، وهو الذي يكتب لهم الرسائل لذويهم، وهو الذي يقضي نهاره بينهم أثناء العمل، وهو الذي يشاركهم جلسات السمر اللطيف في الليل.

هذه السياسة لم تُعجِب الرؤساء، ورأوا أنه إذا استمر الحال على ذلك، فستكون السلطة كلها لهذا الشيخ، ولن يستطيع أحد بعد ذلك أن يكبح جماحه وجماح العمال.

فَكَّر المدير في إقصاء هذا الشيخ القوي الشكيمة عن العمل، لكنه تهيَّب أن يذهب إليه، فأرسل إليه الرئيس المباشر، «المسيو فرانسوا» ليقول له: إنّ المدير أخبرني بأنَّ الشركة قد استغنت عن خدماتك، وأنها تفكر في انتداب أحد العمال للقيام بعملك في المسجد.

ضحك الشيخ ضحكة ساخرة ثم قال بهدوء:

– ما كنت أظن يا «مسيو فرانسوا» أنني موظف بشركة جباسات البلّاح، ولو كنت أعلم هذا ما قبلت العمل معها، ولكني أعلم أنني موظف من قبل الإخوان المسلمين بالإسماعيلية، وأتقاضى مرتَّبي منهم، ومتعاقد معهم لا معكم.

قال «مسيو فرانسوا» وهو يمدُّ إليه ظرفاً انتفخ بالنقود:

- هذا حسابكم إلى اليوم حسب أمر المدير.

ردَّ الشيخ بلهجة جافة وقد قطب جبينه:

- أنا لا أقبل منك مرتباً ولا حساباً، ولن أترك عملي في المسجد ولو بالقوة، إلا إذا أمرني بذلك رئيس الجماعة الذي انتدبني هنا!

لم يتكلم «مسيو فرانسوا» كلمة أخرى وأدار ظهره وانصرف.

صبرت الشركة أياماً لعلَّ الشيخ يطلب منها مرتبه، فلم يطلب وكان قد اتصل بحسن البنا وأخبره بالأمر فأوصاه بالتمسك بموقفه، وألَّا يدع مكانه بحال.

اتصل مدير الشركة بمحافظ القنال، الذي اتصل بدوره بمأمور الإسماعيلية، وأوصاه أن يتوجه على رأس قوة لعلاج الموقف، وحضر المأمور بقوته، وجلس في مكتب المدير يرتشف القهوة ريثما يحضر الشيخ فلم يحضر، وأرسل يطلب حضوره، وكان قد اعتصم بالمسجد، فكان جوابه:

- لا حاجة لي عند المأمور، ولا عند المدير، وعملي بالمسجد، فإذا كان لأحدهما حاجة، فليحضر لي.

حضر المأمور إلى الشيخ، وأخذ يطلب إليه أن يستجيب لمطالب المدير، ويترك العمل، ويعود إلى الإسماعيلية، فأجابه بمثل ما أجاب المدير، وزاد على جوابه بأن قال: لن أخرج من هنا إلا جثة لا حراك بها.

واصل المأمور تهديده بأنهم سيطلقون عليه الرصاص إنْ لم يخرج!

أجابه الشيخ فرغلي بكل هدوء:

- إنني لمستعد للموت، فمرحباً بلقاء الله.

يبدو أنَّ الموت كان يقدم نفسه للشيخ فرغلي بطريقة مسبقة، فقد سِيق للموت فعلاً بقرار من ضباط الثورة، وبعد هذا اليوم بأربعة وعشرين عاماً، وهو يردد العبارة ذاتها: "إنني لمستعد للموت، فمرحبًا بلقاء الله!".

على أي حال، وصل النبأ إلى العمال، فتركوا العمل في لحظةٍ واحدةٍ، وأقبلوا متجمهرين صاخبين، وهنا خشي المأمور العاقبةَ، فترك الشيخَ وعاد إلى الإسماعيلية، واتصل بحسن البنا للتوصل إلى حل، فأجابه بأنَّ مجلس إدارة الجمعية سينعقد للنظر في الموضوع، ثم يجيبه بعد ذلك.

يقول حسن البنا في مذكراته: (يؤسفني أن أقول إنني حضرت إلى القاهرة لمقابلة العضو المصري الوحيد في مجلس إدارة الشركة لترويض هذه الأزمة، فوجدت منه كل إعراض عن مصالح العمال، وكل انحياز إلى آراء الشركة ومديرها، وكل تجرد من أية عاطفة فيها معنى الغيرة الوطنية!).

هنا، اضطر مروِّض الأزمات إلى الرجوع إلى الإسماعيلية لمقابلة مدير الشركة، وسأله عما ينقمه من الشيخ فقال:

- إنني صديق للكثير من زعماء المسلمين، ولقد قضيت في الجزائر عشرين سنةً، ولكني لم أجد منهم أحداً كهذا الشيخ، الذي ينفذ علينا أحكاماً عسكرية كأنه جنرال.

هل كان «المسيو ماينو» يعلم بعد أقل من عشرين عاماً أن هذا الشيخ سيتحول إلى جنرال حقيقي على أرض القنال، وفي معسكرات التل الكبير، ووسط ثكنات المستعمرين في بور سعيد والإسماعيلية والسويس ودير البلح والنقب في فلسطين، وأنه سيكون المطلوب الأخطر للبريطانيين واليهود حياً أو ميتاً؟

على أي حال، أخذ حسن البنا يناقش المدير ليُفهمه أنه مخطئ وأنَّ الشركة هي التي تقسو على العمال، وتنقص حقوقهم، وتقتِّر أجورهم.

أجاب المدير بأنَّ هذه سياسة الشركة ونحن لا نجبر أحداً على العمل معنا.

أدرك حسن البنا تعسر الموقف. فالشخص الذي يفهم الآخرين ببراعة يتجاوز سمعه الكلمات إلى ما وراءها، ويفهم جيداً الرسالة التي يقصد المتحدث توصيلها.

إذن لا ينبغي هدم الجدار الباقي، فكل ما سيربحه هو إثارة المزيد من المقاومة لدى المدير، إنما عليه البحث عن باب في الجدار والخروج بصفقة رابحة تحفظ ماء الوجه:

– للأسف لا يوجد عالِم يرضى أن يَخْلف الشيخَ فرغلي بهذا المرتب الصغير، ولا أن يسكن في هذا المسكن الحقير الذي كان يسكن فيه الشيخ. أجاب حسن البنا وهو يظهر الأسف!

– "نحن على استعداد لمضاعفة مرتب الشيخ الجديد، وأن نوفر له المسكن اللائق"، أجاب المسيو ماينو. فالمهم أن ينقلع هذا الشيخ من وجوههم!

أمَا وقد ابتلع المدير الطعم، فلم يبق إلا التفاوض على بقاء الشيخ فرغلي شهرين حيث هو، وأن تقوم الشركة بتكريمه عند انتهاء هذه المدة، وأن تطلب رسمياً إلى الإخوان من يحل محله من المشايخ، ووافقت الشركة على تلك المطالب بكل سرور. وبعد شهرين عاد الجنرال فرغلي، واختار حسن البنا مكانه شيخاً آخر لا يتصرف كجنرال، إنما يتخذ أسلوباً آخر يرى أنه أجدى وأنفع.

٢٣ – مسجد الإخوان بالإسماعلية

في إحدى الجلسات الصيفية وقت الأصيل، جلس عشرون شخصاً– متقدو الشغف بالجماعة ومؤسسها– في ظل عريشة من سعف النخيل، متسعة الأرجاء، وارفة الظلال، يتخلل من بين سعفها النسيم العليل الذي حرَّك الأمانيَّ ونشَّط الأفكار، فاقترح أحدهم بناء دار خاصة بالجماعة، وعدَّل آخر هذا الاقتراح بأن يكون مع الدار مسجد، وتحمس الجميع للفكرة.

كان صاحبنا ساكتاً يفتل قيداً يقيد به هذه الفكرة قبل أن تذهب هباء، فلما سألوه: ماذا ترى؟ قال بهدوء:

أما المبدأ فجميل! لكن التنفيذ يحتاج إلى شروط، أولها: إخلاص النية، ثم المثابرة والكتمان، وأن نبدأ بأنفسنا، فإن كنتم صادقين فيما تتحمسون له فأرى أن تتعهدوا بجمع خمسين جنيهاً في ظرف أسبوع، ولا تذكروا ذلك لأحد، ولا تتحدثوا عنه حديثاً خاصاً أو عاماً. ثم نجتمع بعد هذا الأسبوع في مثل هذه الليلة.

وقبل أن يمضي الأسبوع كان كل واحد قد دفع ما تعهد به. لدرجة أن الأسطى علي أبو العلا اضطر أن يبيع عجلته وأصبح يذهب إلى عمله الذي يبعد عن البلد ٦ كيلو مترات ماشياً.

وفي الليلة المحددة اجتمعوا فسلموا مؤسس الجماعة خمسين جنيهاً كاملة. وعلموا أنَّ للحاج علي عبد الكريم قطعة أرض يود بناءها مسجداً، فتحدثوا إليه في هذا الشأن، وسرَّ به وكتبوا معه عقداً بتنازله عن هذه القطعة. وما إن علم أعداء الجماعة، وهم من الكثرة بمكان، بأنَّ الحاج عبد الكريم قد تنازل عن الأرض حتى سارعوا إليه وضيقوا عليه الخناق، وتحدوه إن كان بإمكان أي قوة في الدنيا أن تنزع عقد التنازل من براثن مؤسس الجماعة، ساحر النفوس وناهب الأموال! وراحوا يصورون أفراد جماعته بأنهم إما دعاة إلى مذهب خامس، أو شباب طائش، أو مختلسون لأموال الناس.

وتأثر الرجل بأقوالهم، فذهب محرجاً إلى حسن البنا يطلب عقد التنازل، ويا لدهشة الرجل عندما سلّمه إياه، عن طيب خاطر، دون أن يحوجه إلى مزيد من الشرح والتبرير، فرجع وهو لا يكاد يصدق نفسه. وتعليقاً على هذه الحادثة كتب حسن البنا عبارة هامة تقول: (فقد كنت أحس إحساساً عميقاً بأن هذا المشروع سيتم بحول الله وقوته)!

وانتهز مؤسس الجماعة هذه الفرصة، فانتفع بتنبه الأذهان إلى هذا الأمر، وبث أفراد جماعته المؤثرين ليوضحوا للناس الأمر، ويزيلوا من أنفسهم ما علق بها من الشكوك،

ويجمعوا بعد ذلك، وهو الأهم، ما يجودون به من تبرعات، وكان الفارس المُجَلِّي[١٢] في هذه الحلبة الشيخ حامد عسكرية فقد سهر الليالي من العشاء إلى الفجر يدور على الناس في منازلهم وحوانيتهم ومجتمعاتهم حتى حرم نفسه السحور في رمضان.

وأخيراً تم شراء قطعة أرض أخرى، ومضت فترة الإجازة دون البدء في البناء، فأخذت الألسنة تعمل والكلام يكثر حول مشروع المسجد الذي نهب مؤسس الجماعة أمواله. فقرر حسن البنا أن يضع حداً لهذه الأقاويل فاشترى مركبين من الأحجار وتولى شباب الجماعة حملهما بأنفسهم من المرسى إلى أرض المسجد، فبَدَوْا كأنهم أسراب النمل، يتعاون اثنان أو ثلاثة على نقل الحجر الواحد. وانقلب الحديث من الكلام عن سرقة اموال المشروع إلى الحديث عن جدية المشروع، فتحركت الهمم، وبادر من لم يسدد دفعته بالدفع، وكان ذلك في ١٣ حزيران سنة ١٩٢٩.

أما وضع حجر الأساس للمسجد والمدرسة، فقد أجمع الإخوان على أن يكون مؤسس الجماعة هو واضعه، فأفهمهم أن ذلك لن يعود على المشروع بفائدة مادية أو أدبية، ومن الخير أن يختاروا شخصية يستفيدون منها، فأخذوا يستعرضون أسماء كبار الموظفين والأعيان، ولسبب نجهله اقترح حسن البنا اسم أحطِّ كبار الموظفين، فإذ بالشيخ عسكرية يقول تعليقاً على ذلك:

وما الذي يدعونا إلى اختياره، لا هو صالح تُرجى بركته، ولا هو غني تُرجى ثروته! وضج الجميع بالضحك. وهنا أعاد الإخوان السؤال كرة أخرى:

نظنك كنت تمزح! ما رأيك إذن؟

فقال: وأين أنتم من الشيخ الزملوط الذي وقف إلى جانبكم من أول الأمر وأفادكم بجاهه وماله وهو رجل صلاح واستقامة وثروة ترجى بركته وماله معاً، واستقر الأمر على ذلك.

---

[١٢] الفارس المُجَلِّي: هُوَ السَّابِقُ وَالمُبَرِّزُ

٢٤ - أموال من جهات مشبوهة

وقبل أن يتم بناء المسجد بقليل وقد أوشكت النقود على النفاد، تصادف أن مرَّ البارون «دي بنوا» مدير شركة القنال ومعه سكرتيره المسيو بلوم فرأى البناء، فسأل عنه، وأرسل أحدَ الموظفين إلى المدرسة يدعو حسن البنا لمقابلة البارون بمكتبه بالشركة فذهب إليه.

كانت إدارة الشركة تقع في فيلا فخمة تغطي فناءها النباتات المزهرة، وكانت بوابتها الحديدية مفتوحة على مصراعيها؛ وفي وسط الفناء بِركة مياه حولها تماثيل رخامية. اقتاده الحارس إلى مدير الشركة البارون «دي بنوا»، وهو رجل بدين طوله أكثر من المتوسط بقليل، له وجه طيب به خطوط غائرة، مرح الصوت، خفيف الشعر أشهب اللون، له شارب أشبه بفرشاة أسنان، وكانت عيناه قاسيتين يقظتين تضفيان عليه سمة الدهاء، بحيث شعر حسن البنا من النظرة الأولى أنه إزاء رجل لا يُحَب ولا يوثق به، مع أنَّ لهجته ودية وسلوكه لطيف!

تحدث البارون «دي بنوا» عن طريق مترجم بأنه رأى البناء وأنَّ الشركة قد اعتمدت مبلغ خمسمائة جنيه مصري للمشروع.

أظهر حسن البنا الاستغراب من هذا المبلغ الضئيل من شركة كبرى كهذه الشركة، وقرر رفضه، لكن خطر في ذهنه أنَّ التفاوض لزيادة المبلغ أو جني بعض المكاسب الأخرى ربما يكون أفضل من رفض المبلغ؛ فهو يرى أنَّ المفاوض الجيد لا بدَّ أن يحصل على أكبر تنازلات ممكنة في مقابل منح أقل التنازلات من قبله.

قال حسن البنا وهو يحاول أن يبدو واضحاً وصريحاً وودوداً حتى يكسب ثقة البارون:

إنَّ هذا المبلغ قليل جداً ولم يكن منتظراً من هذه الشركة الضخمة، لأنها في الوقت الذي تبني فيه على نفقتها كنيسة في الإسماعيلية تكلفها نصف مليون جنيه، تعطي المسجد خمسمائة فقط!

رأى البارون أنه من المسلِّي، وهو إزاء رجل ذكي، أن يلتحم ذكاؤه بذكائه في مناورة، فأظهر الاقتناع بوجهة النظر هذه، لكنه أبدى الأسف بأنَّ هذا هو القرار، ورجاه قبول المبلغ على أنه إذا استطاع أن يفعل بعد ذلك شيئاً فلن يتأخر.

استغرب حسن البنا من إلحاح البارون لقبول المبلغ، ورأى الفخ أمامه، وما عليه إلا أن يتردى فيه، مما جعله يرمق البارون على مهل، فلاحظ أنَّ عينيه الصغيرتين الخضـراوين فيهما مكر شديد لا يتفق مع الصراحة والمرح البادِيين في ملامح وجهه. فهما عينان سريعتان ثاقبتان لا توحيان بالثقة. أما وجهه الطيب الباسم العريض، وصوته المرح العميق فهما مجرد قناع يخفي وراءه هذا الدهاء.

قال حسن البنا وهو على يقين من عدم جدية البارون في كلامه:

إنَّ تسلم المبلغ ليس من اختصاصي، ولكنه من اختصاص أمين الصندوق الشيخ الزملوط الذي تبرع وحده بمثل ما تبرعت به الشركة وسأخبره بالحضور لتسلمه. وانتهت المقابلة. ونهض البارون «دي بنوا» فبسط يده مصافحاً، بذلك الملق الذي لا سبيل إلى وصفه، والذي لا يحْذِق استخدامه سوى الفرنسيين ليضعوا، حداً لأي نقاش، في بساطة، دون ما جفاء أو غلظة.

وحضر الشيخ الزملوط وتسلم المبلغ.

الله يعلم هل كان الشيخ الزملوط هو المذنب، أم أنَّ الأخبار السيئة تنتقل مع الهواء من تلقاء نفسها! فجأة، بدأ الحديث يدور في الاسماعيلية كلها، بصورة سطحية وغامضة ومثيرة، عن المبلغ الضخم الذي تلقته الجماعة وعن صداقة البارون مع حسن البنا. وثارت ثائرة أعداء الجماعة، وانطلقت الأقاويل تملأ الجو بأنَّ (الإخوان المسلمون)

يبنون المساجد بمال الخواجات، وبالطبع آزرت هذه الأقاويل فتاوي الشيوخ المتربصين بهذا المدرس وجماعته.

يكتب حسن البنا في مذكراته تعليقاً على ذلك: (وأراد الله أن يكون المسجد قد تم والحمد لله فلم توضع فيه أموال الخواجات، ووضعت في دار الإخوان المسلمين).

لا يزال إلى هذا اليوم، وبعد مرور كل هذه السنوات، تثار قضية قبول حسن البنا لهذا المبلغ من الشركة، ولا زالت تتخذ هذه القضية قرينة على تلقي جماعة الإخوان الأموال من جهات أجنبية، فهل هذا هو الفخ الذي نصبه البارون لحسن البنا ليتردى فيه؟ أم هل ظن حسن البنا أنَّه بإمكانه أن يجني من الشوك العنب؟ وهل هذه الحادثة ستجعل بعض أتباعه في المستقبل لا يرتعشون من فكرة تلقي بعض الأموال من البريطانيين أو الأمريكيين أو الفرنسيين أسوة بما فعله حسن البنا؟

٢٥ - شكاوى

ما إنْ شرع الإخوان ببناء المسجد وارتفع بناؤه حتى تأججت الدسائس وتلاحقت الشكاوى ضد حسن البنا، وهبَّ أعداء الجماعة من كل مكان للحيلولة دون إتمام هذا العمل، فكتبوا العرائض المحبوكة، بدهاء شديد، إلى رئيس الحكومة «صدقي باشا»[١٣]، وقد بلغت الاتهامات اثنتا عشرة تهمة منها: أنَّ هذا المدرس شيوعي متصل بموسكو ويستمد المال من هناك لأنه يبني مسجداً وداراً، ولا يجمع من الناس مالاً، فمن أين له هذا؟ ومنها: أنَّ هذا المدرس وفدي يعمل ضد النظام، زاعماً أن الانتخابات بهذه الصورة باطلة، وقد ألقى محاضرة في نادي العمال عن أبي بكر الصديق قال فيها: إنَّ انتخابه كان انتخاباً مباشراً ولم يكن من درجتين وأن الانتخاب من درجتين باطل لهذا السبب. ومنها: أنه يتفوه ضد جلالة الملك فؤاد، والي النعم، بألفاظ يستحي كاتب

[١٣] يقصد "صدقي باشا" أثناء توليه رئاسة الوزراء في عهد الملك فؤاد، عام ١٩٢٩، ولم يكن للشيخ البنا علاقة به آنذاك، وسوف يأتي الحديث عنه مفصلاً.

التقرير من ذكرها! وأنه ألقى محاضرة أخرى عن عمر بن عبد العزيز قال فيها: إنَّ عمر بن عبد العزيز لم يأخذ من بيت المال شيئاً أبداً، بينما ملوك هذا الزمان يأخذون أموال الرعية بالباطل. ومنها أن هذا المدرس يجمع من الأهلين أموالاً لا ندري أين يذهب بها!

وقد كتب حسن البنا تعليقاً على هذه العريضة يقول: (وما فهمتُ معنى قول الله تبارك وتعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} إلا من مثل هذه العريضة!

ربما يرجع السبب في كتابة هذا التعليق أن بعض الشكاوى قدمت من أشخاص مسيحيين، أو ربما لأنه فعلاً ألقى محاضرتين في الموضوع المشار إليه، وفي المكان المحدد فيها، لكنه- والحق يقال- لم يستنبط من موضوع أبي بكر وعمر بن عبد العزيز ذلك الاستنباط المُتَوعِّر الذي استنبطه كاتبو هذه العريضة.

وبعدما وصل خبر هذه العريضة إلى ناظر المدرسة جاء إلى الفصل يفتش في كراسات الإنشاء والمحفوظات والإملاء فوجد أول قطعة من الإملاء عن زيارة الملك فؤاد للقناة، وفيه ثناء عليه وتعداد لمآثره بطريقة بليغة مؤثرة تصلح لأن تكون خطبة تُلقى في حضرة الملك فؤاد، فابتهج الناظر ابتهاجاً عظيماً وأرفق هذه الكراسة إلى وكيل النيابة.

هل كان حسن البنا قد استبق الأحداث وأملى على تلاميذه هذا الموضوع لينتفع به في يوم كان يخاله آتٍ لا محالة؟ في الحقيقة أنا لا أستبعد هذا.

يقول أبو حنيفة: «إذا أتتك معضلة فاجعل جوابها منها». وهذا ما كان يبرع فيه هذا المدرس أيما براعة، فما كانت تمر بالجماعة محنة إلا ويستفيد منها ويحولها لصالح جماعته، ويَقْلب الطاولة على خصمه، ويداويه من الوجه الذي دخل عليه بها، ويجازيه في مقصده على نقيض مراده!

فمن الطرائف في حادثة العريضة هذه أنَّ وكيل النيابة كان متضايقاً أشد الضيق مما جاء في العريضة من أكاذيب، إذ دخل عليه أحد كُتَّاب شركة القناة من اللبنانيين المسيحيين، فسأله عن سبب ضيقه فأخبره الخبر فدهش الرجل وقال: هذا كلام فارغ! أنا رأيت الشيخ حسن في يوم مرور الملك فؤاد بالإسماعيلية يقول للعمال: لازم تذهبوا إلى الميناء وتحيوا الملك حتى يفهم الأجانب أننا نحترم ملكنا ونحبه، فيزيد احترامنا عندهم. وكتب شهادة بالفرنساوي أرفقت بالملف.

ومن الطرائف كذلك أنَّ أحد رجال البوليس كتب شهادة تقول: إنَّ كثيراً من الذين لم تنفع معهم وسائل التأديب البوليسية ولم تردعهم عن ارتكاب بعض الزلات قد أفلحت معهم المواعظ الروحية التي يلقيها مؤسس جماعة الإخوان، فصاروا مثالاً للاستقامة والصلاح، واقترح أن تعمل الحكومة على تعميم فروع هذه الجماعة في البلاد حتى يكون في ذلك أكبر خدمة للأمن والإصلاح!

أما العريضة التي قدمت بتوقيع «مسيحي» فجاء فيها: أنَّ هذا المدرس متعصب يرأس جمعية متعصبة اسمها الإخوان المسلمون، يفرق بين أبناء الديانتين في الفصل؛ فيتعمد إهانة التلاميذ المسيحيين وإهمالهم وعدم العناية بهم، ويخصّ الطلاب المسلمين بكل اهتمامه وأسئلته وتوجيهاته. وأن ذلك سيُحْدث فتنة كبرى إن لم تتداركها الوزارة بنقل هذا المدرس!

إلا أنَّ المسيحيين استنكروا هذه العريضة، وجاء وفد عظيم من أعيانهم وعلى رأسه راعي الكنيسة الأرثوذكسية إلى المدرسة معلناً استنكاره، وكتبوا تقريراً بختم الكنيسة وتوقيع راعي الكنيسة أرفقه الناظر في الملف.

وبعدما أُرسِل الملف الضخم إلى وزارة المعارف، تفاجئ مدير المدرسة بزيارة مراقب عام التعليم الابتدائي. ووقف يتأمل مليّاً هذا المدرس، ثم التفت إلى الناظر مبتسماً وقال: هو ده كله الأستاذ حسن؟! فابتسم الناظر وقال: أهوه ده يا بيه! فابتسم المدرس بدوره وقال بتواضعه المتقن الذي يأسر القلوب: يا بيه يضع سره في أضعف خلقه!

فقال المراقب: لقد أرعبتنا عريضتك هذه يا أستاذ، لدرجة أنَّ رئيس الحكومة حولها إلى وزير المعارف وهو حولها إليَّ، فقلت وما شأني أنا برجل شيوعي فوضوي يجمع الملايين ويتبعه الآلاف؟! فجاءني يقول: إذا كان شأن هذا المدرس هكذا فماذا نصنع معه؟ إنه شخص شديد الخطورة، وقد يكون وراءه ما وراءه. لكن لفت نظرنا ما فيها من تناقض فقلنا: أسلم الطرق تحويلها للناظر ليكتب تقريراً وافياً شافياً، لكني اشتقت لرؤية الرجل الذي أثار هذه الضجة؛ فجئت لأزورك زيارة شخصية فلا تعتبرها زيارة تفتيش أو رسميات.

وهنا لاحت للمدرس الفرصة التي ينتظرها ليستفيد منها ويحولها لصالح جماعته، ويَقْلب الطاولة على خصمه، فقال: جميل يا سيدي، ومن حقي عليك إتماماً للجميل أن تزور المسجد والمدرسة لترى بنفسك أثراً من أثار هذه الجماعة، فجاء آخر النهار، ونظم الإخوان حفل شاي واستعد خطباؤهم وزجَّالوهم بالكلمات، فلما حضر الرجل فوجئ بحشد من الأعيان وكبار الموظفين في استقباله، ولم ينس بالطبع دعوة المغرضين والمشتركين في العريضة ليروا بأنفسهم حبوط فتنتهم. فلما الْتأم الجمع وانتظم الحفل وتعاقب الخطباء، دُهِش الرجل حين علم أنَّ هذا الخطيب نجار والآخر جناينى والثالث مكوجي، فقال: هذه أعجب مدرسة رأيتها، إنها مدرسة عجيبة ورجل أعجب، ولم يتمالك نفسه بعد نهاية الخطب أن قام فتناول وساماً من أوسمة الإخوان فلبسه وأعلن انضمامه للجماعة قائلاً: «اعتبروني منذ اللحظة عضواً في الإخوان المسلمين إن قبلتموني معكم، وأعاهدكم أنني سأُوقِف كل جهدي ووقتي على خدمة هذه الدعوة!».

٢٦ - الشيخ الخِرْباوي

المال والجاه هما القارض الخَطِر الذي يبدأ ينخر عظام أي دعوة من الدعوات، وهما دائماً أساس الخصومة وأصل النزاع. لقد ظل الإخوان بالإسماعيلية أنموذجاً نقياً طاهراً

من الحب والامتزاج الروحي والصفاء الذي لا يكدره مكدر، يتنافسون في البذل والتضحية في سبيل الدعوة وصاحبها طائعين، برغبةٍ لا برهبة، وبإخلاصٍ لا بمداهنة، ومبايعين بيعة رضاً واختيار، وانقيادٍ وإيثار، حتى إذا فتحت المدارس وأقيمت المنشآت قفز الانتهازيون إلى الوظائف كما تقفز الطريدة الملاحَقة إلى النهر، فأصبح هناك عنصر غريب عن المجتمع الإخواني، ذلك المجتمع الممتزج الأرواح المتحد الغايات، وأصبح هؤلاء الموظفون الغرباء بأرواحهم وأفكارهم يتطلعون إلى المناصب، فشرعوا يمشون بالنميمة ويحيكون الدسائس والمؤامرات كي يلصقوا أنفسهم بقيادات الجماعة الأولى لا في منشآتها فقط.

لقد ترأس هذه الدسائس الشيخ «عباس الحرباوي»[١٤] شيخ أريب أديب، عالم فقيه، لبق ذلق اللسان، واضح البيان، وكان قد عُيِّن مدرساً بمعهد حراء الذي أنشأته جماعة الإخوان، وأسندت إليه رئاسة بعض اللجان، فتطلع أن يكون رئيساً للجماعة بالإسماعيلية، فقد شعر بحاسته الشيطانية النشطة أنَّ حسن البنا سينتقل عما قريب من هذا البلد إلى بلد آخر.

لقد أخذ الشيخ الحرباوي يسلك طريق الدس والوقيعة والتفريق، فصادق بعض أعضاء مجلس الإدارة وراح يزرع صداقته بينهم، ويحاول كسب ودَّهم وبذل قصارى جهده في خدمتهم، ويكثر من زيارتهم ويدعوهم إلى زيارته، ثم أوحى إليهم أنهم لا بد أن يختاروا شخصاً ينهض بأعباء الدعوة في الإسماعلية إذا ما انتقل حسن البنا إلى بلد آخر، فعرضوا الفكرة على مؤسس الجماعة فاختار الشيخ علي الجدّاوي، وكان حافظاً للقرآن ويعمل نجاراً فوافقوا عليه بالإجماع، واقترحوا أن يترك عمله ويعيَّن إماماً لمسجد الإخوان بمرتب معلوم.

رأى الشيخ الحرباوي بعينيه أنه قد حيل بينه وبين ما يشتهي من رئاسة الإخوان، فهو يرى نفسه الأكفأ والأعلم والأقدر لهذا المنصب من هذا «النجار»؟ وأين الشيخ

[١٤] لم يصرح حسن البنا باسم هذا الشيخ فاخترت له هذا الاسم من عندي.

الجداوي في علمه وموهبته من علم فضيلته وموهبته، إذ إنه يحمل شهادة العالمية، ويحسن قرض الشعر، ويجيد الخطابة والنثر. لكن الخطابة لم تكن فنه الأمثل، إنما كان فنه الأمثل الهمس في آذان الناس للتحريض على العمل الذي ينشده، وهو قادر دوماً على العثور على رجل يناسب غرضه يقدمه في الواجهة، في حين يتوارى وراءه في الظل.

لقد تلاشت مخاوفه الآن من طلب الامارة. إنّ الشيخ الحرباوي الذي أبكى الناس ببلاغته من ثلاث سنوات مهاجماً طلب الإمارة والتصدي للمناصب الزائلة، ها هو الآن قد نسي شعاراته. لقد نسي دروسه المؤثرة وهو يشرح قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [إنَّكم ستحرصون على الإمارة، وستكون خِزْيًا وندامةً]. لقد أصبح شعاره الآن: «الإمارة الإمارة»، وها هو يجاهد بكل طاقاته ليصبح رئيساً للجماعة. لقد قاد أول خطواته إلى هذه الحافة من كل الطرقات، وألقى عن كاهله مبادئه التي لطالما نادى بها، ونسي ماضيه بسرعة مذهلة.

إذن، لا بد من عمل محكم مرسوم، فاستعان بأصدقائه الذين أحكم صلته بهم، وشايعه أربعة منهم، وأخذ يفتلهم في الذروة والغارب[١٥]، ويوسوس لهم بالليل والنهار، ويشتكي بمرارة من بأنَّ الأستاذ قد ظلمه حقه وغمطه تضحياته؛ فهو الذي احتمل كثيراً، وأنفق كثيراً، وجاهد كثيراً، وأخلص للأستاذ أعظم الإخلاص، ووضع ماله وحياته ومستقبله وأهله فداءً له وللدعوة! وماذا كافأه الأستاذ بعد هذا كله؟

لقد كافأه بأن رشَّح من هو أقل منه إخلاصاً، وأضأل منه شأناً، وهذا ظلم مبين. ذلك فضلاً على أن اجتماع الجمعية العمومية لم يكن قانونياً، فقد جاء مفاجئاً ولم تصل الدعوة لكثير من الأعضاء الذين إن حضروا سيكون لهم رأي آخر، وهذا غمط لحق هؤلاء في التصويت. ثم كيف يتقاضى الشيخ الجداوي مكافأة على إمامة المسجد في حين أنَّ فضيلته مستعد للقيام بالإمامة متطوعاً لوجه الله.

---

[١٥] الغارِب: مُقَدَّم سَنام البعير، والذِّرْوَة: أعلاه. والأصل فيه أنَّ الرجُل إذا أراد أن يُؤَنِّسَ البَعِير الصَّعْبَ لِيَنْقَادَ لَهُ جعل يُمِرُّ يَدَه عليه ويمسح غارِبَه ويَفْتِل وَبَره حتى يَسْتَأْنِس ويَضَع فيه الزِّمام.

هكذا بمثل هذا القول المعسول راح ينعش أصدقاءه صائدي الحظ العاثرين، فيصغون إلى وسوسته، حتى امتلأت بها نفوسهم، وفشا في الإخوان هذا القول، وشعر الأستاذ بذلك، وعلم من أين هبت الريح، ولا يمكن لأحد أن يتنافس مع هذا الرجل الجَلِد الحساس الملاحِظ ذي الاستشعار الفذ الذي يكشف أقل التذبذبات في نفوس أتباعه.

لهذا فقد آثر أن يتحدث مع الشيخ الحرباوي الذي يحرك بيده حبائل المؤامرات بأكملها في سهولة ويسر، ثم هو يستل نفسه من الأمر كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين، فلم يكن يوجد دليل على أنه خائن، وكذلك لا يوجد دليل على إخلاصه أيضاً! فأراد الأستاذ المتجالِد أن يضع النقاط على الحروف، فجمعهم في بيته، وسألهم ماذا تريدون، وكان يعلم مسبقاً ماذا يريدون.

– نريد ألا تسند مهمة قيادة الجماعة إلى الشيخ الجداوي.

– جميل! لكن إخوانكم يريدونه، فإذا نفَّذتُ إرادتكم فقد خالفت إرادة إخوانكم.

– لا ، إنهم لم يكونوا جميعاً حاضرين، ولو حضروا جميعاً لكان لهم رأي آخر.

– وهل إذا جدَّدنا الدعوة للجميع مرة أخرى، تنزلون عند رأي الجماعة؟

– نعم.

– جميل! إذن فلنعاهد الله على هذا.

وعاهدوا الله على ذلك، ووجهت الدعوة للاجتماع.

في الواقع، لقد كانت هذه الحادثة مظهراً جديداً وغريباً على الإخوان الذين لم يعرفوا إلا الوحدة الكاملة والخضوع التام لحسن البنا. إنها بمثابة خروج الأبناء عن طوع أبيهم عندما يكبرون ويترعرعون ويستقلون عن سيطرته وسطوته.

لقد اجتمع الإخوان وظهرت النتيجة لصالح الشيخ الجداوي، وأوعز حسن البنا إليه- نكاية في الشيخ الحرباوي ورفاقه- أن يعلن أمام الجميع تنازله عن مرتبه وأنه سيعمل في المسجد متطوعاً، فحاز إعلان الشيخ الجداوي إعجاباً بالغاً وتصفيقاً حاراً، وعضَّ الشيخ الحرباوي على نواجذه غيظاً، وتلقى التوبيخ العلني وهو شاحب الوجه في برود، لكنه بات يكنُّ عزيمة داخلية بالانتقام رداً على هذه الإهانة.

في الحقيقة لم يكن الشيخ الحرباوي من السهولة بمكان حتى يرضى بالهزيمة ويسلّم بالخسران، فقد كان يشعل الفتنة وينفث سمومه في أصدقائه الأربعة وهو في منأى عن المشهد، في حين أنه كان لا يزال يعمل مدرساً في معهد حراء الإخواني. وقد أصبح هؤلاء الأربعة بمثابة أبواق يرددون ما ينفث فيهم من أفكار، فانطلقوا يشيعون بأن إسناد الأستاذ أمر الجماعة للشيخ الجداوي فيه خطورة على الدعوة، فالجماعة مدينة للتجار بثلاثمائة وخمسين جنيهاً، وإذا شعر التجار بهذا فإنهم سيطالبون بديونهم، ويتوقف الكثير منهم عن مساعدتنا، وتلوك الألسنة سمعتنا! أليس من الخير أن نختار نائباً من الأقوياء الأغنياء ليرد عن الدعوة هذا الشر، ألم يقل القرآن الكريم: (إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين)؟

وفشا هذا النبأ في الإخوان وتحدثوا به في مجالسهم، فبادر حسن البنا إلى استئصال هذه الحجة من جذورها، فدعا التجار، أصحاب الدَّين، وعرض عليهم تقسيط المبلغ بحيث يَدفع لهم كل شهر ثمانية جنيهات فقبلوا، وكتب كمبيالات على نفسه، ودعا جميع الإخوان ومنهم الشيخ الحرباوي ورفاقه وعرض عليهم الأمر فسقط في أيديهم، وأرادوا أن يتعللوا بالمعاذير فقالوا: ولمَ تحمِّل نفسك هذا العناء؟ وهل من المروءة أن ندعك تتحمله؟ ولنفرض أنك عجزت عن السداد فكيف يكون الحال؟

فقال حسن البنا: أما نفسي فدعوها وشأنها، وأما العجز عن السداد فقد وضعت الأقساط على طريقة تمكنني من السداد.

عند ذلك لم يسعهم أن يفعلوا شيئاً أو يقولوا شيئاً، وكل الذي استطاعوا عمله أن أحدهم- وقد كان أمينا للخزينة- اعتذر عن هذا المنصب وقام إلى الخزينة فأخرج الدرج وقلبه ظهراً لبطن وبطناً لظهر، وسلمه لهم وهو يقول: تفضلوا خربانة بإذن الله!

فقال حسن البنا بنبرة الصوت التي تستدر عطف أشد القلوب قسوة:

- لا يا أخي لكن عمرانة بفضل الله!

وما كاد أفراد الجماعة يسمعون نبأ هذا الذي حدث حتى تقاسموا المبلغ فيما بينهم، وتبرعوا بأكثر من أربعمائة جنيه سددت منها الكمبيالات جميعاً، وما بقي ضُمَّ إلى خزينة الجماعة.

لم يبق أمام الشيخ الحرباوي ورفاقه بعد ذلك من حيلة إلا أن يتقدم أمين الخزانة المستقيل ببلاغ إلى النيابة يقول فيه: إنَّ حسن أفندي البنا رئيس الإخوان المسلمين يبعثر أموال الجماعة ويبعث بها إلى القاهرة لأخيه، وإلى أبو صوير والسويس.. وبما أنَّ من حق النيابة العمومية أن تحمي أموال الناس وأعراضهم ودمائهم، فإنه يطلب أن تتدخل النيابة وتمنع إنفاق هذه الأموال على هذا الوجه!

استدعاه وكيل النيابة وكان رجلاً لبقاً دقيقاً، وأخذ يناقشه نقاشاً هادئاً فقال له:

- هل أنت عضو في مجلس إدارة هذه الجمعية؟

- كنت عضواً فاستقلت منها.

- هل يقر مجلس الإدارة إرسال هذه النقود إلى هذه الشُّعَب؟

- نعم.

- هل أنت عضو في الجمعية العمومية؟

– كنت عضواً في كل شيء ولكن الآن لا أحب أن أعرف هؤلاء الناس ولا أعتبر نفسي عضواً في أي عمل لهم.

– هل تظن أن الجمعية العمومية إذا عُرض عليها هذا التصرف تقره وتوافق حسن أفندي عليه؟

– يا سلام! لقد سحرهم ولو قال لهم سآخذ هذه الفلوس لنفسي لوافقوه على ذلك مسرورين، وهم يوافقونه على كل ما يعمل بدون تفكير.

– طيب إذا كان مجلس الإدارة يوافقه والجمعية العمومية توافقه، وأنت لست عضواً لا في هذا ولا في ذاك فما شأنك أنت؟ وما شأن النيابة في هذا الموضوع؟ هؤلاء أناس اجتمعوا ودفعوا نقوداً ووكَّلوا فرداً أو أفراداً في إنفاقها ووافقوه على طريقة الإنفاق، فبأي وجه تتدخل النيابة، وهم أحرار يفعلون في أموالهم ما يريدون.

دُهش أمين الخزانة المستقيل من هذا الحوار، وشعر بنفسه أمام عضو من الإخوان المسلمين وليس أمام وكيل النيابة، وقبل أن تزول دهشته سمع وكيل النيابة يختم حديثه بهذه النصيحة:

–يا فلان أنت مخطئ، ونصيحتي لك أن تعود إلى جماعتك وتعمل معهم إن شئت وتدع هذه الأفكار، وإذا لم يعجبك حالهم فاقعد في بيتك وانصرف لعملك ودع الناس يعملون!

لم يجد هؤلاء الخمسة من سبيل بعد ذلك إلا أن يلجئوا إلى طبع المنشورات والتقارير التي يقولون فيها: إنَّ حرية الرأي مفقودة في هذه الجماعة، وإنها تسير على غير نظام الشورى، والجمعية العمومية لا تخالف لحسن أفندي البنا أمراً وتطيعه طاعة عمياء، كما إنَّ حساب المسجد لم يعلن على الجمهور بعد ولم تُعرف موارده كم بلغت ولا كيف صرفت، ومن حق الرأي العام أن يحاسب القائمين على هذه الجماعة بما يفعلون.

وتم الطبع وأذيع التقرير على الناس ووزع في بور سعيد وأبو صوير والسويس. وكما تعودنا من حسن أفندي البنا لا بدَّ أن يَقْلب الطاولة على خصمه، ويداويه من الوجه

الذي دخل عليه به، ويجازيه في مقصده على نقيض مراده. فها هو ذا يكتب رداً على التقرير أسماه (كلمة الحق) وما كاد هذا الرد ينشر حتى تلقفه الناس، ولفَتَ أنظارهم إلى جماعة الإخوان، وأخذوا يهتمون بكل ما يتصل بالجماعة، فكان هذا الرد من أكبر العوامل على انتشار الجماعة وانضمام عناصر كثيرة من الناس إلى الإخوان.

كل هذا يجري والشيخ الحرباوي، عاشق الظلام، ما زال مدرساً بمدارس الإخوان، ويشرف من بعيد على إدارة هذه الثورة الناعمة ضد الإخوان، وهو من الحذر والاحتراس بالدرجة التي كان يتخلص فيها من كل ما يُنسب إليه، ويتجلى دائماً بقدرات تمثيلية لا نظير لها، فهو يتأمل ويخطط ويوسوس، ويمكنه إطباق السلاسل على الأعناق وتوريط الجميع ووضعهم في غياهب الخطر، بينما يحتفظ بنفسه بعيداً عن الأذى صعب المنال. كان حسن البنا، وهو الذي أتقن الكتمان وبرع في معرفة خبايا النفوس، يعلم هذا لكنه يريد ضبطه متلبساً، وقد بث العيون التي ترصده وتقتفي آثاره، فأصبح مثل الثعلب المطارَد، يهرع إلى بطون الأودية ورؤوس الجبال هرباً من الصياد، وأخيراً خرج الثعلب المطارَد من مخبئه بعد منتصف الليل، إذ إنَّ الليل مملكته، والدسائس مجاله الحقيقي، وفي غضون ثوان معدودة أُبْلِغ حسن البنا بأنَّ اجتماعاً سيعقد للمتآمرين في بيت أمين الخزينة المستقيل!

خرج حسن البنا متخفياً في منتصف الليل، واقترب من البيت الذي كان مضاءً ونوافذه مفتحة، وأصوات نقاش تصدر منه، فإذا بالشيخ الحرباوي جالس وهم حوله، يرسم لهم طرائق الكيد والخداع.

في الصباح جلس مع الشيخ الحرباوي كما كان يجلس عادة، وسأله عن أمور تخص الطلاب بمعهد حراء، وقد أخفى في الوقت نفسه معرفته بما حدث وراء قناع من الكياسة، خشية من أن يمنح هذه الحرباء البشرية فرصة للحذر والانفلات، فسأله في لطف أثناء الحديث عن ليلته أين قضاها؟ فأخذ الشيخ الحرباوي يقص دون أن يرف له

جفن قصة طويلة انتهت بأنه قضاها في منزله، ولم يكن قد أدرك بعد أنه وقع في فخ. وهنا طرح حسن البنا موضوع الفتنة القائمة، وما يتناقله الناس عن دوره فيها، فأخذ يتبرأ من كل ذلك وينفيه عن نفسه ويتظاهر بأنه أطهر من ماء الغمام ويسوق على ذلك الأدلة والبراهين، وحسن البنا يعجب كل العجب من قدرته على هذا السبك العجيب، وأخيراً حاول أن يقسم بالطلاق فلم يطق حسن البنا صبراً وهجم عليه وأمسك بفمه، وصرخ في وجهه: اتق الله احذر الحلف لا تقسم، ثم قال له: ألم تكن في ساعة كذا في مكان كذا وقلت كذا وكذا وأخذ يسرد عليه ما دار بينهم من حوار وكأنه كان مسجلاً بشريط سينمائي بل إنه أخذ يقلد أقوالهم كما قالوها تماماً!

هنا ظهرت البغتة على وجه الشيخ الحرباوي، ربما لأول مرة في حياته، وأصيب بالعجز المريع وأصبح فجأة أصم وأبكم، وحاول أن يجيب فتلعثم، فلم يسعه إلا الاعتراف وإظهار الندم والاستعطاف بنغمة خافتة، متباطئاً متأثراً، وقد طأطأ رأسه كما لو كانت مثقلة بالعار، لكن هيهات لصاحب النظرة الثاقبة، وهو يرى دموع التوبة الزائفة، أن يدعه يمضي في تمثيل هذا الدور حتى النهاية، فبادره بقوله: إنني لا أطيق بعد اليوم أن تكون معي في دعوة أو عمل، فاختر لنفسك إما أن تبقى في الإسماعيلية وعلي أن أدبر لك عملاً آخر خارج محيط الإخوان، وإما أن تعود إلى بلدك وأنا أحملك إليها وأتكفل براحتك حتى تصل إليها؟ فاختار الرحيل، وكتب استقالته وانقطعت أخباره.

لقد أظهر الشيخ الحرباوي لأول مرة في حياته صورة الانهيار العصبي الكامل، ولم يسبق أن قام حسن البنا، وبضربة واحدة، أن سحق خصماً ماكراً مثلما سحق هذا الرجل الذي كان الأكثر جرأة ودهاء من بين أتباعه، وقد استمتع بلعبته طويلاً إلى أن حملته اللعبة بعيداً جداً. لكن على الرغم من كل ما حدث سيكون لديه متسع من الوقت ليتعافى.

فها هو حسن البنا يشعر بالراحة والابتهاج بعد أن أطاح بالشيخ الحرباوي في أول هجوم، لكنّ الشيخ الحرباوي عاد وشنَّ هجوماً جديداً بعد أسابيع قلائل. إنَّ الشخص

الذي أقام إرادته ضد إرادة حسن البنا الفولاذية كل هذه السنوات لا يجب أن ينهار، بينما تتاح له فرصة للعب مرة أخرى، وسوف يتعافى وتغسله الأمواج من جديد.

لقد تفاجأ الإخوان بإعلان عن افتتاح مدرسة جديدة برئاسته وبإشراف أصدقائه الأربعة، وقد سخَّرها للطعن في مدارس الاخوان والتشهير بهم، فهو لم يذهب إلى بلده كما تعهد، إنما توارى إلى الظل حتى يسترد عافيته، متربصاً أن يطعن خصمه في ظهره، فهو لم يفقد الأمل في النيل من خصمه، فعمد إلى سهم مسموم من آخر السهام في كنانته؛ إذ فوجئ حسن البنا بإعلان من المحكمة أنَّ الشيخ الحرباوي يطلب مكافأته عن المدة التي قضاها في الإخوان، والتي أبى إلا أن يأخذها عن طريق المحكمة.

في الحقيقة ما مضى لم يكن كافياً لهزيمة هذا المثابر، ولا إجباره على الهروب، إنما يجب مطاردته حتى مخبئه الأخير، لسحقه إلى الأبد.

في المحكمة اجتمع جميع المتآمرين، وراحوا يتفحصون وجوه بعضهم البعض بفارغ الصبر، يتساءلون بقلق هل سينقضون على حسن البنا أم سينقض هو عليهم؟

بعد قليل حضر رجل الأقدار صاحب الطاقة الديناميكية بنفسه يحيط به الرفاق من بين يديه وخلفه، حاشداً كل ما لديه من الشهود والمستندات وقوة الحجة والبيان بعبقريَّته التي لا تقهر ولا تذل، وهو يرى رأي العين أنَّ الشيخ الحرباوي يحفر قبراً للشيخ الحرباوي!

افتتحت الجلسة وترافع الشهود وقدمت المستندات، وأخيراً حكم القاضي برفض الدعوى وإلزام الشيخ الحرباوي بالمصروفات! وبعد شهور دب الخلاف بين الشيخ الحرباوي وأصدقائه المتآمرين.

لماذا يجب عليه أن يجعل هؤلاء المتآمرين أكثر دراية مما هو مطلوب، وبالتالي يكشف لهم أوراقه؟ هل حدث أنَّ نظر رجل إلى امرأة، تزوجها بعدما خانت زوجها، بغير النظرة المستريبة إياها، متوقعاً أنها ستخونه يوماً ما كما خانت زوجها؟

لقد كان الشيخ الحرباوي يشجع المؤامرات فيما مضى ويطلق لها الحرية، فهي رذائل صغيرة حلوة، يستثمرها لصالحه. إذن، فليتآمر الجميع! طالما لا تتحرك المياه ضده. أما الآن فإنه يُحَذِّر المتآمرين من هذا اللعب، فقد أصبح لديه أسرار كل شخص في عقله، فهو يسيطر على أرواحهم، وينشر في نفوسهم القلق والشعور بالذنب، مما جعلهم يشعرون بأنهم تحت هيئة رقابية صارمة، فانكسرت شوكتهم وسكت نباحهم، فأصبحوا يلقون اللوم والاتهام على بعضهم البعض، لكنَّ الشيخ اللبق، كما هي العادة، كان قادراً على إنقاذ نفسه من خلال التنكر لمسؤوليته تجاههم، فأقفل مدرسته ورحل!

يعلق حسن البنا بعد روايته لقصة الشيخ الحرباوي تعليقاً محيراً يقول فيه: (وإني لأعتذر إليه فهو الآن من خيرة العلماء وأفضل الأصدقاء، وتلك أيام خلت وذكريات مضت!).

لم يعرف أحد إلى الآن بعد انقضاء كل هذه السنوات كيف أصبح هذا الثعلب، عاشق الدسائس والمؤامرات، باراً تقياً ورعاً من خيرة العلماء وأفضل الأصدقاء، وكيف خدع حسن البنا وكسب تعاطفه مرة أخرى وهو الذي لا يلدغ من جحر مرتين؟ حقاً إنَّ التاريخ يعشق المفاجآت الغريبة والمدهشة!

هل الرجل قد أصبح ذكياً حقاً وقد تعلم الدرس جيداً، أم هل الرجل قد تقدمت به السنون، فأصبح غاية طموحه نِشْدَان الطمأنينة والارتياح بكتابة المؤلفات النافعة ليخفف من حدة توتره الدائم. أم أنَّ البهجة بالدسائس والمؤامرات قد اختفت، والرغبة في السلطة قد تحطمت، وتخلى عن هذه الروح التي كان طوال سنوات مدفوعاً بها إلى الأمام؟ أم هل حسن البنا حاول كثيراً أن يحرر نفسه من الشيخ الحرباوي؛ فباءت محاولاته جميعاً بالفشل؟

على أي حال، ستبقى هذه الأسئلة أحد الألغاز التي حملها الشيخ البنا معه إلى قبره!

٢٧ - من الإسماعيلية إلى القاهرة

في عام ١٩٣٢ كان قد مضى على إنشاء دعوة الإخوان المسلمين أربعة أعوام، وخالج حسن البنا شعور قوي بأنَّ رسالته في الإسماعيلية قد انتهت، فيجب أن يتركها ويرحل. إذن، لقد استبدت به طبيعته المدفوعة بهذا النداء الغريزي «لقد مات فارحلْ» وها هو قد انتصب بين عينيه رحيله من الإسماعيلية إلى القاهرة فغلب عليه ليله ونهاره.

وفي أكتوبر ١٩٣٢، انتقل حسن البنا إلى القاهرة للعمل في مدرسة عباس، واجتمع مجلس إدارة الإخوان بالإسماعيلية للتداول في نقل مقر قيادة الإخوان إلى القاهرة وتقرر اعتبار القاهرة «المركز العام للإخوان المسلمين»، وفعلاً تم ذلك. وهناك في القاهرة حدثت بعض الأمور المزعجة؛ إذ كتب أحد الخارجين عن الجماعة خطاباً من ست ورقات بتوقيعه إلى ناظر المدرسة، يسرد شرور هذا المدرس وخطورته وتعصبه.

هناك شهود صرحوا بما هو مختلف؛ إذ قالوا إنّ الشيخ الحرباوي هو من أملى هذا الخطاب وصاغ كلماته، ثم دفعه إلى هذا الرجل فوضع عليه توقيعه وسلمه إلى ناظر المدرسة بنفسه.

قيل أيضاً إنَّ حسن البنا توجه سراً إلى الإسماعيلية وأبلغ أنصاره، بهذا الخطاب، وأوعز إلى بعضهم بالتربص بالرجل فأشبعوه ضرباً بالعصي والأيدي حتى عجز عن السير والقيام. وتقدم الرجل ببلاغ للنيابة متهماً حسن البنا بالتحريض على ضربه. وتحددت جلسة تبعتها جلسات، وفي النهاية استل نفسه من التهمة كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين، وانتهت القضية بالبراءة في الابتداء والاستئناف.

إلا أنَّ حسن البنا ينفي هذه التهمة عن نفسه بقوله: (إنَّ وفداً من الأهلين من الإسماعلية توجه إلى مدرسة عباس في القاهرة فأطلعهم الناظر على الخطاب، فتألموا لذلك ونقلوا الخبر إلى البلد، فتربص بالرجل بعض المتحمسين من الأهلين..).

ما من شك على الإطلاق في أنَّ حسن البنا كان مفعماً بالأسى من هذا الخطاب المتقن السبك، وقد أخبر أنصاره فأثار حفيظتهم عن قصد، لكن بدون أن يأمرهم بشكل مباشر بالاعتداء على الرجل، إنما أوكل إليهم طريقة تأديبه بالطريقة الملائمة، مما جعل بعض الشباب المتحمسين، تطيباً لخاطره وإرضاء له، أن يتربصوا بالرجل ويعتدوا عليه.

لكن أياً ما كان الأمر، فهذا أول حادث عنف يسجل في تاريخ الجماعة وسوف يتلوه بعد ذلك حوادث كثيرة، لكنَّ وجود حسن البنا على رأس الجماعة كان عاملاً مهماً في إخماد هذه الحوادث ونزع فتيلها، بل وتحويلها لصالح جماعته بطريقته العبقرية الفذة.

وفي القاهرة واجه حسن البنا ظروفاً تختلف عن الإسماعيلية كثيراً؛ فقد انتقل من مرحلة نشر الدعوة في المدن والقرى إلى مرحلة صارت فيها الدعوة تسبقه إلى المدن والقرى، وتضطره إلى ملاحقتها وأداء حقوقها وفق مبدأ "حيثما تصل يدك يجب أن تعلق سلّتك".

لكنَّ الحقيقة المؤسفة أنَّ حسن البنا في القاهرة لم يتسن له تربية أتباعه مثلما فعل في الإسماعيلية. ففي القاهرة كثرت أعباؤه وزادت مشاغله، وواصل الليل بالنهار في حركة دائبة ونشاط محموم. ويكتب حسن البنا في مذكراته يشكو هذا التحول الجديد لدى الكثير من أتباعه قائلاً: (إنني أتمنى أن يكون إلى جانبي رجال يفهمون ويديرون؛ فأُسْلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم وأطمئن إلى مقدرتهم، ولكن أين هم؟ إنَّ الكثيرين لا يفهمون من مجلس الإدارة إلا كلمة العضوية، فهم يتنافسون على حيازتها، وتقع بينهم العداوة والبغضاء. اللهم إني أشكو إليك ضعف الأمين وخباثة القوي).

في هذه الفترة كانت نظرية حسن البنا للتغيير تنضج رويداً رويداً، وهي تتلخص في أنَّ دعامة النهضة يجب أن تكون بالتربية؛ فتُربى الأمة أولاً لتفهم حقوقها، وتتعلم الوسائل التي تنال بها هذه الحقوق، وتدرس منهاج نهضتها درساً نظرياً وعملياً وروحياً حتى يتربى الزعيم الذي يقود هذه النهضة.

فالمنهج لهذه النهضة يجب أن يكون منهجاً عملياً ملموس النتائج، ويجب أن تكون مواده قليلة. أما الزعامة فيجب أن تُختار وتُنتقَد حتى إذا وصلت إلى درجة الثقة أطيعت وأُوزِرَت، ويجب أن يكون الزعيم زعيماً تربى لهذا الغرض، لا زعيماً خلقته الضرورة وزعَّمته الحوادث، أو زعيماً حيث لا زعيم.

من أجل هذا، يجب أن تُعتبر البلاد- التي تود النهضة- مدرسة طلبتها كلُّ المواطنين، وأساتذتها الزعماء، وعلومها الحقوق والواجبات.

أما رأي حسن البنا في الزعماء الذين سبقوه، فهو يرى "مصطفى كامل زعيماً كان يريد إعداد الأمة لكفاح طويل تتحرر فيه نفوسها وأخلاقها فلا تلين لها قناة، وتَعْلم مكان الخداع والكيد فلا تقع في مهواة الردى، ويرى أن جاويش[١٦] هو الذي وضع مشروع المدارس التهذيبية الليلية للعمال وطبقات الشعب، ويرى أنَّ عبد الرحمن الرافعي قد استقل بالتأليف في حقوق الأمة، ويرى أن الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ساروا بالناس دينياً وخلقياً إلى ناحية مثمرة، ناحية تصحيح العقائد وتقويم الأفكار، فكانت سلسلة منظمة متصلة الحلقات تتلاقى أطرافها عند ميدان واحد. ولو سارت الأمة في طريقها هذا ولم تنحرف عنه لوصلت إلى بغيتها، أو على الأقل لتقدمت ولم تتقهقر وكسبت ولم تخسر.

بيْد أنَّ الزعماء، الذين خلقتهم الظروف وزعَّمتهم الحوادث، أرادوا أن يستعجلوا النتائج قبل الوسائل، وخدعتهم جهالتُهم بقيادة الشعوب ومكائد السياسة، فظنوا السراب ماء وجروا وراءه حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً بعد إنفاق الجهد وتضحية الوقت وفناء الزاد، فاضطروا إلى الرجوع من حيث بدأوا، وتقهقروا وما تقدموا، وخسروا وما ربحوا".

---

[١٦] عبد العزيز جاويش، أحد رواد الإصلاح والعمل الوطني وأحد مناصري الخلافة العثمانية، ولد في الإسكندرية عام ١٨٧٦م، وتعلم في الأزهر، وتخرج في دار العلوم، واستكمل تعليمه في بريطانيا، وعمل أستاذاً في جامعة أكسفورد، وهاجر إلى تركيا، وعاد إلى القاهرة وعمل في التعليم بعد أن سقطت الدولة العثمانية، وتوفي في سنة ١٩٢٩.

باختصار: لقد استفاد حسن البنا من تجارب هؤلاء جميعاً، وتفادى ما وقعوا فيه من أخطاء، فجمع بين وسيلتين متعارضتين جرى على إحداهما الأفغاني وارتضى الأخرى محمد عبده. كان الأفغاني يرى الإصلاح عن طريق الحكم، وكان محمد عبده يراه عن طريق التربية، وقد استطاع حسن البنا أن يدمج الوسيلتين، ووصل إلى ما لم يصلا إليه، وجمع صفوة المثقفين من شتى الطبقات والثقافات إلى مذهب واحد وهدف موحد.

٢٨ - الرحلات والمراسلات

في الأعوام التي تقع ما بين ١٩٣٣-١٩٣٩ تركز نشاط حسن البنا على الرحلات والمراسلات، ففي الصيف كنتَ تراه يجوب المدن والأقاليم المصرية في رحلات شاقة إلى كافة تلك الأقاليم. كانت تلك الرحلات تبدأ في الصيف حيث تكون البلاد، وخصوصاً الوجه القِبْلي، في وَقْدة الصيف وكأنها في حالة غليان، حيث كان يتنقل بالقطار والقارب والسيارة والدابة وعلى الأقدام.

هناك كنت تراه في غاية القوة واعتدال المزاج، لا الشمس اللافحة تؤثر فيه، ولا متاعب الرحلة تعوق نشاطه، تراه منطلقاً كالسهم، منتصباً كالرمح، يتحدث ويستمع إلى من حوله. خمسة عشر عاماً من الرحلات الشاقة المتواصلة، زار خلالها أكثر من ألفي قرية؛ كل قرية كان يزورها بضع مرات، وقلَّ أن تكون قرية في مصر لا يعرف شبابَها وأعيانَها ووزراءها ورجال الأحزاب والدين والتصوف فيها، كان يبدو بسيطاً غاية البساطة، يجلس على المصاطب، وينام في الأكواخ، وعلى حصير المساجد، ملتفّاً بعباءته، واضعاً حقيبته تحت رأسه، يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام، ولا يحرص إلا على شيء واحد وهو ألا يفهم الناس بأنه شيخ طريقة، أو من الطامعين في منفعة عاجلة.

حاول بعضهم أن يضمه إليه أو يطويه تحت جناحه، فكان أصلب عوداً من أن يُخدع أو يُطوى. لقد أفلت من غوائل المرأة والمال والجاه، تلك الغوائل التي تكون للعظماء في أوج عظمتهم بالمرصاد. كان على بساطته التي تظهر للعين، بعيد الغور إلى الدرجة التي

لا يفلت فيها المتحدث إليه من الوقوع في شَرَكه. فيه من الساسة دهاؤهم، ومن القادة قوتهم، ومن الخطباء لباقتهم. يعرف لغات الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفيين، ويعرف لهجات الأقاليم وتقاليدها، بل ويعرف لهجات الجزّارين، والفُتوّات، وقاطعي الطريق، والقتلة، واللصوص.

فإذا حلَّ الشتاء ترى نشاطه يتركز على المحاضرات والدروس والكتابة في مجلة (الإخوان المسلمون) ومجلة النذير، وإصدار عدد من الرسائل والنشرات، وإنشاء الشُّعَب في القاهرة وخارجها، وتنظيم التشكيلات الكشفية والرياضية، والدعوة في المدارس والجامعات، وإقامة المؤتمرات الدورية في القاهرة والأقاليم، والمساهمة في إحياء الاحتفالات الإسلامية، والمساهمة في مناصرة القضايا الإسلامية وبخاصة قضية فلسطين. هكذا في كل وادٍ أصبح أثرٌ من ثعلبة!.

إلا أنَّ أخطر نشاطات "ثعلبة" التي أثارت حفيظة الوزراء والمسؤولين، كانت مهاجمة الحكومات المقصرة إسلامياً، ومهاجمة الحزبية والدعوة إلى المنهاج الإسلامي.

بدأ حسن البنا يكتب الرسائل إلى الزعماء والوزراء وكبار الساسة والعلماء، فكتب إلى الملك فاروق بعد اعتلائه العرش سنة ١٩٣٧رسالة من خمس صفحات، راجياً- على ما يبدو- أن يضمه إلى الإخوان المسلمين، فيعلن الملكُ أنَّ جماعة الإخوان المسلمين هي حزب الدولة الحاكم، وقد جاء فيها:

(بالنيابة عن مئات الألوف من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين بمصر أرفع إلى جلالتكم هذا الرجاء؛ لا يدفعني إلى ذلك إلا حب الخير الذي تحرصون عليه لأمتكم. إنَّ الحزبية السياسية التي تفشت بين الناس قد فرّقت الكلمة، ومزقت الوحدة، وأضعفت القوة، وذهبت بمعنى التعاون على الخير في شعب أشد ما يحتاج إلى التضافر والاتحاد؛ فأفسدت الحزبيةُ السياسية كل الأعمال، وعبثتْ بالضمائر والأخلاق، وباعدت بين أبناء الأسرة الواحدة والبيت الواحد، وغرست البغضاءَ والحزازاتِ في نفوس الأخوة والأقارب، فضلاً عن الأجانب والأباعد، وجاوزت المدن إلى القرى

والكفور والنجوع، وأصبح كلُّ فريق يتربص بالآخر الدوائر ويكيد له المكائد. إنَّ الأحزاب السياسية القائمة في مصر أوجدتها ظروف وحوادث وغايات قد انتهت كلها ولم يبق منها شيء؛ فلا معنى لبقاء هذه الأحزاب بهذه الصورة الشكلية الجوفاء، واشتغالها بالتناحر والتهاتر. لذا، يلتمس الإخوان منكم جمع كلمة الزعماء بتأليف هيئة قومية واحدة من جميعهم، ومعهم كل أهل الكفايات والمواهب، لتضعَ برنامجاً للإصلاح والنهضة في كل النواحي على أساس من الإسلام القوي العزيز، مع تنازل كل حزب عن اسمه الخاص، واندماج الجميع في تلك الهيئة الواحدة).

وتوجه إلى الشيخ المراغي[١٧] شيخ الأزهر برسالة من ثماني ورقات، يبين فيها بأنه–أي حسن البنا– هو الذي عنده المفتاح الذي يستطيع في يسر أن يحلَّ به الخلاف بين جميع طوائف الإسلام ويجمعهم على كلمة واحدة، لذلك قدَّم رسالته وهو يتدفق حماسة؛ فهي الدواء الشافي لجميع الأدواء، وهي العلاج الفكري الذي لا بدَّ مبرئ أمراض العصر كلها. ولست أدري إن كان شيخ ألأزهر والعلماء نظروا إلى الرسالة باحترام، أم ضحكوا منها وألقوا بها بعيداً! وهذا ملخص ما جاء فيها:

(إلى فضيلة الإمام الأكبر وهيئة كبار العلماء الموقرة، وإلى رجال الجماعات الإسلامية والفكر الإسلامي: فكّرتُ طويلاً في هذا الخلاف العلمي بين الجماعات الإسلامية في مصر أولاً ثم في بلدان العالم الإسلامي ثانياً، وتلمّست طويلاً السبيل إلى جمع القلوب حول هدف أسمى؛ تلتقي عنده الأرواح المؤمنة، وتتجه إليه الجهود العاملة، وتقوم على أساسه النهضة المنتظرة، وتتلخص فيما يلي:

[١٧] الشيخ محمد مصطفى المراغي شغل منصب شيخ الأزهر من عام ١٩٣٥– ١٩٤٥، كان على قدر كبير من العلم والثقافة، تأثر بمنهج الشيخ محمد عبده في التوحيد وما يراه من تنقية للعقائد الإسلامية من ترف المتكلمين القدامى. وقد صار أحد أهم أعلام مصر والعالم الإسلامي وأحد أهم من شكلوا قوانينها ومسارها التشريعي والفقهي والوطني.

أولاً: القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثِقات.

ثانياً: يُعمل برأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوهاً عدة، وفي المصالح المرسلة ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير الحكم بتغير الظروف.

ثالثاً: كلُّ أحدٍ يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم. وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم، موافقاً للكتاب والسنة قبلناه؛ وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتّباع، ولا نعرض للأشخاص، فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح، وكل مسألة لا يبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نُهينا عنه شرعاً: كالخوض في معاني الآيات القرآنية التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته.

رابعاً: كلُّ بدعةٍ في دين الله لا أصل لها- استحسنها الناس بأهوائهم- ضلالةٌ تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل حتى لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

خامساً: معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل أو تعطيل، وندع علم حقائقها لله تعالى، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

سادساً: محبة الصالحين والأولياء واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في القرآن : (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)؛ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها، مع اعتقادنا بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم وبعد مماتهم. وزيارة القبور مشروعة بالكيفية المأثورة، لكن الاستعانة بمن فيها أياً كانوا، ونداءهم وطلب قضاء الحاجات منهم والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها، والحلف بهم- كبائر تجب محاربتها.

والتمائم والرقى والودع والرمل والعرافة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته؛ إلا ما كان من آية أو رقية مأثورة.

سابعاً: لا نكفر مسلماً برأي أو معصية إن أقر بالشهادتين وأدّى الفرائض، إلا إذا أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذَّبَ صريح القرآن، أو فسره على وجه يصدم قواعد الإسلام، ولا تحتمله أساليب اللغة العربية، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً إلا الكفر.

وكتب إلى (مصطفى النحاس باشا) بمناسبة توليه رئاسة الوزراء رسالة من عشر صفحات جاء فيها:

«أتقدم إلى رفعتكم بهذه الكلمات راجياً أن تتفضل بإنعام النظر فيها والحكم عليها بدافع من وحي ضميرك وحده، بعيداً عن كل المؤثرات، وعن تزييف أهل الأهواء والأغراض مهما كانت صلتهم بكم، فإنَّ العاطفة التي أوحت بها، والروح التي سكبتها على هذا الخطاب لأطهر وأتقى من أن يبتغي بها غير وجه الله وحده وخير هذا البلد وهو في الوقت نفسه لا يضمر لكم، ولا لأحد من العاملين لهذا الوطن إلا التمنيات الطيبة والخير العميم، وسأكون صريحاً واضحاً في كل ما أكتب، ولئن كان في الصراحة قسوة وشدة، فإنَّ فيها مع ذلك راحة وشفاء، وبياناً واهتداءً، فمعذرة إذا ورد في كلامي بعض الحقائق المؤلمة؛ فإنَّ الحق المر خير من الباطل الشَهِيّ، الذي يكشف بعد حين عن سمٍّ زعاف..).

وعندما شُكِّلت وزارة (محمد محمود) وقد كان معجباً بهتلر وموسوليني خاصة وبالحضارة الغربية عامة، توجه إليه حسن البنا برسالة من إحدى عشرة ورقة جاء فيها:

(إنَّ مظاهر الفساد في حياة الشعب المصري أوضح من أن يتناولها بيان. فلا تظنوا أنَّ الشعب المصري ضعيف إذا وجد القائد، وأقسم لكم إنْ سرتم به في طريق الفضيلة والإسلام الصحيح؛ لوجدتم منه شعباً هو أبسل الشعوب، فأعلنوها كلمة باسم القرآن، وارفعوها راية ترفرف عليها روح الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنا زعيم لكم، وأراهن عليها بدمي أنكم سترون من هؤلاء الفلاحين المندثرين في خفايا القرى وزوايا الحقول جنداً لله ورسوله يصغر أمامه جند هتلر، ويَضعف معه جيش موسوليني، وتحتمي به قوات بريطانيا).

وجاءه الرد من الوزير محمد محمود يقول فيه:

(أرى أن تجعلوا لبَّ دعوتكم المعنى الوطني المصري الخالص، فإنكم بذلك تستطيعون أن تظفروا بهدف محدد، وتستطيعون أن تتقوا كثيراً من الشبهات والظنون، وأن تسايروا الفكرة العالمية، التي ترحب بالجهاد الوطني وتنفر من كل نزعة دينية، وبذلك تزول من طريقكم عقبات كثيرة، وأنتم تعلمون أنَّ أوروبة وأمريكة والدول المتمدنة تنفر كلَّ النفور من هذه الدعوات، وأنَّ المعاهدات المعقودة بيننا وبين هذه الدول- وآخرها معاهدة (مونترو) مثلاً ـ تأبى علينا أن نسير في هذا الطريق. لهذا، أُحِبُّ أن تعدلوا عن نسبة فكرتكم إلى الإسلام، وتجعلوها فكرةً قومية وطنية، فإنَّ الجهود الجبارة التي يبذلها شباب الإخوان حرام أن تضيع من غير طائل، وأن تتحطم على صخرة هذه العقبات، ثم إنكم إذا أردتم مع هذا أن تتخذوا الدعوة الدينية ستاراً تجمعون به دهماء الناس وعوامهم على فكرتكم وتقودونهم من هذا الزمام، على اعتباره أقرب الوسائل إلى قلوبهم، فإنَّ لكم ذلك، وهي حكمةٌ في الدعوة أقرُّكم عليها ولا أخالفكم فيها).

ولم يتأخر ردُّ الشيخ البنا على هذه الرسالة فكتب على صفحات مجلة النذير يقول:

(إننا نرحب بكل من يتقدم إلينا بنصح أو توجيه، ولا نعتقد في أنفسنا الكمال بل نفترض فيها الخطأ والنقص على ثقتنا- والحمد لله- بتوفيق الله إيانا. ونحن نرحب بكل من يتقدم إلينا بفكرة أو رأي أو نصيحة، ونحن لهذا نشكرك أيها الزعيم ولكن لنا رأينا في نظرتك وفكرتك بأن نتخذ من الفكرة الدينية ستاراً نجمع به دهماء الناس ونقودهم بزمامه؛ فإننا بهذا نريد بهم سبيلاً غير سبيل الدين القويم، أو صراطاً غير صراطه المستقيم، فهذا ما لا يدور لنا بخلد، ولا يخطر لنا ببال، وهو الخديعة كلُّ الخديعة والنفاق والخبال، وما كان لفكرة حق ولا لنهضة شعب أن تقوم على المخادعة والختل والتزييف والمكر. وأسوأ قادة الأمة أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويُظْهِرون ما لا يُبطنون، والله أعلم بما يوعون، فبشرهم بعذاب أليم).

٢٩ - المؤتمر الخامس

في الثاني من فبراير عام ١٩٣٩، ومن شقة في إحدى البنايات تحمل لافتة مكتوباً عليها "شعبة الإخوان المسلمين" انطلق صوت الأذان. وبعد قليل تجمع الناس وانتظموا في صفوف كأنها طوابير الجيش. كانوا يرتدون ملابس عادية، ثم بدأوا يسيرون في خطوات منتظمة يتقدمهم قائد، وانطلقت الهتافات يدوّي بها قائد الطابور، ويرد عليه الباقون في صوت كالرعد:

الله غايتنا.. الرسول زعيمنا.. القرآن دستورنا.. الموت في سبيل الله أسمى أمانينا..

في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء .. فليعدْ للدين مجده، ولتُرَقْ فيه الدماء

سارت الجموع تخترق شوارع القاهرة، إلى أن وصلت إلى سرادق ضخم، فأخذوا أماكنهم على الكراسي، واستمر تدفق الناس وهم يرددون نفس الهتاف، ثم دوّى صوت الطبل من بعيد في إيقاع عسكري مهيب، وكان الطابور يتقدمه الشيخ حسن البنا

بعباءته البيضاء، وأخذ يسير على الإيقاع في مشية عسكرية رغم ثيابه التي يرتديها، ومن خلفه شاب يحمل عَلَماً أخضر كُتب عليه (الإخوان المسلمون)، ورُسم عليه سيفان بينهما مصحف، وبين السيفين كتبت كلمة "وأعدّوا".

كان يسير، خلف الشيخ البنا، خمسة شباب متجاورين، يضربون الطبل، ومن خلفهم طابور الجوالة الكبير بالملابس الكاكي والمشية العسكرية المنضبطة. وعند ظهور حسن البنا جاوزت الزغاريد عَنان السماء في ترجيع مهيب، وامتلأ المكان بالضيوف.

وفي الصفوف الأولى جلس رجال بارزون، علماء وسياسيون ونواب برلمان ووزراء. وبعدما تُلِي القرآن الكريم قام الشيخ حسن البنا يتكلم، وانطلق يجلجل ويجلجل، وما زال صوته المؤثر، ذو البحة اللطيفة، يعلو ويعلو، تتخلله بين الحين والآخر هتافات: (الله اكبر ولله الحمد، عليها نحيا وعليها نموت). ثم ألقى كلمة فاصلة وضع فيها النقاط على الحروف فقال:

(إنَّ الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يعتبر الحكم ركناً من أركانه. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع؛ فالإسلام حكم وتنفيذ كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك أحدهما عن الآخر. وعلى هذا، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفِّرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف. والإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا فالحكم منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله).

لقد كان هذا المؤتمر مرحلة فاصلة في تاريخ الإخوان، ولقد أحدث دويّاً هائلاً في شتى الأوساط، مما جعل الكاتب «إحسان عبد القدوس» يكتب مقالاً طويلاً في مجلة روز اليوسف تحت عنوان ضخم: (الرجل الذي يتبعه نصف مليون) جاء فيه:

(اركبْ أيَّ سيارة أجرة وقل للسائق: الإخوان المسلمين يا أُسطى ولا تزد، ولن يلتفت إليك السائق ليسألك ماذا تقصد بالإخوان المسلمين، ولا أين تقع هذه الدار التي يطلق عليها هذا الاسم، بل سيقودك إلى هناك دون سؤال، بعد أن يرحب بك بابتسامة لم تتعوّد أن تراها على وجوه سائقي سيارات الأجرة، وقد يرفض أن يتناول منك أجراً، ولا شك أنه سيحَمِّلك سلامه إلى فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا. وسوف تمر في طريقك داخل الدار بشباب امتلأت بهم حجرات الدار، ترى على وجوههم نور التقوى والإيمان، وفي عيونهم حماسة الجهاد، وبين شفاههم ابتسامة تدعو إلى المحبة والإخاء، وفي يد كل منهم سبحة انحنى عليها بروحه يذكر اسم الله.

وهم مع كل ذلك شباب (مودرن) لا تحس فيهم الجمود الذي امتاز به رجال الدين وأتباعهم، ولا تسمع في أحاديثهم التعاويذ الجوفاء التي اعتدنا أن نسخر منها، بل إنهم واقعيون يحدِّثونك حديث الحياة لا حديث الموت، قلوبهم في السماء، وأقدامهم على الأرض، يسعون بين مناكبها ويناقشون مشاكلها، ويحسّون بأفراحها وأحزانها، وقد تسمع فيهم من (ينكِّت)، ومن يحدثك في الاقتصاد والقانون والهندسة والطب. إنهم ذخيرة ستنطلق عند الشرارة الأولى فاحذروا!.

وهناك يستقبلك الأستاذ البنا بابتسامة واسعة، وآية من آيات القرآن الكريم، يعقبها بيتان من الشعر يختمهما بضحكة كلُّها بِشْر وحياء. والرجل ليس فيه شيء غير عادي، ولو قابلتَه في الطريق لما استرعى نظرك اللهم إلا بنحافة جسمه ولحيته السوداء، التي تتلاءم كثيراً مع زيّه الإفرنجي وطربوشه الأحمر الغامق، ولن تملك نفسك من التساؤل كيف استطاع هذا الرجل أن يجمع حوله كل هؤلاء الإخوان؟ وكيف استطاع أن ينظمهم هذا التنظيم؛ بحيث إذا عطس فضيلته في القاهرة، صاح رئيس شعبة الإخوان في أسوان: «يرحمكم الله»!

ونشرت مجلة آخِر ساعة حديثاً مستفيضاً تحت عنوان: (هبِّي يا رياح الجنة على رهبان الليل وفرسان النهار) جاء فيه:

(رأيتُ الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين مرتين، رأيته صامتاً ورأيته يتكلم، كان وجهه على الحالين مشوباً بمسحة وقار لطيف، حادّ الملامح واضح التعابير، عيناه هادئتان بسيطتان، في بساطتهما لمحةٌ من (عيون المقطم) تحسبها قليلة الغور، فإذا ألقيتَ فيها حجراً، ظلّ يتدحرج، ويتدحرج، وتتعاقب الثواني على صوته وهو يتدحرج، ويَفنى الصوت وهو ما زال يتدحرج إلى غير قرار. فمن هو حسن البنا؟

هو مدرس خط، ومع ذلك فإنَّ خطّه بشهادته نفسه ليس جميلاً بل ولا مقروءاً، وزعيم لمليون من المصريين، ولكنه بشهادته هو أيضاً ليس زعيماً وإنما هو مدرّس فقط؛ ولعلّ هذا هو مصدر لقبه الرسمي: (المرشد العام). إنه ذلك الرجل الملتحي ذو العينين البراقتين والصوت الحازم القوي المكين، وليس هناك بعد ذلك إلا مليون رجل على استعداد لبذل آخر قطرة من دمائهم عندما يأمرهم بذلك. وهذا هو كل شيء.

لم نستطع أن نكمل الحديث، لأن خمسة آلاف من أنصاره جاؤوا يتلقون تعليماته. فخرج إليهم وخاطبهم بقوله: «الآن يا شباب انصرفوا إلى أعمالكم وسوف تصلكم تعليماتي بالطريقة المعتادة».

وفي دقيقة واحدة ينصرف الخمسة آلاف، ويعود إلينا الأستاذ البنا ليتخذ مجلسه بيننا كأن لم يحدث شيء. وكأنه لم يكن منذ لحظة يلعب بعواطف خمسة آلاف، من رهبان الليل وفرسان النهار. وتحدث إلينا الأستاذ البنا بعد عودته فقال :

في مصر ألف وخمسمئة شعبة تضمّ مليوناً من الإخوان، ولنا شُعَبٌ أخرى في الشرق كله تجعل منا مليوناً ونصف مليون من الإخوان العاملين؛ عدا الإخوان المناصرين.

قلت لفضيلته: إنَّ البعض يزعم أنّ حركتكم تعتمد على المأجورين من رجال القلم تشتريهم بالمال؛ فكم دفعت فينا؟

فتبسّم الشيخ ضاحكاً وقال: «الحمد لله أنْ وُجِد الآن قوم يزعمون أننا نشتري غيرنا بالمال، وكنا دائماً نُتهم بأننا نحن الذين نُشترى من جميع الجهات!».

وسأَلْته: لماذا تحوّلتم في السنوات الأخيرة إلى ناحية النشاط السياسي؟

قال: النشاط الوطني تقصد، فما لنا بالسياسة علاقة، ولقد حرصنا دائماً على ألا نحتكَّ بالأحزاب ولا بالهيئات.

قلت: هل تشترك في الانتخابات إذا أُجريت؟

قال: نعم.

قلت: وهل تضمن النجاح؟

قال: أستطيع في انتخاباتٍ حرّةٍ أن أحصل على أغلبية ساحقة، هذا لو أنني أردتُ ذلك، ولكنني في الواقع لا أريده؛ فمكاننا في صفوف الشعب أكثر منه في صفوف الحكام.

قلت : هل معنى هذا أنك لا تقبل رئاسة الوزارة إذا عُرضت عليك؟

قال: بل أقبَل. فالحكم ليس متعةً، إنما هو جهاد، فأنا إن قبلته فإني سأقول للمصريين «أيتها الأمة جاهدي، فالجهاد سبيلُكِ الوحيد».

إذن، إنّ حرباً قد أُعْلِنت واسْتُلَّت سيوفها، وقد رسخ في ذهن الجميع الآن أنَّ جماعة الإخوان قد ألقت على الأرض أكارِعها[١٨]، وجعلت حبالها على غواربها، فها هي ذي مدعمة بخزينة عامرة بالمال، وهو اعتقاد من أقوى أسس الدعاية التي تعتمد عليه الجماعة، في حين لم يدخر الإخوان جهداً في استعراض عضلاتهم والظهور بمظهر الثراء: فالصحف تنشر أنباء مزارعهم النموذجية، التي تصل مساحتها إلى مئات الأفدنة، والناس لا حديث لهم إلا عن شركات النقل والصناعة التي تتمدد وتتوسع،

[١٨] ألقت أكارعها: مدت أطرافها.

وعن مؤسساتهم التعاونية التي تشتدّ وتقوى، وعن مطابعهم الجديدة وجريدتهم اليومية ومجلاتهم الأسبوعية التي تملأ الطرقات وتغرق الأسواق، وهذه السيارات التي تزحم الطريق إلى دورِهم، بل هذه الدور نفسها التي اشتُرِيَتْ بآلاف الجنيهات.

لكن واأسفاه! إن الثروة والشهرة اللتان أقبلتا كالسلحفاة، سوف تذهبان عما قليل كالغزال.

٣٠ - الملك فاروق

ما من سنوات مرت بها مصر أشد اضطراباً من السنوات الاثنتي عشرة الواقعة ما بين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٥٢. ففي تلك السنوات نشبت الحرب العالمية الثانية، وفي تلك السنوات تم حلّ جماعة الاخوان المسلمين، وفيها قامت حرب عام ١٩٤٨ واحتلت فلسطين، وظهرت إسرائيل إلى الوجود.

والسؤال أين الملك فاروق من تلك الأحداث؟

لقد لعبت الدسائس دورها في البلاط، ولم يكن الملك فاروق إلا ممثلاً ثانوياً في المشهد، فقد كان يدير المشهد كله رجالٌ دهاة، متضاربو الآراء، متنافرو الأهواء، كل منهم يدافع عن ادعائه بمجموعة من التشريعات والمراسيم. فكم من قضايا معقدة مربكة ستنجم من مثل هؤلاء؟ وكم من خطى عاثرة سيقع فيها الملك بفضل هؤلاء؟ وكم ستكون مثل هذه الحاشية ماهرة في تضليل شاب مثله؟

لقد مهرت هذه الحاشية في استعمال سموم التملق الناعمة، وتسلحت دوماً بترهات لا طائل تحتها. وقد كان الملك في أول عهده يسمى الملك الصالح، فحينما تولى الحكم كان في السادسة عشرة، وحينما أُجبر على التنازل عن العرش كان في الثانية والثلاثين، وحين مات كان في الخامسة والأربعين. لقد كانت تبدو على ملامحه البراءة والطفولة والسذاجة، بعينيه العسليتين الجميلتين، ووجهه المكتنز، وشاربه الأصفر الخفيف.

بيد أنَّ أعقد عقده كان إحساسه بأنه طفل والكل يريد الوصاية عليه، ومعاملته على أنه شاب صغير، فحرص دائماً على الظهور بمظهر أكبر من سنه، حتى إنه لما أصيب بالصلع اغتبط بذلك، إذ رأى فيه تعزيزاً للمظهر الذي كان يتوق إليه، وكان خلافه الشديد مع النحاس باشا يرجع إلى أنه ينظر إليه كولد صغير غَرِير.

كان الملك فاروق يحب أن يبدو أمام الجميع غامضاً، فتجده يحيط أعماله التافهة بالسرية والكتمان، في حين أنَّ أغلب هذه الأعمال كانت معروفة للجميع. كما لم يكن يملك من المرونة النفسية ما تمكنه من التعامل مع مجريات الأحداث المتسارعة، وبقي غير ناضج من الناحية النفسية، ولن ينضج في الغد ولا خلال السنين القادمة، وسيظل وفياً لشخصيته غير الناضجة لا يستطيع تقرير عمل حاسم، ولن يفلح مطلقاً في الظهور بمظهر الواثق من نفسه، ناهيك عن الظهور بمظهر الجلالة المهيبة. وقد جعله تفكيره البطيء وعجزه عن الإجابة السريعة وجِلاً من رجال البديهة الحاضرة الذين يجيدون فن التحدث والكلام. وكانت كل فكرة يقدمونها، ولا تنبع من عقله، تشكل بالنسبة إليه توتراً هائلاً. وكان كل من يطري لديه كسل التفكير فهو أذكى الرجال، أما الذي يطلب منه بذل مجهود ما فهو مزعج ممل.

وترتب على هذا حبه للظهور بمظهر العارف الخبير بكل شيء، فهو يكره أن يتعلم من أي إنسان، أو يستفيد من خبرة أحد، مما جرَّ عليه مفاسد خطيرة، فأصبح يقيم علاقات نسائية ويتصرف تصرفات طائشة، اتخذها كقناع هزلي يخفي وراءه حقيقة نفسه، فأصبحت تشهد الدولة عليه، كما يشهد الوزراء والبلاط بأسى، جُرْأَة الصحف وزعماء الأحزاب والنفعيون والمتسلقون والوصوليون وكل من يريد إظهار نفسه. كانت هذه العُصبة من الثرثارين تهاجم البلاط الملكي ومفاسد الملك، باعتباره زير نساء كما صورته الصحافة والسينما والروايات.

في هذه السنوات، تعاظمت حرية الصحافة وأفلتت من الرقابة بسرعة ساحقة، وفجأة شرع الجميع يشتغلون في السياسة، واكتشف آلاف من الطموحين والعاطلين

عن العمل فرصتهم الذهبية، وأصبحت السياسة شغلهم الشاغل، وتدفقت المنشورات التي تهاجم الملك وتبين مفاسد البلاط الملكي كالسيل الجارف تتزايد يوماً بعد يوم في جو محموم.

ثم جاءت الضربة القاصمة، التي أسقطت هيبة الملك من نظر الشعب، عندما حاصر الإنجليز قصر عابدين وأجبروه على تولية النحاس باشا رئاسة الحكومة. ثم أضيف إلى ذلك مشاكله العائلية مع أمه وأخواته، ثم طلاق زوجته الملكة فريدة التي أحبها المصريون، فخرجت المظاهرات تهتف (لقد خرجت الفضيلة من بيت الرذيلة).

هكذا نجد أن التاريخ كان بحاجة إلى شخصية الملك فاروق لكي ينسج منها أحداثاً مؤثرة؛ فالمأساة تأتي دوماً من انعدام التناسب بين الشخص الذي ندبه القدر لمهمة عظيمة وبين مقدراته. لقد كان الملك فاروق ضعيفاً، لكنه نيطت به مسئوليات جسام سحقت شخصيته وطحنتها، وعند ذلك بدت المأساة أكثر حدة؛ إذ سعى بسبب من طبيعته الضعيفة إلى حياة هادئة يسيرة، فهو لا ينشد المأساة التي لا حاجة له بها، بل يفضّل العيش هادئاً في الظل بمنأى عن العواصف والمحن.

فلو لم يكن الملك فاروق ملكاً لكان قد أكمل حياته كملايين الشباب في جميع الأزمنة، ولكان قد ضحك ولعب وتعلم وحصل على وظيفة بمرتب متواضع، وقام بالزيارات وكوَّن الصداقات، ومات آخر المطاف حتف أنفه، ثم وُضع في قبره، وقدمت التعازي لأهله، ثم اختفى من ذاكرة البشر، ولم يبق منه إلا شاهد قبره الذي لا يثير أحداً لقراءته.

باختصار، لقد كان الملك فاروق نموذجاً للرجل العادي، الذي لم يخلق للاضطلاع بأعمال خطيرة جليلة، إنما هيأته طبيعته إلى موظف في مكتب ما، أو إلى عمل آلي، بعيداً عن الحوادث. لقد هيّأته طبيعته لكل شيء ما عدا العرش. ومع ذلك فقد كان لوجوده معناه الخاص؛ إذ أنه عبر عن عصره تعبيراً لائقاً، وأعطاه خاتمة ملائمة.

٣١ - انخراط جماعة الإخوان في السياسة

في هذا الجو المضطرب بدأت جماعة الإخوان الانخراط في السياسة، وكشفت عن ذلك في العدد الأول من مجلة النذير، إذ كتب حسن البنا مقالاً بعد عقد المؤتمر الخامس يقول فيه: "لقد حان وقت العمل وآن أوان الجد، ولم يعد هناك مجال للإبطاء، فالزعماء حائرون، والقادة متذبذبون متأرجحون، وسوف ننتقل من دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال، ولقد تقوَّل عليكم الناس: فمن قائل إنكم وفديون نحاسيون، ومن قائل إنكم سعديون ماهريون، ومن قائل إنكم أحرار دستوريون، ومن قائل إنكم بالحزب الوطني متصلون، ومن قائل إنكم إلى مصر الفتاة منتسبون، وإنكم من كل ذلك بريئون. ولقد كان موقفكم أيها الإخوان سلبياً فيما مضى، أما اليوم، بعد هذه الخطوة الجديدة، فستخاصمون هؤلاء جميعاً خصومة شديدة، ولنا في جلالة الملك المسلم أيده الله أملاً محققاً، وفي الشعب المصري- الذي صقلته الحوادث ونبهته التجارب، ومعه الشعوب الإسلامية المتآخية بعقيدة الاسلام- نظراً صادقاً".

ويبرق السفير البريطاني إلى لندن بهذه الرسالة: "هذه هي المرة الأولى التي يعلن حسن البنا صراحة أن للجمعية أهدافاً سياسية، وكان دائماً يحاول إقناع الحكومة والسفارة بأن الجمعية لا تتدخل في السياسة، ولم يصدّق أحد هذا الادعاء".

ولم تكد جماعة الإخوان تشتغل بالسياسة حتى أمدها القدر بالرجل الذي سيأخذ بيدها ليضعها في خضم بحر السياسة المتلاطم، إنه "علي ماهر" الذي تولى الوزارة عام ١٩٣٩، وعرف بعدائه الشديد للإنجليز، كما عرف بنزعته الدينية والوطنية، ولقد بذل الرجل جهداً مخلصاً للتقريب بين الإخوان والملك. وقد جمعت بين الثلاثة خصومتهم للوفد وكراهيتهم له.

وقد حاول الشيخ البنا الاستفادة من هذه الفرصة التي جادت بها الأقدار عليه وقلما تجود، فأخذ يستحث علي ماهر أن يعلن الوزارة حكومة إسلامية، حتى لا يجرؤ الإنجليز على المساس بهذه الحكومة، وإلا كان ذلك مساساً بجميع المسلمين في أنحاء

العالم. لكنَّ علي ماهر لم يكن بالرجل اللين الذي ينساق لهذه الحجج بهذه السهولة، فرفض الاقتراح، وكان الوقت قد حان ليدرك، ولكن بعد انقضاء الزمن، أن الشيخ البنا كان على حق فيما ذهب إليه. ففي يونيو ١٩٤٠، قدّم السفير البريطاني إنذاراً شديداً لفاروق يطلب منه تشكيل حكومة صديقة لبريطانيا، وإبعاد العناصر المعادية لها. وجَبُنَ الملك إزاء هذا التهديد، وطلب من علي ماهر تشكيل هذه الحكومة، ورفض علي ماهر وآثر الاستقالة على أن يخون مبادئه. وأسندت الوزارة إلى حسين سري باشا ذلك الانتهازي المعروف بانتهازيته.

٣٢ - حسين سري

ما إن تولى حسين سري رئاسة الوزارة حتى أخذ يتعقب علي ماهر ورجاله بالنقل والفصل، فأوعز إلى هيكل باشا (وزير المعارف) بنقل حسن البنا إلى بلد ناءٍ بالصعيد، ولم يجد هيكل باشا بداً من إجابة طلب رئيس الوزراء، مبرراً ذلك بقوله: "نقل مدرس في مدرسة ابتدائية ليس أمراً ذا بال، إذ يقع مثله كثيراً خلال العام الدراسي في كل سنة، ولا يترتب عليه أي أثر".

ونُقِل حسن البنا إلى قنا، ونقل أحمد السكري (وكيل الجماعة) إلى دمياط، وصادف النقل هوى في نفس هيكل باشا، لأن مجلة الإخوان كانت قد انتقدت نقداً لاذعاً كتاب هيكل (حياة محمد).

وفي يوم الخميس كان الشيخ البنا يحاضر في المركز العام، وكانت المحاضرة حول كتاب هيكل (حياة محمد) فقال الشيخ البنا: "إن الدكتور هيكل اقتدى في كتابه بمؤلف فرنسي أعرض عن ذكر معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يستثنِ منها إلا القرآن الكريم، مع أن المعجزات ثابتة بصحيح السنة".

وقبل أن تنتهي المحاضرة تقدم اليه أحد الأعضاء بورقة مكتوبة، فلما قرأها اعتذر الشيخ البنا عن المحاضرة وخرج. ووقف الشيخ عبد المعز عبد الستار ليقول "إن أمراً عسكرياً صدر بنقل الأستاذ البنا إلى قنا".

ورأى معظم أعضاء مكتب الإرشاد تحدي القرار والامتناع عن التنفيذ، وأن يستقيل المرشد إذا لزم الأمر، حتى لا يكون لأحد سلطان عليه. لكنَّ المرشد قال لأتباعه الثائرين: "من ركبه الغضب فقد ركب حصاناً وحشياً. فأمر الاستقالة سهل لا يتطلب سوى ورقة وقلم، ولكن هل سيقف الأمر عند الاستقالة؟ إن أمراً عسكرياً سيصدر باعتقالي في الحال؛ فالأحكام العسكرية مفروضة على البلاد والعباد، والنقل أيسر الأضرار وأنفع للدعوة من الاعتقال، وهي فرصة تعطي للصعيد حقه في نشر الدعوة".

ويسافر الشيخ البنا إلى قنا في أول قطار وسط توديع الإخوان الحافل، وما إن وصل إلى صعيد مصر حتى استهل نشاطه بعقد مؤتمر للمسلمين والمسيحيين عن أهمية الحكم بالشريعة الاسلامية. وأخذ يبدد مخاوف الأقباط من الدعوة إلى الحكم بالقرآن، فقال: "في ظل الشريعة الإسلامية عاش المسلمون والمسيحيون في وئام ليس له مثيل قروناً عدة، فلم يروا إلا العدل والانصاف، ولا تزال كلمة الخليفة الثاني مدوية في الآذان وعلى كل لسان: "يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟" وبوصية نبيه صلى الله عليه وسلم "ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأقباطها خيراً". وإن كانت هناك عقبة في تحكيم القرآن فهي عقبة واحدة: تلك هي أن زعماء مصر أنفسهم لم يتشبعوا بالإسلام، ولم يتعلموا بتعاليمه".

وأدركت الحكومة بأن حسن البنا لم يكن مدرساً عادياً يسري عليه ما يسري على مدرس التعليم الابتدائي من قرارات فينقل إلى قنا، تلك المدينة التي اعتادت الحكومات المصرية المتعاقبة أن تنقل إليها الموظفين المشاغبين لمعاقبتهم أو للتكفير عن أخطائهم.

وقام أنصار البنا بالتحرك لإعادته إلى القاهرة، وتحرك أعضاء حزب الأحرار الدستوريين وتوجه أحدهم بسؤال إلى سري باشا في البرلمان عن سبب نقل حسن البنا

إلى قنا؟ فكان جوابه: إن حسن البنا قصّر في عمله؛ إذْ لا وقت لديه لتحضير دروسه، فهو يقضي سحابة نهاره في الاجتماعات واللقاءات والمؤتمرات. وكان هذا هو الجواب الذي ينتظره الإخوان، حيث أعدوا تقارير إدارة التفتيش بوزارة المعارف التي تثبت أن حسن البنا كان حريصاً على عمله لم يتغيب يوماً واحداً.

وازداد ضغط النواب الأقباط على رئيس الوزراء بعدما ضاقوا بانتشار نفوذ الإخوان في الوجه القبلي، بعد نقل حسن البنا إلى الصعيد، ورأوا إبعاد حسن البنا عن صعيد مصر بأي ثمن، لذا تمت إعادته إلى القاهرة.

قوبلت عودة البنا إلى القاهرة بالحفاوة والترحيب مما يدل على الشعبية المتزايدة للجمعية ومرشدها، الأمر الذي جعله يشعر بأنَّ له من القوة ما يسمح له بمضاعفة نشاطه من غير أن يخشى مغبة ذلك النشاط. وازدادت تقارير المخابرات البريطانية بأن الإخوان يقومون بدعايات مضادة للإنجليز، ويجمعون معلومات عن تحرك قواتهم، ويحرضون ضدهم في الاجتماعات الشعبية. وطلبت السفارة من سري باشا اعتقال الشيخ البنا فاعتقل في أكتوبر ١٩٤١، وتم إيقاف صحف الإخوان وحظر اجتماعاتهم ومنع الصحف الأخرى من نشر نشاطاتهم واجتماعاتهم.

وتحرك الكثيرون مرة أخرى للدفاع عن البنا، وانهالت العرائض والالتماسات على الملك ورئيس الوزراء تطالب بالإفراج عن الشيخ البنا. واعتصم الطلاب في مسجد السلطان حسن بالقاهرة، وأصاب الرعب سري باشا، فقرر إطلاق سراح الشيخ البنا، فحضر وزير التموين حامد جودة إلى المعتقل في سيارة فخمة من سيارات الوزارة، ودخلت إلى حديقة المعتقل، واختلى الوزير بالمرشد وأخذ يفاوضه في المسائل المختلف فيها بين الإخوان والحكومة. وأثمرت المفاوضات عن الإفراج عن الشيخ البنا بعد شهر من اعتقاله. وإذا كان البنا قد أفاد من نقله إلى قنا وعودته السريعة إلى القاهرة، فإنه

أفاد كذلك من اعتقاله، الأمر الذي لفت الملك إلى قوة الإخوان وتعاظم شعبيتهم، فسعى للتقارب معهم.

ومنذ ذلك الوقت سوف يكون من الأفضل لرئيس الوزراء سري باشا أن يغير أشرعته حيث الرياح بدأت تهب من اتجاه جديد، فجعل يسعى لتحسين صورة الإخوان لدى السلطات البريطانية، والتي بدورها لم تكن بحاجة إلى كثير من الذكاء لتدرك أنَّ سري باشا أصبح يسعى لإرضاء الملك أكثر مما يسعى لإرضائهم، كما أصبح حسن البنا أكثر حذراً في حديثه عن الإنجليز، فقد هادنهم علناً وهاجمهم سراً، إذْ كان يرى أنَّ الوقت غير مناسب للصدام.

٣٣ - مصطفى النحاس

في فبراير ١٩٤٢، حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين، وفرضت على الملك تعيين مصطفى النحاس رئيساً للوزراء، بدلاً من سري باشا الذي أصبح يسير مع التيار، بل يمكنه أن يُخرج من أحد جيوبه برهاناً على ولائه للإنجليز، ومن الجيب الآخر برهاناً على إخلاصه للملك، فقد كان شغله الشاغل أن يغدو مع الجانب الفائز، ويستعرض في وقاحة مذهلة قدرته المفاجئة لتغيير الجبهة التي ينتمي إليها، وفي أدواره التي يتلون بها بألوان لا نهائية.

يا له من خائن جريء! حين يفر مقاتل في وضح النهار من جبهته إلى جبهة العدو. هذا الأسلوب من الارتحال إلى معسكر المنتصر، يمثل تكتيكات سري باشا التي يؤمن بها دون غيرها. كان في الحقيقة يستطيع اللعب على كلا الحبلين. فإذا اتُهِم من قبل الانجليز بالتساهل المفرط فإنه يمكنه أن يشير إلى مئات المعتقلين الذين زج بهم إلى داخل السجون، وإذا اتهم من جبهة أخرى بأنه ديكتاتور يمكنه تذكير خصومه بهجوم الصحافة عليه لأنه متساهل ترك الحبل على الغارب.

ورفض الإخوان تعيين النحاس باشا رئيساً للوزراء، خصوصاً وقد أصبحوا بفضل سري باشا قاب قوسين أو أدنى من قصر عابدين. وقرروا دخول الانتخابات النيابية القادمة بعدما حلَّ النحاس باشا مجلس النواب. ودعا النحاس باشا حسن البنا للاجتماع به في فندق مينا هاوس، ولم يكن للاجتماع أي شهود ولا نعرف عنه شيئاً سوى نتائجه إذ تنازل الشيخ البنا عن ترشيح نفسه، وأعاد النحاس للشيخ البنا ٤٥٠ جنيهاً كتعويض عن التأمين الذي دفعه مقابل الترشيح، وقرر فرض قيود على بيع المشروبات الكحولية في أوقات يومياً، وخلال شهر رمضان، وفي الأعياد الدينية. واتخذ بعض الإجراءات الضرورية لحظر ممارسة الدعارة. وقام بإغلاق بعض المواخير، وسمح باستئناف الجماعة لبعض أنشطتها، بما في ذلك إصدار بعض المطبوعات وعقد الاجتماعات. وتكتب المخابرات البريطانية في تقريرها: "لقد هدد النحاس باشا في هذا الاجتماع حسن البنا بالاعتقال مع كبار قادة الإخوان إذا لم يُذعن له، كما هدده بمحاكمته أمام محكمة عسكرية بتهمة التجسس، كما هدده بنشر اتهامات مزعومة حول أسلوب البنا في التصرف في أموال الجماعة".

وغضب أنصار الشيخ البنا من تنازله عن ترشيح نفسه، فهم لا يفكرون أو يتصرفون بالسرعة نفسها التي تجري بها الأحداث، وهم أبطأ وأكثر حذراً في التعامل مع المتغيرات التي تجري تحت السطح الهادئ، فخطب الشيخ البنا في أنصاره يقول: "لم نرد من الترشيح إلا أن نجد منبراً نعلن فيه عن دعوتنا، فإذا تيسر لنا هذا المنبر فنكون قد وفقنا إلى أحسن الحلول".

وغضب الملك فاروق من تنازل الإخوان عن الترشيح والانسحاب من أمام الوفد، فقطع إعانته المالية عنهم، وأدار ظهره لهم، الأمر الذي جرّأ النحاس باشا عليهم فأصدر قراراً بحظر جميع اجتماعاتهم، وإغلاق صحفهم، ومقراتهم. ولم يسمع أحد عن حسن البنا لبضعة أسابيع بعدها. وظن النحاس باشا أن قصته قد انتهت، وأن ركلة التوبيخ

هذه كانت كافية لكبح جماحه إلى أن أصدر مكرم عبيد في مارس ١٩٤٣ "الكتاب الأسود" متضمناً وقائع فساد الوفد وسوء إدارته.

وفجأة، يخرج البنا من تحت ستار الأرض ويخطب في الناس بأن نظام الحكم في مصر كله عفن ويحتاج إلى إعادة تنظيم شاملة، يلعب فيها الإخوان دوراً بارزاً.

أصاب النحاسَ ذهولٌ إذ لم يكن لأحد أن يتوقع هذه الخطوة الجريئة. وأدرك أخيراً أن حسن البنا خصمه لا يقل دهاء ولا جرأة عنه اذ خشي أن يؤيد الإخوانُ مكرم عبيد ويتضامنوا معه، فسعى إلى الحصول على تأييدهم والتحالف معهم، فألغى قرار إغلاق شعب الجماعة، وسمح لهم بعقد مؤتمراتهم، ونشر مطبوعاتهم.

٣٤ - النقراشي

في أكتوبر ١٩٤٤ أقيل النحاس باشا من منصبه وتولى أحمد ماهر الوزارة، ولم يطل عهده في رئاسة الوزارة إذ لم يتجاوز الأربعة أشهر، فقد اغتيل تحت قبة البرلمان على يد شاب اعترف بأنه اغتاله دون أي تحريض من أحد. وأُسندت الوزارة إلى "النقراشي باشا" الرجل الثاني في الحزب السعدي، وكان إذ ذاك في الثامنة والخمسين، وليضف إلى هذا- لاستكمال الصورة- أنه كان ضخم الجثة، قوي البنية، ذا بشرة قاتمة وأسارير غليظة في وجه عريض، وأوصال ثقيلة، وأطراف كبيرة، ووجنتين مترهلتين.. إنه النقراشي باشا، محمد فهمي النقراشي، وهذا اسمه بالكامل.

وفي خطابه أمام الملك يوم قبوله الوزارة يصرح قائلاً: "اعتزمت على انتهاج سياسة الحزم في تحقيق أسباب الأمن والنظام". ولم يضيع النقراشي الوقت فاعتقل حسن البنا مع أعضاء من الحزب الوطني، وحزب مصر الفتاة، وزج بهؤلاء ليناموا في حجرة قذرة تضيق بها الأنفاس. ويُفرَج عن الشيخ البنا بعد عشرة أيام.

هل تغنى أحد بالسجن من قبل؟ هل سبق لأي فيلسوف أن انتفع بهذه القوة التي تصنع الأقدار، وتُعلي شأن هؤلاء الملقى بهم بعيداً في غياهب الوحدة القاسية؟

كان الفنانون والشعراء يرثون دوماً للمسجونين، إذْ السجنُ تعطيل للترقّي، وفصل للإنسان عن الحياة، قد يؤدي إلى اضطراب في حياة الإنسان وروحه. إلا أنَّ السجن عندما يكون لرجل ذاق نوائب الأيام سيكون نافعاً له في ترتيب طاقات روحه المبعثرة في تروٍّ وهدوء. وكلّ عبقري مبدع يحتاج إلى مثل هذه الفترة من العزلة الإلزامية حتى يتسنى له مقاومة اليأس، ويشحذ همته للمهام التي تنتظره، يستبصر الأفق البعيد، ويدرك الطريق الذي عليه أن يسلكه من جديد.

للوهلة الأولى، قد يظن البعض أن حسن البنا سيخرج من هذا الاعتقال ساخطاً على الحكومة، ناقماً على الملك، فإذْ به يخرج بعد هذا الاعتقال راضياً مستريح النفس كأنه كان في تبتل وخلوة جعلته يعيد حساباته من جديد، ويجب عليه من الآن فصاعداً أن يكون أكثر حذراً. والواقع إنه لا يوجد شخص أكثر حذراً منه فيما مضى، فهو يراقب مسار الأحداث ويرصد إيقاعاتها مثلما كان يرصد عقرب الساعة عند تصليحها، وأصبح من المؤكد أن البنا كان على يقين بأنَّ الأيام الحرجة قادمة لا محالة، فهو يرصد الأجواء العاصفة، والصراعات الشرسة بين الأحزاب.

فالنقراشي بدا مهيمناً على الملك والوزراء، وإظهار التحدي في هذا المنعطف سيكون ضرباً من الانتحار والجنون. إذن فليقبِّل الأيادي التي لا يستطيع قطعها، ويجب عليه السير بين قطرات المطر دون أن يَبْتَلَّ، حتى تحين الفرصة المناسبة.

هكذا يمتاز هذا الرجل بتفوقه الذي لا نظير له في الصبر، وقدرته على التحكم بأعصابه كشخص يمكنه الانتظار والتروي لأمد بعيد، وفي الوقت ذاته، لا تنفضح خباياه أبداً. إنه يمكنه خداع خصمه مهما بلغت مهارته.

ولقد أثارت دعوة الإخوان عداء الجميع على مختلف مستوياتهم. فالملك أصبح يشعر بالخطر من دعوة الإخوان التي تدعو لأن يكون المَلِكُ بالمبايعة لا بالوراثة.

والإنجليز باتوا يرهبون الدعوة لأنها تقوم على وجوب الأخذ بالشريعة وعدم موالاة الكفار. والوفد أدرك بأنَّ الإخوان بدأوا يسحبون بساط الأغلبية من تحت أقدامه ويجتذبون الشباب من صفوفه لينضموا إلى صفوف الإخوان. لذا بدأ الملك يدبر أمره ليبطش بهذه الحركة التي لم تبلغ أوج قوتها بعد، وما أيسر أن يتحالف الملك والإنجليز للقضاء على الجماعة ومرشدها.

لكن لا بأس في هذا كله، فهل تُصْنَع العجَّة دون كسر البيض! لذلك أراد حسن البنا أن يضع حداً لهذه المتاعب ويكسب ثقة الملك مرة أخرى، خصوصاً لو قابله وجلس معه. واتجه رأساً إلى الدكتور "يوسف رشاد" وهو ذو حظوة عند الملك ليقنع الملك بمقابلة حسن البنا وأنه مستعد للتعاون معه. وينقل يوسف رشاد هذه الرغبة إلى الملك، محاولاً إقناعه بحسن نية المرشد، لكنَّ الملك قال له بعدما مطَّ شفتيه وغمز بعينيه:

-حسن البنا ضحك عليك!

إذن، كان لا بد لصديقنا الحكيم أن يقبع في الظل، حيث يمكنه الحصول على نظرة ثاقبة فيما يجري حوله من أحداث، وبذلك يمكنه التأثير في مجراها بشكل يبدو في ظاهره غير مقصود إلى أن حلّت ذكرى وعد بلفور عام ١٩٤٥ فأحضر الإخوان سيارات النقل التابعة لشركاتهم، وأخذت تنقل الطلاب إلى الجامع الأزهر وتعالت الأصوات مدوية، وقذفت المتاجر في حي الأزهر بالحجارة، وهوجم المعبد اليهودي في الموسكي.

وصل النقراشي، رئيس الوزراء، إلى مسرح الأحداث، لكن وصوله لم يفد كثيراً في إثارة حماس الشرطة الذين حل بهم الإجهاد، رغم إن رئيس الوزراء ساعد شخصياً في القبض على بعض مثيري الشغب، وارتفعت الأيادي ملوحة له بإشارات الهلاك. وهنا يأتي دور حسن البنا الذي بدأ يخطب من على منبر الجامع الأزهر، ويبدي أسفه لأعمال التخريب التي وقعت، ويناشد المتظاهرين بالتوقف عن هذه الأعمال.

وعلى الرغم من أن المتظاهرين كانوا في حالة هياج شديد تمنعهم من الاستجابة لأي ناصح، إلا أن الشيخ البنا استطاع بعد ساعة أن يقنع المتظاهرين بالتفرق، فأطاعوه وانصرفوا بنظام، وشعر الوفد بالسخط من موقف الإخوان الذين قاموا بتهدئة أعمال الشغب، معتبراً أن موقفهم خيانة. وبدا كأن حكومة النقراشي نجحت في الوقيعة بين الإخوان والوفد، في حين كانت سياسة الإخوان تتمثل في السعي لتحاشي أي صدام مع الأحزاب الأخرى. ويبرق اللورد كيرلن، السفير البريطاني في القاهرة، إلى لندن قائلاً: "يمكن إلقاء مسؤولية معظم المظاهرات المعادية لبريطانيا، والهجمات التي تعرض لها الرعايا البريطانيون، على مدى العامين الماضيين، على الجوالة من الإخوان، الذين أصبحوا أكبر الحركات الشبابية وأكثرها تنظيماً".

ويترك حسن البنا الساحة المصرية في أوج حالتها نضالاً واستعاراً، ويسافر لأداء فريضة الحج. وتتجدد المظاهرات ويلجأ النقراشي إلى القوة لقمعها، مما أثار احتجاجات عنيفة. وتصل رسالة من حسن البنا يحث فيها أعضاء الجماعة بالاستمرار في المظاهرات، ويدعو في رسالته إلى تقديم المعونة إلى الأعضاء الذين يتعرضون للاعتقال، وتقديم المراتب والحشايا والأغطية لهم، وتوزيع الأموال على أقاربهم، وتوزيع بعض الإكراميات على ضباط الشرطة وحراس السجون، لتوفير معاملة طيبة للمعتقلين.

ويعود حسن البنا إلى القاهرة في ديسمبر ١٩٤٥، وكان أول أعماله الشروع في التحقيق في شكاوى الأعضاء الذين اعتقلوا ولقوا معاملة سيئة وأرسلوا إلى مناطق نائية ومعتقلات غير ملائمة. وأمر البنا بإجراء تحقيقات كاملة حول الموضوع، وطلب من أعضاء الجماعة في المدن والمديريات موافاته بأسماء الضحايا لتقديم احتجاج للحكومة ضد المعاملة السيئة التي تعرضوا لها المعتقلين. وذاعت أنباء عن مقابلة سرية بين الملك وحسن البنا، وقيل إن الملك أبلغ البنا بأنه يفضل سياسة الإخوان، طالما أنها تحافظ على توازن القوى السياسية في البلاد. وأطلق النقراشي سراح عدد من أعضاء الجماعة الذين اشتركوا في المظاهرات.

وبعد شهر من هذا اللقاء يسعى الوفد إلى تحريض الطلاب على التظاهر، لكنه لم يفلح بسبب عدم تعاون الإخوان، فحيث يُفتَقد الملح لا تنفع البهارات؛ فقد كان الإخوان حين ذاك يناصرون الحكومة. وفي فبراير ١٩٤٦ يستقيل النقراشي، وتجري مجلة المصور في الأسبوع نفسه استفتاءً بين القراء عن رجل عام ١٩٤٥، فيفوز الشيخ البنا، ويستقيل الشيخ البنا من وظيفته كمدرس بوزارة المعارف ليتفرغ لشؤون الجماعة بعد أن صار لها صحيفة يومية. ويحجّ أربعة وزراء وفديين إلى المركز العام للإخوان، ولا يخفون إعجابهم بأفكار الجماعة، ويعلن أحد الوزراء أنه يريد أن يكون جندياً في جيش البنا الجرّار، ويصبح وزراء الوفد الأربعة أعضاء شرف في جماعة الاخوان، ويخطب حسن البنا في حضور الوزراء قائلاً: "يظن بعض الناس أن الإخوان هيئة مصنوعة صنعتها أيدٍ وأهواء، لتنال من الوفد أو من غيره، فتنتصر على حزب، أو تظاهر قوماً على قوم. ذلك وَهْم لا أصل له، وباطل لا خير فيه".

وتنضم شخصيات بارزة غير إسلامية إلى الإخوان، من بينهم عضو مجلس الشيوخ لويس فانوس، ومريت بطرس غالي، ويقول البنا: "ليس هناك ما يمنع من التعاون مع هذه الجماعة التي تضم كل الوطنيين النشيطين سواء أكانوا مسلمين أو غيرهم".

ويحاول كثير من الأقباط الانضمام إلى الإخوان المسلمين، واقترحوا أن تغير الجماعة اسمها إلى الإخوان المصريين بدلاً من الإخوان المسلمين، لكن الشيخ البنا كان من الدهاء ليدرك أن القوة الأساسية لدعوته تكمن في جانبها الديني، فرفض الاقتراح، وكان البنا يحاول أن يمثل سماحة الإسلام أمام المسلمين والنصارى واليهود.

ومن الآن فصاعداً سوف يعتقد البنا أنه قادر على الاستفادة من القوة التي يملكها لتساعده على الانفلات من أكثر الأزمات صعوبة على البشر.

٣٥ - إسماعيل صدقي

عرفنا فيما مضى أن عهد "حسين سري" قد ألقى الاضطهاد في جماعة الإخوان ليصبح منذ الآن فصاعداً من سكانها المقيمين، وأن الاعتقال بات يزورهم ويغشاهم بين الفينة والفينة. والآن بعدما ختم عهد النقراشي بإغلاق الصحف، وحظر المطبوعات، ومهاجمة المقرات، وبينما عبقت الصحف بالتهم وغصت بالأكاذيب، فقد شع عهد إسماعيل صدقي، ذلك الشعاع المسكر الخلاب. ففي مارس ١٩٤٦، قام الملك بتعيين إسماعيل صدقي رئيساً للوزراء، وكان يبلغ إذ ذاك ٧١ عاماً، وكان المصريون يعتبرون إسماعيل صدقي رمزاً للرجعية السياسية والرأسمالية والفساد المالي.

لكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل إسماعيل صدقي لفترة طويلة أقدر الإداريين والماليين في مصر حتى أبعده الملك فؤاد مرتين من منصبه في عامي ١٩٢٥و ١٩٣٥، وكرس معظم وقته ليصبح رجل أعمال، فجمع ثروة كبيرة.

كان صدقي تركي الأصل، أوتوقراطي الطباع، ذلق اللسان، واقعياً بالغريزة، يلتمع دوماً في جيبه سلسلة ساعة ذهبية، وليضف القارئ لاستكمال الصورة: ذو قَسَمات ناعمة، وبشرة نقية برغم شحوبها، وسيماء نبيلة، ومشية وقورة. وكان حديثه متعة فكرية، وصوته محبباً يوحي بروح حيوية عالية، بينما يلعب شاربه دوراً كبيراً في ابتسامة الثقة بالنفس التي يتلقى بها حلو الأخبار ومرها. وبهذا نأخذ على الأقل صورة دقيقة إلى أقصى ما تستطيع الكلمات أن ترسم عن مظهر صدقي باشا.

كان إسماعيل صدقي يعارض غوغائية الوفد، ولا يتمتع بأي شعبية، فقد انشق عن سعد زغلول بعدما كان من الرجال الأوائل الذين شكّلوا حزب الوفد الأصلي، وقد اضطَهد الوفديين أثناء رئاسة الوزراء عام ١٩٣٠، لذلك كان من الطبيعي أن تصف صحف الوفد تعيينه بأنه عودة الجلاد. ويصفه بوكر في البرقية رقم ٧٨ بقوله: "بعدما تولى صدقي باشا رئاسة الوزراء عام ١٩٤٦، لعب دوراً وطنياً متطرفاً في تعديل

المعاهدة، وذلك نابع من رغبته في طمس الأسطورة الشعبية التي تذيع ارتباطه بنا. وهو عديم الضمير تماماً، يكيّف نفسه في أي وقت مع الاتجاه الذي يناسب مصالحه".

حقاً، إنَّ النحلة الجيدة لا تحط على زهرة ذابلة. فما إن تولى صدقي باشا رئاسة الوزراء عام ١٩٤٦، حتى اتجه إلى الإخوان يطلب منهم تأييده ومناصرته بسبب ما يحظون به من دعم شعبي، إذْ أصبحوا القوة الثالثة بعد الملك والوفد. وزار صدقي باشا الشيخ البنا وأبلغه بأنه مكلف بتشكيل وزارة لمعارضة الإنجليز، فقال حسن البنا: "شاع بين الناس من تاريخك السياسي ما يبعث على النفور منك، ولكننا سنزن ما تقول بميزان دعوتنا" فقال صدقي: سأبدأ صفحة جديدة، وللجماعة أن تأخذ ما تشاء من مواثيق".

وتكتب المفوضية الأمريكية إلى واشنطن: "لقد تزايد تنظيم الإخوان كقوة سياسية بعدما تولى صدقي باشا السلطة، وقد رفع الحظر الذي كان قد فرضه النقراشي على اجتماعات الإخوان، وهو يجامل الإخوان بدعم مالي بأمل فصم ارتباطهم بالوفد".

أما جماعة الإخوان فقد رأت أنه ينبغي تكريم السنديانة التي تسكن تحتها، لذلك سارعت بوصف صدقي باشا بقولها: "إن صدقي ١٩٤٦ غير صدقي الثلاثينيات، فهو يبذل كل ما في وسعه وفقاً لرغبات الشعب، وإنه صادق في وعوده".

أما عناصر المعارضة، فقد سعت للاتصال بالشيخ البنا بهدف تشكيل لجنة وطنية للطلبة والعمال، تكون مناوئة لصدقي والحكومة، وبذلت وعوداً براقة للشيخ البنا، لكن صدقي باشا كان على يقين بأنَّ اليد الناعمة تقود الفيل بشعرة واحدة، فيسارع لضرب هذه الجبهة بإصدار تصريح للجماعة بإنشاء صحيفة وتوزيع مطبوعاتها على نطاق واسع، وتعلن الجماعة انسحابها من اللجنة الوطنية للطلبة والعمال.

ويهاجم أحمد حسين[١٩] (زعيم مصر الفتاة) الإخوان بقوله: "لقد حانت خاتمة الشعوذة والدجل: الإخوان المسلمون بلا مبدأ، يتحالفون مع الكل حتى الإنجليز

[١٩] في الفصل القادم سيتم الحديث بالتفصيل عن أحمد حسين

الذين يسخرونهم لمحاربة الشيوعية والوطنية، وهم أداة في يد الرجعية، وفي يد إسماعيل صدقي لخنق الرأي العام، وهم أداة في يد الرأسمالية اليهودية لضرب العمال".

وحصل الإخوان في مقابل هذا الانسحاب على حرية استخدام المعسكرات، وقطع من الأرض لإقامة المباني اللازمة في المناطق الريفية، فضلاً عن المساعدة غير المباشرة من وزارتي التعليم والشؤون الاجتماعية.

وبعدما استراح صدقي باشا من الصداع الذي كان ستحدثه المعارضة بتحالفها مع الإخوان، وجد أنه قد حان الوقت للكف عن المظاهرات والاتجاه إلى المفاوضات مع الإنجليز، وشكل وفداً للمفاوضات ممثلاً من رؤساء الوزراء السابقين، الأمر الذي أغضب الشيخ البنا لعدم تمثيل الاخوان في هذا الوفد، وكتب الشيخ البنا محتجاً: "كان من المنتظر أن يكون وفد المفاوضات ممثلاً لكل هيئات الأمة وأحزابها، وفي مقدمتها الإخوان المسلمون".

ومنذ ذلك الحين يبدأ الصدام بين صدقي والإخوان، فيقطع عنهم المعونات، ويعتقلهم كما كان النقراشي يفعل. ويرى الوفد أن الفرصة قد حانت للانقضاض على الإخوان وتدميرهم، فتندلع الاشتباكات في طول البلاد وعرضها بين الإخوان والوفديين، ويهاجم الشباب الوفدي دار الإخوان، ويضرمون فيها النار، ويطلقون الرصاص على الشيخ "محمد حامد أبو النصر" الرجل الذي أصبح مرشد الإخوان فيما بعد، لكن فؤاد سراج الدين (سكرتير الوفد العام) يرى أن فرصة الانقضاض على الإخوان والإجهاز عليهم لم تحن بعد، ولا بد من الاستفادة منهم وتكوين جبهة موحدة معهم ضد إسماعيل صدقي، فيجتمع بالإسكندرية مع الشيخ أحمد السكري ويتبادلوا الأحاديث الودية والأحضان الدافئة، ويرى وجوب إنهاء الخصومة بين الجماعة والوفد، وأن يحل محلها التفاهم والتعاون. وتكتب السفارة البريطانية إلى لندن تعليقاً على هذا الاتفاق: "علاقة الإخوان بالوفد طيبة إلى حد كبير، لكنْ كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر، ولا يتفقان إلا على الضرورة، واتفاقهما سيفشل بعد تحقيق هدفهما المشترك".

هكذا أصبح الإخوان في قافلة واحدة مع الوفد ضد إسماعيل صدقي، ويبدأ صدقي المفاوضات مع البريطانيين في القاهرة دون التوصل إلى نتيجة، ويعود المفاوضون البريطانيون إلى بلادهم، ويقرر صدقي السفر إلى بريطانيا لإجراء المفاوضات حول معاهدة الجلاء واستقلال مصر والسودان. ويهاجم الإخوان صدقي كما لم يهاجموه من قبل، وتندلع المظاهرات في القاهرة والأزهر والإسكندرية وطنطا والمنصورة والزقازيق وبورسعيد والفيوم وأسيوط... ويهتف المتظاهرون ضد رئيس الوزراء: "سفر مشؤوم يا صدقي.. لا مفاوضات ولا استجداء إلا بعد التحرير والجلاء". ويكتب حسن البنا في صحيفة الإخوان قائلاً: "يسافر المفاوضون البريطانيون إلى بلادهم فيعتزم صدقي أن يلاحقهم هناك لاستئناف المفاوضات التي لا خير فيها".

وينظم الإخوان مظاهرات شملت عدة مناطق وينضم إلى هذه المظاهرات بعض المخربين والمندسين الذين هاجموا بعض المتاجر، واعتدوا على مركبات الترام، واستغل اللصوص هذه الفوضى فقاموا بأعمال السلب والنهب وإشعال الحرائق. ويعود صدقي القوي، رجل الثلاثينات، ويتنكر لكل الوعود التي قطعها على نفسه سابقاً فيهاجم دار الإخوان بالإسكندرية، ويفتش البيوت ويعتقل عدداً من أعضاء الجماعة بالإسكندرية، وتكتب صحيفة الإخوان: "عمد صدقي إلى أسلوبه القديم ناسياً أنه استغفر منه وأناب في مجلس النواب. فهذه المعاهد والكليات والميادين أشبه ما تكون بساحة حرب، حشدت فيها القوات المدرعة والسيارات المصفحة والمدافع المصوبة والبنادق والحراب المشرعة ليرسل صدقي باشا الأحرار إلى غياهب السجون".

ويهدد الشيخ البنا بالعصيان المدني وعدم التعاون مع البريطانيين ويصدر وابلاً من المنشورات المهددة ينطق لسانه فيها بتهديدات محرضة فيكتب قائلاً: "لقد توافد على مكتب الإرشاد أعداد من المصريين الذين يعملون في مؤسسات بريطانية يعربون عن استعدادهم للتوقف عن العمل، وتم إبلاغهم بمواصلة عملهم، حتى يفرغ مكتب الإرشاد من عمله". ثم يدعو الشيخ البنا إلى حرق الكتب والمجلات الإنجليزية،

وأصدر بياناً قال فيه: "تنفيذاً لقرار المركز العام للإخوان المسلمين أخذ شباب الأمة في القاهرة ومدن المملكة المصرية، يودعون ما لديهم من مجلات وجرائد وروايات إنجليزية في أقرب شعبة من شعب الإخوان، ولما تجمع من ذلك القدر العظيم في جميع أنحاء القطر أحرقت المطبوعات في الميادين العامة في القاهرة وأمهات القطر المصري وبلاد الاقاليم في آن واحد".

ويمتعض الوزراء في البرلمان ويهيبون بصدقي باشا إلى اتخاذ إجراءات أكثر صرامة مع الإخوان، لكنه لم يفعل، فهو الآن يدلف إلى الثمانين، وقد أصابته أزمة قلبية، ولم يعد بمثل القوة التي كان بها في الثلاثينيات، ويريد أن يقضي البقية الباقية من حياته في دعة وسلام بعيداً عن انتقام الإخوان وثأرهم لو مس مرشدهم أو جماعتهم بسوء. إذن، فليرشح لهم رئيس وزراء لم يفتأ يتوعدهم ويتهددهم إنْ أمسك بزمام الأمور.. إنه النقراشي باشا.

ويقدم صدقي استقالته ولم يعد للحكم أبداً، ويعرف شعب مصر بعد ذلك مزايا المعاهدة والفرص التي ضاعت على مصر بعدم إبرامها، ولم يخسر صدقي بخروجه من الحكم، لكن الذي خسر هو حسن البنا بعدم وقوفه مع صدقي.

لقد جرف تيار المعارضة الإخوان فانساقوا مع الوفد يعارضون صدقي ويقودون المظاهرات، ولم يستطع الإخوان في تلك الفترة الحرجة أن يمثِّلوا القوة السياسية الثالثة التي تحقق التوازن في السياسة المصرية، وكان مستحيلاً على الملك أن يثق في الإخوان الذين أفشلوا مشروع المعاهدة، وأصبح الإخوان يفقدون حلفاءهم واحداً تلو الآخر، وجاء النقراشي ليتولى رئاسة الوزراء مرة أخرى، وبينه وبين الإخوان عداء قديم، وكان مستحيلاً على النقراشي أن يثق بالإخوان مهما فعلوا.

ويستقيل صدقي بعد أن وجد نفسه في موقف حرج بسبب معاهدة (صدقي- بيفن) التي تنص على الجلاء عن مصر فحسب، وهو ما فعلت ثوره ٢٣ يوليو أقل منه بعد ذلك واعتبرته نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً.

على أية حال، ما كاد صدقي يؤدي رسالته التدميرية في حرف مسيرة الإخوان عن مسارها، التي كانت تسير عليه في الدعوة إلى مكارم الأخلاق، حتى انسحب من عالم السياسة على نحو مفاجئ، لكنه لم يفعل إلا بعد أن ترك حسن البنا غارقاً حتى أذنيه في مستنقع السياسة الآسن، ولن تستطيع أيما قوة في الوجود أن تنتزعه منه.

وجملة القول: إنَّ إسماعيل صدقي تقرب إلى الإخوان بشتى الطرق، لكنهم نأوا عنه، في حين أن الإخوان تقربوا من النقراشي بشتى السبل لكنه نأى عنهم.

٣٦ - أحمد حسين

أحمد حسين ذلك الرجل الملهِم للكثير من الشخصيات التي أصبحت مؤثرة وفاعلة فيما بعد. لقد كانت نفسه مرآة عصره، بحيث تتفاعل مع الأحداث وتتأثر بها وتخرج البدائل. إنه أشبه بالإعلاميين الذين يمتلكون ماكنة إعلامية جبارة لديها من الوسائل التي تجعل للكلمة تأثير السحر، فهي تحرك الخاملين، وتوقظ النائمين.

يقول أحمد حسين عن نفسه "ولدت عام ١٩١١، وفي صغري كنت مولعاً بالتمثيل، وعندما دخلت المدرسة الخديوية أصبحت رئيساً لجماعة الدراما، وقمت بأداء دور رمسيس في مسرحية "توت عنخ آمون"، وفي المرحلة الثانوية لم أفعل شيئاً سوى التمثيل المسرحي، لكن آمالي في هذا الاتجاه تلاشت حينما فشلت مرتين في الالتحاق بمعهد التمثيل، ولم أحصل على وظيفة في فرقة مسرح رمسيس، كان الجرح نافذاً لأعماقي، وكان الفشل إهانة لكرامتي؛ مما أثارني ودفعني للانشقاق؛ لأن التمثيل كان كل شيء في حياتي، وكأفضل بديل اخترت الحصول على البكالوريا والتقدم لكلية

الحقوق، واتجهت من التمثيل على خشبة المسرح، إلى التمثيل في الحياة من أجل تحرير مصر..".

وفي العام الذي أسس فيه الشيخ حسن البنا جماعة "الإخوان المسلمين" أسس أحمد حسين "جماعة الشباب الحر". وفي العام الذي أسس فيه الشيخ حسن البنا مجلة الإخوان المسلمون، أصدر أحمد حسين جريدة "الصرخة" التي أصبحت لسان حال جماعة مصر الفتاة.

كان "أحمد حسين" أنيقاً، نظيف الملبس، خفيف الظل، أسود الشعر، شديد الغيرة والحسد، مفعماً بالحيوية، عظيم التأثير، ذا عيون ساخرة دائمة الدهش بالعالم من حوله، وذا شفتين رقيقتين، وطول متوسط، يرتدي دوماً طربوشاً أسود أو أحمر، إذا رأيته وقع في نفسك أنه ممثل، أو مهرج، أو نصاب محترف، وعلى الرغم من ذلك فقد كان عفريتاً؛ يتمتع بسر خفي لاستعطاف أشد القلوب صلابة..

تذكر أدبيات جماعة الإخوان بعض الأخبار التي ترقى لديهم إلى درجة اليقين، ومع ذلك لم يتسن لي التأكد من صحتها من مصادر أخرى، مثل محاولة "أحمد حسين" اغتيال الشيخ حسن البنا بدافع الغيرة والحسد؛ إذ قام بعدة محاولات لقتله. ففي مدينة المحلة أرسل بعض الأفراد من حزب "مصر الفتاة" لخلع الأعمدة التي يقوم عليها سرادق حفل للإخوان، كي يتهدم وتشتعل فيه النار من قناديل الإنارة المعلقة. لكن الإخوان علموا بتلك المؤامرة فأمسكوا بالجناة وأوسعوهم ضرباً.

وبعد فترة قام نفر من جماعة أحمد حسين بمحاولة وضع قنبلة تحت المنصة التي يخطب عليها الشيخ البنا، إلا أن أفراد الإخوان أمسكوا بهؤلاء النفر، وقام الشيخ البنا باستدعاء أحمد حسين وسلمه رجاله ومتفجراتهم.

وفي محاولة أخرى أرسل أحمد حسين اثنين من أعضاء حزبه لتفجير عبوة وسط الجموع في إحدى المؤتمرات، وما إن جاءا وجلسا حتى قبض الإخوان عليهما، وحبسوهما في حجرة ببدروم الدار. وبعد انتهاء المؤتمر اتصل الشيخ البنا تليفونياً بأحمد حسين وقال له "لك عندنا أمانة، إن كان يهمك أن تستردها فلتحضر!" وجاء أحمد حسين فسلمه عضوَي حزبه ومعهما أكياس المفرقعات!

على الجانب الآخر، يشاع أن الإخوان حاولوا قتل أحمد حسين؛ وأبرز هذه المحاولات التي ترويها كتب جماعة الإخوان، عندما زارهم في خيمة القادة وكانوا في طريقهم للجهاد في فلسطين، وأمسك الشيخ السيد سابق "مسدس طاحونة" ليشرح كيف يعمل، بينما ماسورة المسدس موجهة إلى رأس أحمد حسين، ظناً منه خلو المسدس من الطلقات، (هكذا يقولون!)، وإذ بالشيخ سيد سابق يضغط على الزناد ليدير طاحونة المسدس التي كانت بها رصاصة جاهزة للانطلاق، لكن لحسن الحظ، أبتْ الرصاصة أن تنطلق إلى رأس أحمد حسين، فنجا من موت محقق.

وكان الإخوان يقولون: "إن أول ما ينفرنا من أحمد حسين وحزبه المسمى (مصر الفتاة) هو اسم حزبه الذي يشعرنا بالتخنث!.

أما أحمد حسين فقد كان ينكر على الإخوان: أسلوبهم الهادئ الذي يعتمد على الإقناع وأسلوب التكوين والتربية؛ فكان يرمي الإخوان بالضعف والجبن، إذْ أنهم- من وجهة نظره- يتركون المواجهة، ويعكفون على التربية والتكوين.

وفي بداية تأسيس الحزب كان شعار حزب مصر الفتاة (الله، الوطن، الملك)، وبعد عام، غير اسم حزبه من (مصر الفتاة) إلى (الحزب الوطني الإسلامي)، وأرسل خطاباً إلى الملك، امتدح فيه جلالةَ الملك وإنجازات جده العظيم، محمد علي، وطالبه بإلغاء الامتيازات الأجنبية، وإقامة جيش قوي.

وبعد ثمانية أعوام، وبعد تصاعد النشاط الشيوعي، قام أحمد حسين بتغيير اسم حزبه مرة ثالثة ليصبح (الحزب الاشتراكي المصري)، وعدّل شعاره (الله، الوطن، الملك) ليصبح: (الله، الوطن، الشعب) مراعاة لفكرة الصراع الطبقي، وأعاد تسمية جريدة الحزب لتصبح "الاشتراكية" بدل "الصرخة".

ومن أفكار أحمد حسين التي أثارت جدلاً واسعاً ما سمي (مشروع القرش) عندما حث كل مواطن مصري على التبرع بقرش واحد لإنقاذ اقتصاد مصر. كان هذا المشروع في إطار معركة شهيرة عرفت بمعركة الطربوش. فأخذ يعلن أنه من العار على المصريين أن يستوردوا زيهم القومي من الخارج. وشارك آلافُ المتطوعين في كافة أنحاء مصر في "مشروع القرش"، وحظي بدعم من الأحزاب، كما حظي بدعم الحكومة، وقيل إن أحمد شوقي دعمه بقصيدته التي يقول فيها:

علّمْ الآباءَ واهتفْ قائلاً أيها الشعبُ تعاونْ واقتصدْ
اجمعْ القرشَ إلى القرشِ يكنْ لك من جمعهما مالٌ لبدْ
أطلبْ القطنَ وزاولْ غيرَه واتخذْ سوقاً إذا السوقُ كسَدْ

وفي النهاية أسفر مشروع الطربوش عن إنشاء مصنع في العباسية في فبراير ١٩٣٣، إلا أن بعض الوفديين قاموا بمظاهرات تنادي بسقوط أحمد حسين، وكان شعارهم "يسقط حرامي القرش"، واتهموه باختلاس أموال المشروع، مما اضطر حرامي القرش إلى الاستقالة من سكرتارية جمعية القرش، وإعلانه قيام جمعية مصر الفتاة.

عموماً، لقد كان حزب "مصر الفتاة" يعكس أفكار جمال عبد الناصر ورجال الثورة. وكل الشعارات التي تكررت في خطب عبد الناصر وبيانات الضباط الأحرار وبرنامجهم الثوري كان أحمد حسين قد نادى بها قبلهم بعشرين عاماً.

هكذا نجد أن كل حركة فكرية تحتاج إلى عبقري ليبدأها، وإلى عبقري ليختمها. فأحمد حسين، هو الملهِم الأول الذي أطلق عجلة الثورة، وعبد الناصر هو الذي أوقفها قبل أن تنشطر إلى ألف ثورة، وكما في كل ثورة لدى توقفها، تخسر شيئاً من حيويتها، وتخسر العقول التي أبدعتها.

وقبيل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢دعا أحمد حسين إلى انتهاج العنف للإطاحة بالنظام الملكي، وبعد حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢، اتُّهم أحمد حسين بالقيام بهذا الحريق وتم اعتقاله والتحقيق معه بأمر الملك. وكالعادة، لم يثبت عليه شيء، وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو في السجن، وعلى الرغم من ذلك لم يتم الإفراج عن ملهِم الثورة، ومكث في السجن بضعة شهور، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد أن قام بإضراب طويل عن الطعام أشرف فيه على الهلاك.

ولن يمضي وقت طويل حتى يكتشف أحمد حسين أن المزايا المؤقتة للثورة التي كان ينادي بها، لا بد أن تُدفع من حساب حريته الفكرية، وأن التحول الجديد، كان قد استقطع جزءاً كبيراً من حريته القديمة.

خرج أحمد حسين من السجن وحاول العودة إلى نشاطه السابق ظناً منه أن صدر الثورة يتسع لآرائه، كما كان الحال سابقاً، بيد أنه أدرك سريعاً أن هِرَّتين في كيس واحد لا تستطيعان العيش، فما لبث أن اعتقل وأُهينت إنسانيته في السجن الحربي عام ١٩٥٤، بسبب برقية أرسلها إلى مجلس قيادة الثورة قال فيها: "إن مصر ليست ضيعة أو عزبة تتداولونها".

وعندما أفرج عنه لم يحتمل البقاء في مصر، فغادرها إلى سوريا، ثم لبنان، ثم لندن، ثم السودان... وفي عام ١٩٥٦ طلب العودة إلى مصر على أن يعتزل العمل السياسي، فعاد إلى مصر، ومن يومها كأنَّ خرساً أصابه، ولم يشر إلى جمال عبد الناصر لا بقليل ولا بكثير، وفي سبتمبر ١٩٨٢ مضى إلى سبيله في صمت، وأُسْدِل الستار على حياته وأصبح في عداد المنسيين.

٣٧ - النقراشي مرة أخرى

إنه لأمر مخجل التعثر مرتين بالحجر نفسه. ففي مطلع عام ١٩٤٧، تولى النقراشي مرة ثانية رئاسة الوزراء بعدما رشحه صدقي لهذا المنصب، موصياً إياه بعدم التهاون مع الإخوان، وبضربهم بيد من حديد، وهز النقراشي رأسه وشد على يديه قائلاً "سوف ترى" واحتفظ النقراشي لنفسه بوزارتَي الداخلية والخارجية. ويكتب السفير البريطاني رولاند كامبل تعليقاً على ذلك: "النقراشي رجل ضيق الأفق، عنيد، بدأ حياته العملية مدرساً، ويمكن أن يصبح دموي المزاج إذا اختلفت معه، وهو عديم الخيال، يفتقر إلى المرونة ولا يستجيب إلى الأفكار الجديدة، وعلى مدى حياته العملية كان عنيف التصرف، عاطفي التفكير، دوماً يبرر الدور الذي قام به أيًّا كان هذا الدور".

وأدرك الإنجليز، على ضوء تصورهم لتركيب شخصية النقراشي، أنه لا يمكن أن يقدم في المفاوضات شيئاً مفيداً، أو حلاً فريداً، وأن مزيَّته الكبرى أن يبقى في الوزارة، ويبقى الوضع على ما هو عليه. أما المفاوضات مع البريطانيين فما هي إلا جولة أو جولتان حتى انسحب النقراشي ونفض يديه منها وهدد بعرض القضية على مجلس الأمن؛ فهو لا يملك المرونة الكافية، ولا النفس الطويل كصدقي باشا.

وأعلن الإخوان تأييدهم للنقراشي، الذي ظل حائراً متردداً ستة شهور لم يحسم أمره في رفع القضية إلى مجلس الأمن، ثم أخيراً يقرر رفع القضية إلى مجلس الأمن، ويبرق حسن البنا إلى مجلس الأمن مسانداً وفد مصر برئاسة النقراشي، ومؤيداً طلب مصر الجلاء ووحدة النيل. ويمتعض النقراشي من لهجة التصالح والزلفى التي يبديها مدرس الابتدائي تجاه النقراشي ووزارته، ويزداد امتعاضه أكثر عندما يقود هذا المدرس مظاهرة مؤيدة للنقراشي يسانده في عرض قضية مصر على مجلس الأمن، فتطلق الشرطة النار على المتظاهرين فتقتل ثلاثة منهم، وتصيب رصاصة الشيخ البنا في ساعده الأيسر، فنوايا النقراشي تجاه الإخوان لم تكن طيبة بحال، فهم مهما فعلوا لن يغيروا من شعوره نحوهم، وما أضمره ضدهم، وكوب من المياه العذبة لا يمكن أن يحلي مياه البحر.

وفي ١٩ يناير ١٩٤٨، وبعد شهر ونصف من دخول المتطوعين للقتال في فلسطين تذاع الأنباء عن استشهاد كثير منهم، وتندلع المظاهرات في شتى أنحاء مصر مطالبة بدخول المزيد من المتطوعين إلا أن حكومة النقراشي أغلقت الحدود وفرضت القيود على سفر الشباب إلى فلسطين، وتظاهر الطلبة والعمال بالإسكندرية، وراحوا يهتفون لا مَلِكَ إلا الله، وعاد الصراع بين الوفد والإخوان بصورة أكثر عنفاً ووحشية، واتجه كل فريق إلى التشكيك في وطنية خصمه.

ويبعث الشيخ البنا برسالة إلى الحكومة يقول فيها: "إذا كانت الحكومة تثق بالأمة فعليها أن تتركها تجاهد". وترد الحكومة بتفتيش مقر الجماعة واعتقال أعضائها. ويبعث البنا بمذكرة احتجاج إلى الملك يطالب بإقالة وزارة النقراشي لسلبيتها وتقاعسها عن المطالبة بإلغاء المعاهدة، ويحذر بأن الإخوان لن يلتزموا الصمت، ولن يقفوا مكتوفي الأيدي، ويعارض استئناف المفاوضات مؤكداً أن الكفاح المسلح هو الخيار الوحيد أمام مصر، وقال: "إن شعب مصر مستعد لتقديم التضحيات، ولا يحتاج إلا إلى القيادة وحسن التنظيم".

وتتفاقم النقمة في قلوب الشعب المصري بكافة أطيافه فيتقدم ضباط الشرطة إلى الحكومة مطالبين بتحسين حالتهم وزيادة رواتبهم، لكن الحكومة لم تستجب لهم، ويتقاعس رجال الشرطة عن أداء عملهم، ويقوم اللصوص بنهب المحال التجارية في القاهرة والإسكندرية، ويُضرِب الأطباء والممرضون في مستشفى القصر العيني، وتضرم النار في المستشفى، وتلقى القنابل على القطار المتجه إلى فلسطين فتتسبب في قتل بعض الجنود البريطانيين، ويتمرد قائد التنظيم الخاص "عبد الرحمن السندي" ويخرج عن طوع الشيخ البنا، ويبدأ بالهجوم على عدد من البريطانيين في سينما ميامي، ويلقي بعض أفراد التنظيم الخاص قنبلة على ثكنات الجيش البريطاني بالعباسية، وعلى النادي الإنجليزي المصري ليلة عيد الميلاد، ويتوجه السفير البريطاني إلى النقراشي بقوله: "إنني

على ثقة بأنك ستتخذ كل الإجراءات لاستئصال هذه الجرائم، وأنا واثق بأن سلطات الأمن تحت قيادتك".

وينشر الشيخ البنا بياناً في الصحف يدين فيه هذه الأعمال، ويؤكد أنها ليست من سياسة الإخوان. ويكتب السير رولاند كامبل تقريراً إلى واشنطن جاء فيه: "تستمر هذه الهجمات رغم تصريح الشيخ البنا لجميع الصحف بإدانة هذه الأعمال، وبصفة عامة فإن قيادة الإخوان المسلمين هم المتهم رقم (١) عندما يحدث اعتداء من هذا النوع سواء أكانوا متورطين أم غير متورطين". ويزداد الضغط على النقراشي ليتخذ إجراءات أكثر صرامة ضد الإخوان.

هكذا أصبح الإخوان ضد الجميع: الملك والحكومة والوفد والانجليز.

٣٨ - الاغتصاب

في صباح يوم الثلاثاء ١٣ يوليو ١٩٤٧، كانت أصداء مكبرات الصوت التي تذيعها الكتائب اليهودية في شوارع مدينة اللد تردد هذا النداء: "جميع الرجال فوق سن الثالثة عشر يخرجون إلى المسجد الكبير".

خرج "فريد بيك" وأولاده من بيتهم الكبير الذي كان يضم عدداً من نساء الحي اللاتي الْتجأنَ إليه مذعورات خائفات. وبعد قليل، جاء أربعة جنود إلى بيت فريد بيك عمدة مدينة اللد وهم يحملون مدافع ستين، وطلبوا من النساء فتح باب البيت والخروج إلى حديقة البيت الواسعة التي كانت مزروعة بأشجار البرتقال والنخيل.

خرج النسوة المحتضنات أطفالهن وهنَّ يسحبن العجائز واقترب منهن جندي يهودي وأشار إلى رندا ابنة فريد بيك وقال لها بلغة عربية ركيكة: "نريد ماء.. أحضري لنا ماء". ترددت الفتاة برهة، فقال الجندي: "لا تخافي نحن من الهَجَنا ولسنا من اشتيرن، ونحن ظمأى، والحر شديد " ثم قال للجندي الآخر كلمة فضحك. كان

الجندي شاباً وسيماً ذا ابتسامة صافية كابتسامة الأطفال، فاندفعت رندا إلى داخل البيت وأحضرت إبريقاً من الأباريق البلورية الفاخرة وكوبين من البلور فوق صينية من الفضة، وهي تقول في نفسها يجب أن نريهم أننا شعب متحضر، فقد كانت رندا فتاة مثقفة تدرس في الجامعة آنذاك، ونزلت حافية القدمين فوق السُّلم الرخامي العريض، ثم اجتازت بهو المدخل المرصوف بالفسيفساء إلى الباب الامامي، وعندما وصلت إلى الباب كان الجنديان يسدان الممر، فوضعت الصينية على حافة منضدة داخل الباب مباشرة، ووجه إليها الجندي، الذي كان قد طلب الماء، كلمات الشكر باللغة العربية، ثم صَبَّ كأساً من الماء وتجرعها، وصبَّ كاساً آخر، ثم طوَّح بالكأس إلى الارض فتطايرت شظايا البلور في كل اتجاه، وراح يضحك في عصبية وهو يقول: "إننا نصنع ذلك في حفلات الزفاف اليهودية"، ولم تفهم رندا ما قال، لكنها أجفلت متراجعة إلى الوراء وقد أفزعتها لهجته وهيئته، مستاءة من تحطيم الكأس الثمينة. فمد يده وقبض على معصمها وجذبها إليه قائلاً: "هيا يا حسناء نحتفل بالزفاف"!

صرخت الفتاة وناضلت بعنف وأخذت تصرخ وترفس، وكانت ثمة حجرة للاستقبال يفضي إليها باب البهو، فجذبها إلى داخل الحجرة، وأغلق دونها الأبواب، وضحك الجندي الآخر وصب لنفسه مزيداً من الماء. ولما رأت زوجة فريد بيك ما حدث لابنتها اندفعت في غضب أعمى إلى داخل البيت، فاستوقفها الجندي فقالت بعصبية: ما الأمر؟ فقال الجندي ببرود بعدما شرب نصف كوب الماء المتبقي في الكأس: "لا تقلقي يا أماه إنها في طريقها إلى فقد بكارتها كما يبدو من صوتها". ولما سمعت الأم ذلك هجمت على الجنود وهي تصرخ في جنون، فعاجلها أحدهم بضربة بكعب بندقيته على رأسها ألقتها على الأرض فاقدة الوعي، تسيل الدماء من وجهها وأنفها.

وارتفعت صرخات رندا وصيحاتها فغطت على نحيبها، ووقف جندي عمداً أمام النساء، وفك أزرار بنطلونه وشرع يتبول تحت أنظار النساء مباشرة. ولما أبصره زملاؤه

من الجنود يصنع ذلك الصنيع القبيح، أخذوا يقومون بإشارات بذيئة يوجهونها إلى النساء المحجبات المحتشمات.

وفي المسجد الكبير تجمع الناس، الذين كانوا يشعرون بالعطش الشديد. وكان في المسجد صهريج ماء يتوضأ منه المصلون، لكن الجنود تبولوا في ذلك الصهريج وهم يقهقهون قائلين: "هيا تعالوا اشربوا وستجدون مذاقه طيباً"!

كان في المسجد أكثر من ثلاثمائة رجل تم اطلاق سراح الكبار منهم، في حين تم احتجاز مَنْ هم في سن التجنيد الذين أرسلوا إلى معسكر للاعتقال، ولم يُفرَج عن أيٍّ منهم، وإذا حدث منهم شغب طفيف تم إخماده بنيران المدافع الرشاشة. وكان منظر النساء المجندات غريباً وهنَّ يحملن مدافع ستين، وقد ارتدينَ سراويل قصيرة تكشف عن أفخاذهنَّ البضة العارية.

عاد فريد بيك الذي تجاوز الستين وكان مصاباً بعلة في القلب، ولما رجع إلى البيت وجد به ثلاثة جنود (رجلين وامرأة) واقفين بجانب سيارته عند رأس الممر الطويل المزروع بأشجار النخيل والجزورينا المفضي إلى داره. كانت المرأة شابة وسيمة ذات عينين قويتَي النظرة، فيها اعتداد شديد بالنفس يبلغ حد السلاطة، فغرست في ظهره مدفع ستين وسألته بلهجه مكسرة: "أين مفاتيح السيارة؟". سلمها المفاتيح وركب الجنود الثلاثة السيارة وأطلَّتْ عليه المرأة المجندة من النافذة المجاورة لمقعد السائق لتقول له: من الخير لك ولأسرتك أن تغادر الدار بسرعة، وإلا فلن تساوي حياتكم جميعاً فلساً واحداً". وضحك رفيقاها، وعندئذ استطردت مزهوة بوقاحتها: "حتى ولا ثمن الرصاصة". وشتمته بكلمة بذيئة يأبى القلم تسطيرها، ثم بصقت عليه، وانطلق الثلاثة بالسيارة.

وقف فريد بيك عند مدخل بيته يرقب سيارته الكبيرة الرمادية وهي تنهب ممر أشجار الجزورينا. ووقفته تلك طالما وقفها وهو يودع ضيوفه باعتباره رب البيت المضياف.

دخل فريد بيك البيت فوجد فيه خليطاً متبايناً من النساء، وألفى زوجته جالسة إلى جانب حائط البيت وقد أفاقت بعدما صب النسوة على وجهها الماء، لكنها كانت تحدق في الفراغ، وقد شلت الحادثة لسانها، بينما وجد ابنته رندا غارقة في تعاستها أشبه بحيوان مصعوق، وقد استحوذ عليها الرعب بشكل يعجز القلم عن وصفه.

اقتربت مكبرات الصوت من البيت وهي تردد: "على جميع الناس الخروج من البيت فوراً والذهاب إلى الملك عبد الله". كانت الكتائب اليهودية في كل مكان وقد أسكرها النصر يطلقون النار لأوهى الأسباب أو لغير سبب.

خرج فريد بيك وزوجته وابنته وهم لم يألفوا السير لأكثر من بضع خطوات، فلقد كانوا من أهل الثراء وحياتهم على الدوام سهلة هينة. وكانت تمشي معهم خادمات أخر ممن يعملن في دار فريد بيك وضيعته، وأناس متباينون ممن آوَوا إلى تلك الضيعة في الأيام والليالي القلائل الأخيرة.

أخذ الناس يمشون على غير هدى في درجة حرارة بلغت أكثر من ٤٠ درجة في الظل الهزيل الذي تلقيه أشجار الزيتون أو في ظل الصخور الحمراء. وكانت الأرض الرملية لا تطيق القدم العارية أن تمسها، أرض قوامها الرمال والصخور والحصى، إنها أرض متموجة تنتهي إلى تلال متتابعة، لا تلبث أن تذوب في سماء استنزفت الحرارة كل ما فيها من ألوان. فالمنظر القبيح الفسيح يمتد إلى ما لا نهاية في جميع الاتجاهات.

وكانت النساء اللاتي يحتضن أطفالهن ويسحبنا العجائز كأنهن جيش مشتت يتعثر فوق الصخور ويشق له طريقاً بين الحصى، يرتقي الروابي الرملية في إعياء وقد استنزف جهده العرق، يسقط ليقوم ويقوم ليسقط. وهم يشعرون على الدوام بالخوف من تلك

الطائرات السوداء الصغيرة التي تطير على انخفاض شديد، تحوم فوق رؤوسهم كأنها الطيور الجارحة، حيث يستطيع المرء أن يرى من فيها من الجنود.

وكان من السهل أن يفقد المرء أي أحد في ذلك الحشد من الزحام. وكان ثمة أطفال يتخبطون بين الحصى وهم يصرخون لأنهم فقدوا ذويهم، وما من أحد يلقي باله إليهم فإذا تعلقوا بأحد باكين منتحبين دفعهم عنه، لدرجة كنت ترى امرأة تلقي بالطفل الذي تحمله إلى بطن حفرة، حيث استقر صارخاً ثم تمضي المرأة في طريقها. فالجميع يسيرون إلى الأمام والشمس تنهال عليهم بشواظها، والطائرات السوداء تحوم كالصقور تتربص الفرصة للانقضاض من السماء التي صهرتها الحرارة، والأرض لا ترحم ولا تلين وتعكس ما تتلقاه من وهج الشمس وحرارتها.

كان الجميع في طريقهم إلى المدينة الجبلية "رام الله" وكانت أقلية من كبار السن هم الذين يدركون الاتجاه الصحيح، أما البقية فكانوا يسيرون صوب الشرق يتخبطون خبط عشواء؛ فكل ما يعنيهم أن اللد ينبغي أن تكون خلفهم. وكان الأطفال يتعثرون ويبكون بلا انقطاع من التعب والعطش، وشفاههم قد ابيضت كأنما عليها طبقة من الملح.

ثمت ظروف لا يهتم المرء فيها إلا بشيء واحد هو الحفاظ على حياته. في تلك الظروف تتخلى الأمهات عن أطفالهن لتلتهمهنَّ بنات آوى، لأنهن عجزنا عن حملهم خطوة أخرى. في هذه الظروف ترى الشباب يتركون ذويهم من المسنين ليموتوا، وتراهم يُقْدِمون على احتساء بولهم وبول أطفالهم. وكان البعض يعزي نفسه بقوله "إن الجيش العراقي سينضم إلى الفيلق العربي لتحرير فلسطين وسيلقي باليهود إلى البحر".

هناك كنتَ ترى ثمة عدد من الأطفال الباقين على قيد الحياة، وامرأة عجوز لا تكف عن الأنين في طلب الماء، وجماعة من النساء جالسات القرفصاء محجبات الوجوه لا يتكلمن.

في الحقيقة، ما من أحد كان يلقي باله إلى سواه؛ فالكل مشغول بنفسه. وهناك على مدى الأفق زرافات من الناس يتحركون ببطء ووجوههم صوب الشرق، وحشد من الناس يستريحون من شدة التعب تحت أشجار الزيتون، مستلقين أو منبطحين على الأرض الصخرية، أو جالسين وظهورهم إلى جذوع الأشجار محدقين في شرود إلى الأفق البعيد في بقعة من الأرض حمراء مليئة بالحصى والشوك فوق أرض لم يحلم بشر فيما عدا الرعاء بأنَّ يطأها بقدميه.

٣٩ - حرب عام ١٩٤٨

هبَّ الإخوان المسلمون مطالبين الحكومة المصرية بإعلان الجهاد، وراح حسن البنا يجوب المدن والقرى داعياً إلى الجهاد، فأثار حشوداً كبيرة من الشباب. وشرع الإخوان يفتتحون المعسكرات ويدعون الشباب لحمل السلاح، ودخلت أول دفعة من المتطوعين إلى فلسطين قبل دخول الجيش المصري بخمسة شهور.

توجه حسن البنا برفقة المتطوعين، وسار بمحاذاة حقول القمح والمراعي الوادعة المنبسطة إلى ما بعد بزوغ الشمس. لقد كان صباحاً مشمساً جميلاً، وسرعان ما تبلل نعله بالندى، بيد أنه لم ينظر لا إلى الشمس البازغة، ولا إلى السماء المبتسمة، ولا إلى الطبيعة المستيقظة من رقادها. إنَّ من يساق إلى المشنقة عبر مناظر طبيعية ساحرة لا يفكر في الرياحين التي تبتسم في طريقه، إنما يفكر في حبل المشنقة، وفي كسر عظام الرقبة، وفي القبر الفاغر فاه آخِر الأمر.

على أية حال، وصل الشيخ البنا إلى فلسطين وخطب الجمعة في المسجد الكبير بخانيونس، ومكث هناك ثلاثة أيام، ثم عاد إلى القاهرة لإرسال مزيد من المتطوعين. ورأى الإنجليز تدفق حشود المجاهدين فقاموا بإحاطة الحدود بحراسة شديدة لمنع دخولهم، في الوقت الذي رفضت حكومة النقراشي عبور المزيد من المتطوعين.

لكن على الرغم من ذلك فإن بعضهم نجح في التسلل من سيناء إلى النقب فأخذوا يهاجمون المستعمرات اليهودية، وطلبت حكومة النقراشي من حسن البنا سحب المجاهدين فرفض، فقامت الحكومة بقطع الإمدادات والتموين عنهم وفرضت رقابة صارمة على الحدود. ولا عجب من ذلك، إذْ كان النقراشي يعتبر عرب فلسطين مجرمين وبلطجية مثلهم كمثل اليهود بالضبط، يقول جاك دي رينيه[٢٠] في كتابه (القدس عام ١٩٤٨): "التقينا رئيس الوزراء، صاحب السعادة، النقراشي باشا، ونصحنا بالتعقل الشديد وألا نضع أنفسنا بين المطرقة والسندان قائلاً من خلال قهقهة ظريفة "إذا تدخل شخص، حسن النية، محاولاً الفصل بين اثنين من المجرمين، فقد يعرض نفسه لأن يجرد من كل شيء حتى ملابسه".

وأدرك الفلسطينيون بأنَّ الوقت ليس في صالحهم وأن فلسطين توشك أن تضيع من أيديهم، فقام عبد القادر الحسيني بمهمة الجهاد في منطقة القدس وضواحيها.

كان عبد القادر الحسيني قائد تنظيمات بالفطرة، يمتلئ بالحماسة والروح الوثابة. وعلى الرغم من خلو يده من السلاح فقد قام بحوادث نسف وتدمير ضد الكتائب اليهودية، وبلغ من براعته في الهجمات أن الإنجليز واليهود اعتقدوا أن هذه الهجمات تنفذها فرقة من المتطوعين الألمان واليوغسلاف ممن سبق لهم الاشتراك في حروب كبرى.

بدأت المخابرات الانجليزية واليهودية سعياً حثيثاً لمعرفة من يقف وراء هذه العمليات، فأمسكت بخيوطها وحوصر عبد القادر الحسيني ورفاقه، ورفض الاستسلام، وسقط شهيداً في معركة القسطل.

وما إن خمدت عمليات عبد القادر الحسيني ورفاقه حتى قام حسن سلامة بالأعمال المسلحة في يافا وما حولها من المدن والقرى حتى سقط شهيداً في معركة رأس العين.

[٢٠] جاك دي رينيه هو ممثل اللجنة الدولية للصليب الأحمر وصل إلى فلسطين قبيل جلاء قوات الحماية الانجليزية عنها، بعد صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين.

وبموت هذين البطلين خسرت المقاومة الفلسطينية أهم عناصرها، وأصبحت الطريق ممهدة أمام الكتائب اليهودية لملاحقة حركات المقاومة في المدن والقرى واحدة تلو الأخرى. أما بعد دخول الجيوش العربية فقد قضت هذه الجيوش قضاء مبرماً على المقاومة الفلسطينية، إذ راحت تكيل الاتهامات للشعب الفلسطيني وتتهمه بالخيانة والتجسس، وتمنعه من حمل السلاح والاشتراك في المعارك.

وفي ٢٥ أبريل ١٩٤٨ صدرت الأوامر بإرسال أول كتيبة نظامية إلى فلسطين، وانضم إليها البكباشي "أحمد عبد العزيز" أحد ألمع المحاضرين المحبوبين في كلية أركان الحرب. كان أحمد عبد العزيز مرحاً خفيف الظل، متديناً، عنيداً، شديد الاعتداد بنفسه، جريئاً ومغامراً، ومحباً للمخاطرة التي قد تصل إلى حد التهور، كما كان على علاقة بالشيخ حسن البنا مرشد الاخوان.

وصل أحمد عبد العزيز إلى خانيونس ليلاً، وفي الصباح أيقظته المدفعية التي بدأت تطلق نيران مدافعها، ورأى الشمس تدخل الغرفة من خلال النافذة، فنهض من فراشه ومضى إلى النافذة وأطل منها. كانت ممرات الحصى مبللة، وكان العشب رطباً بالندى، وقد أطلقت المدفعية نيرانها مرتين فكان الهواء في كل مرة يندفع وكأنه عاصفة فيهز النافذة ويُمَوِّج مقدم بدلته العسكرية، وكانت ثلاث سيارات عسكرية مصطفة إلى جانب بعض تحت السقيفة الطويلة في انتظاره.

ركب أحمد عبد العزيز إلى جانب صديقه الشيخ محمد فرغلي (الإمام السابق في مسجد جباسات البلاح الذي قصصنا طرفاً من سيرته فيما سبق)، وقام بجولات استكشافية ما بين النقب ورفح وغزة، وأخيراً قرر مهاجمة مستعمرة "كفار ديروم".

كانت خطة الهجوم تقوم على دك المدفعية حصون المستعمرة في الساعة الثانية صباحاً. ولسبب مجهول تأخر الهجوم عن موعده ساعتين، وكان الأفق قد امتلأ بضياء الفجر وانداحت ظلمة الليل. فلما انطلقت المدافع صوب الأبراج والدشم[٢١] لم تؤثر فيها

[٢١] الدشم هي المواقع العسكرية الحصينة.

شيئاً ولم تحركها من مكانها، إلا إن الأوامر صدرت من القائد العنيد بمواصلة الزحف ونسف الأسلاك الشائكة، ومهاجمة المستعمرة التي كانت حتى هذه اللحظة هادئة ساكنة.

كانت القنابل من النوع المعروف (مورتر) وقد أحدثت اندفاعاً أزيزياً في الهواء، وانفجاراً قاسياً وهاجاً، ووميضاً، ثم دخاناً رمادياً يجرف الطريق، وانتشرت رائحة المواد المتفجرة القوية، ورائحة الطين والحجارة المنسوفة والصوان المكسر.

وما إن اقترب المهاجمون من الأسلاك الشائكة حتى بدأت أرض المستعمرة تتشقق ويخرج منها سيل من النيران تحصد المتقدمين حصداً، وأصابت رصاصة الشاب الذي أوكلت اليه مهمة حمل الألغام لتدمير الأسلاك الشائكة فسقط شهيداً مما حدا بشاب آخر أن يقذف بنفسه على الأسلاك المشحونة بالألغام، فتطايرت الأسلاك الشائكة وتناثرت معها أشلاء جسده، وتدفق المجاهدون من هذه الثغرة إلى داخل المستوطنة إلا أن نيران الحراس أخذت تحصدهم فلم يجدوا ما يحتمون به سوى الحفر التي تحدثها القنابل.

وساد ارتباك في صفوف المجاهدين عندما انطلقت مدافع إخوانهم من الخلف تصب نيرانها على الصفوف الأولى بدلاً من أن تصب نيرانها على العدو، وحل الذعر وانهارت الروح المعنوية، فانسحب المهاجمون، وبقيت جثث الشهداء ملقاة على الرمال، وأصيب أحمد عبد العزيز بخيبة أمل شديدة لكنه تلقى درساً مفيداً بأن مهاجمة المستعمرات ليست نزهة مسلية، ومنذ الآن سوف يغير استراتيجيته في القتال.

ضرب أحمد عبد العزيز حصاراً شديداً على المستوطنة، ووصلته أنباء بقدوم قافلة إلى المستوطنة، فنصب مدافعه على التلال المشرفة على الطريق المؤدي إليها، وما إن اقتربت القافلة حتى انطلقت المدفعية من الجانبين، وحاول حراس القافلة الدفاع عنها لكن بدون جدوى، وقرروا النزول من القافلة وركوب المدرعات والفرار بجلودهم، لكن فصيلة من المشاة كانت مخبأة وراء التلال القريبة كانت بانتظارهم.

فما إن نزلوا من القافلة حتى انطلقت الرشاشات من كل صوب تحصدهم حصداً فلم ينجوا منهم أحد، وغنم المجاهدون المصفحات والأسلحة والذخائر والتموين. ومنذ ذلك الحين بدأ أحمد عبد العزيز يمارس حرب عصابات فيهاجم القوافل، ويقاتل على أرض مكشوفة، ويقطع طريق المواصلات، وشبكات المياه، ومراكز التموين، مما اضطر اليهود إلى إخراج قواتهم لحراسة قوافلهم وخطوط مواصلاتهم فأوقع فيهم ضربات سريعة خاطفة، بالإضافة إلى اغتنام كميات وفيرة من السلاح والعتاد.

وحدث هنا ما يحدث عقب جميع الانتصارات والهزائم؛ حدث خلاف شديد بين ضباط الجيش النظامي وبين القائد أحمد عبد العزيز، إذ اعتبروا حرب العصابات أعمالاً فوضوية وحروباً غير نظامية صادفت هوى لدى متطوعي الإخوان، إلا أن أحمد عبد العزيز أصر على رأيه.

كان أحمد عبد العزيز من حيث النشأة والتكوين أقرب إلى الجيش النظامي منه إلى كتائب متطوعي الإخوان، فهو خريج الكلية العسكرية، وزميل ضباط الجيش الذين انخرطوا في حرب فلسطين. بيد أن الإخوان كانوا يميلون إلى حرب العصابات وعدم الانضواء تحت لواء الجيش النظامي، إنما يؤثرون خوض معاركهم بشكل حرب عصابات؛ يدمرون شبكات المياه، وينصبون الكمائن، ويستولون على المصفحات والسيارات والمؤن والذخائر، الأمر الذي يوفر لهم كمية من الأسلحة والرشاشات والقنابل التي كان الجيش النظامي يضن عليهم بها ولا يعطيهم منها شيئاً إلا بعد المناشدات وتقديم التنازلات.

كذلك استفاد الإخوان من السكان البدو الذين سينبذهم الجيش المصري فيما بعد ويتهمهم بالجاسوسية والخيانة، في حين أن هؤلاء البدو أقبلوا على الإخوان يزودونهم بالمعلومات ويساعدونهم في عملياتهم العسكرية. لقد أثار الإخوان المسلمون النزعة الجهادية لدى البدو وجَنَّدوهم لتسَمُّع الأنباء وتتبع التحركات. فالبدوي إذا أراد المقاومة وأيقن بحماية ظهره، فلن تجد أبرع منه حيلة ولا أشد منه خطراً، إذ يتقن فن

التخفي، ويمتاز بسرعة الحركة، ومرونة التحول والتغَيُّر حسب ما تقتضيه اللحظة الراهنة.

إن نشأة البدوي في الطبيعة المفتوحة أكسبته مرونة الطبيعة وبساطة الفكرة ذات المعدن الأصيل ولقد أدرك اليهود هذه الطبيعة البدوية، إذ راحوا يسترضونهم بشتى السبل، ويحيطونهم بصنوف الرعاية، ويغدقون عليهم بأنابيب المياه العذبة، وصنوف الحلوى الفاخرة، والسجائر الأجنبية، علاوة على التحية والإعزاز التي يقدمونها لشيوخهم، فيتلقون هذه المكرمات كأنها هبة من الطبيعة وليست من العدو. وفي مقابل هذه الهبات كان البدو يَدَعون اليهود يمرون من بين مضاربهم بسلام، ويرفعون أيديهم ملوحين لهم بالتحية والابتسام، ومن ثَمَّ يقف البدوي حجر عثرة في وجه المجاهدين واضعي القنابل والألغام في طريق القوافل اليهودية. لكن قائد متطوعي الإخوان "يوسف طلعت" عمد إلى حيلة بارعة للفت نظر البدوي إلى غدر العدو إذ قامت فرقة من الإخوان بوضع الألغام لقوافل اليهود بالقرب من خيام البدو، فلما انفجرت الألغام أخذ اليهود يطلقون النار على البدو بلا حساب ولا رقيب. واستغل الإخوان ذلك فجندوا عدداً كبيراً من شباب البدو ودربوهم على السلاح وأوكلوا إليهم الأعمال الخطيرة.

وقد حاز "عقيلان" أحد رجال البدو على إعجاب الإخوان وتقديرهم، إذ كان واسع الحيلة، عظيم الشجاعة، خبيراً بمسالك الصحراء ودروبها، قصَّاص أثر بارع، مما حدا بقائد منطقة "عسلوج" اليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف أن يستعمله في وضع الألغام على طريق اليهود، فأدى الرجل دوره ببراعة وإخلاص استحق التقدير والإعجاب. لكن اليوزباشي عبد الرؤوف ما لبث أن نقل إلى مكان آخر، واستمر عقيلان يؤدي دوره، حتى جاء اليوم الذي عثر فيه وهو يقص الأثر على عدد من الألغام الضخمة التي وضعها اليهود في طريق الجيش المصري، فأخذ يقتفي أثرها ويلتقطها كما يلتقط العصفور الحَّب، ثم حملها على كتفه مزهواً بعمله، ومضى إلى قائد

الجيش، فلما رآه الجنود يحمل ألغاماً على ظهره، انقضوا عليه وهم يتصايحون "جاسوس جاسوس" وراحوا يوسعونه ضرباً وركلاً حتى شارف على الموت، ثم شُكِّلت له محكمة عسكرية بتهمة الخيانة العظمى، وصدر الإعدام بحقه، ولم ينقذه إلا شهادة اليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف الذي راح يعدد خدماته الجليلة، فأصدر المجلس العسكري حكماً بتبرئته مع منحة مالية لم ينعم بها، اذ مات بعد أيام من شدة التعذيب الذي لاقاه في الاعتقال!

عموماً، لقد حكم الجيش المصري على الشعب الفلسطيني بالابتعاد عن مسرح القتال والجلوس في مقاعد المتفرجين حتى تنتهي مسرحية الحرب، ليجد نفسه مجموعة من اللاجئين المشردين. ولقد أصبحت جاسوسية العرب وخيانتهم مبرراً كاذباً يقدمه الضباط المصريون لتعليل هزائمهم أمام كتائب اليهود، ولا تكاد تمر معركة من المعارك حتى تسمع من الجنود الفارَّين قولهم "يا عم إذا العرب بيحاربونا مع اليهود"، ثم يمضون في حبك القصص الخيالية مؤكدين أن العرب يهاجمونهم ويطلقون عليهم الرصاص من حدائق البرتقال ومن بطون الشعاب والوديان.

أما اليهود فقد استغلوا عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين فراحوا ينثرون بذور الفتنة، إذ كانوا يأمرون جنودهم بارتداء الزي العربي في المعارك لإيهام الجيش المصري بأن عرب فلسطين يقاتلون في صف اليهود، وتلقفت الصحف المصرية هذه الأنباء الكاذبة وبدأت تقدمها للناس على أنها سبق صحفي منقطع النظير، في حين راحت الصحف تدبج المقالات عن الجواسيس العرب وكيف أن الحراس المصريين اليقظين قبضوا على أعراب داخل الخطوط المصرية مختومين بختم الهاجاناة، وكيف أن الجيش المصري وجد أعراباً مقتولين ضمن قتلى اليهود، الأمر الذي أوهم الجنود المصريين بأنهم يحاربون في أرض معادية ويساعدون أقواماً خونة باعوا أرضهم، ثم امتشقوا السلاح دفاعاً عن اليهود.

كذلك لم تكد الجيوش العربية تدخل فلسطين حتى بادرت بحل المنظمات العسكرية ونزع السلاح من المجاهدين ووصفت الشعب الفلسطيني بالخيانة والتجسس، الأمر الذي ترتب عليه شعور متبادل بعدم الثقة، أخذ يزداد يوماً بعد يوم حتى انقلب إلى هوة سحيقة استحال معها التقارب بين أهل البلاد والجيوش التي جاءت لنجدتهم والذود عن كيانهم.

٤٠ – دخول الجيوش العربية

في ١٥ مايو ١٩٤٨ دخلت القوات النظامية بقيادة اللواء أحمد علي المواوي إلى فلسطين، وكانت الخطة الموضوعة تقضي بأن يحتل الجيش المصري المناطق الساحلية الواقعة بين مدينة "رفح" ومدينه "يبنا" التي تبعد ٢٠ كيلو متراً عن مدينة تل أبيب، في حين تدخل الجيوش العربية من الجهة المقابلة فتحتل المدن الساحلية، وتقف على مشارف تل أبيب، وبهذا تعزل مدينة تل أبيب التي ستقع بين فكي الجيوش العربية مما يضطر اليهود إلى رفع الراية البيضاء إذا احتلت عاصمة دولتهم.

ولم يدر بخلد قادة الجيوش العربية أن المستعمرات الإسرائيلية وزعت توزيعاً عسكرياً تحت إشراف الإنجليز بحيث يضمن اليهود الاستمرار في القتال مدة طويلة حتى لو سقطت تل ابيب، إذ كانت كل مستعمرة كياناً مستقلاً بنفسه من حيث عدد الجنود والسلاح والعتاد والتموين. فالخطة العربية انطوت على جهل فاضح بقوة العدو وأساليبه الحربية فضلاً عن التحاسد وعدم التعاون بين قادة الجيوش العربية التي كان من المفترض أن تحارب تحت قيادة واحدة. فما إن احتدم القتال حتى أصبح كل جيش يقاتل بمفرده في منطقته التي اختص بها ولا دخل له بالمنطقة الأخرى مهما كان أخوانه هناك يواجهون هجوماً أو حصاراً.

عموماً، دخل الجيش المصري إلى فلسطين وكان اليهود يدركون خطته مسبقاً فلم تعترض المستعمرات الواقعة في جهة الشرق سبيله، بل راحت تظهر الضعف

والاستسلام وترفع الرايات البيضاء على الأبراج الشاهقة، مما أوهم الجيش المصري بأنه قادر على اكتساح المستعمرات في طريقه، فبدأ بمحاولة اقتحام مستعمرة "نيريم" الواقعة على الحدود المصرية. وما إن وصل إلى حدود المستعمرة حتى جابهته مقاومة عنيفة اضطرته لصرف النظر عن اقتحامها ومواصلة زحفه للأمام. وكلما مر على مستعمرة في طريقه حاول اقتحامها والسيطرة عليها مما كبده خسائر فادحة دون أن يسيطر على أي منها. وهنا، قفزت إلى ذهن القائد المواوي ذكرى محاولة قديمة له في إحدى النوادي الليلية إذ رأى امرأة إيطالية جميلة بالغة الرقة والنعومة فأوهمه خياله بأنه بمقدوره الاستئثار بها فلما اقترب منها قابلته بجفاء وغلظة مما جعله ينكمش مستخزياً، ثم رأى امرأة أخرى حاول معها نفس المحاولة الفاشلة فتلقى نفس الصفعة إلى أن فسدت عليه ليلته وخرج من الملهى مكدر الخاطر لا رغبة له في سهر ولا سمر.

إذن، كما صرف المواوي نظره من قبل عن نيله أيما امرأة في تلك الليلة السوداء صرف نظره كذلك عن احتلال أي من المستوطنات الإسرائيلية، وقد عرف أخيراً، ولكن بعدما خسر الكثير من جنوده، أن كون الرخام لامعاً ومصقولاً لا يقلل من صلابته، وأدرك أن مهاجمة المستعمرات ليست نزهة مسلية، وقد شعر بالخجل من تصريحه للصحفيين- إبان دخوله فلسطين- بأن الناس في قريته حين يقيمون الأعراس يطلقون من الرصاص في الهواء أكثر مما يحتاجه جيشه من الرصاص لدخول تل أبيب، وإن فرقة واحدة من جيشه الجرار كفيلة بالقضاء على عصابات اليهود وإلقائها في البحر في مدة أسبوع فقط.

على أية حال، واصل الجيش المصري زحفه وما إن وصل إلى أسدود حتى تجمعت القوات الإسرائيلية في "رحوبوت" وهاجمت الجيش المصري هجوماً عنيفاً أدى إلى إيقافه عند أسدود، وكانت تلك نقطة تحول في الحرب إذ لزم الجيش المصري موقف الدفاع عن نفسه وعن الأرض التي احتلها. فاليهود كانوا قد وضعوا خطتهم على أساس بعثرة الجيش المصري وتشتيته، ومنحه الفرصة ليحتل مساحات شاسعة فارغة

مع علمهم بأنه لا يملك القوة العسكرية الكافية للسيطرة على هذه المناطق الواسعة، وحينئذ تقوم المستعمرات بمهاجمة الجيش المصري والقضاء عليه، حيث كان يضع في هذه المناطق قوة هزيلة مبعثرة لا يمكنها الصمود أمام أقل هجوم. وتلك خطة استخدمها الروس ضد نابليون حين تركوه يحتل مناطق شاسعة من الأراضي الروسية ويبعثر قواته، ثم قاموا بالهجوم المضاد على جيشه.

وكذلك استعمل الروس هذه الخطة ضد الجيوش الألمانية، ولا عجب من ذلك إذ كان جل ضباط أركان الحرب في الجيش الإسرائيلي ضباطاً في الجيش الروسي خلال الحروب الروسية الألمانية، وكانت هذه الخطط دروساً مستفادة نفذت بحذافيرها في فلسطين ولاقت نجاحاً منقطع النظير.

كذلك اعتمد اليهود تكتيك حرب العصابات، فقد أدخلوا في حساباتهم دخول الجيوش النظامية العربية، فشكلوا قواتهم على أساس حرب العصابات، فأخذوا يغِيرون على الجيوش العربية ويوقعون بها الضربات تلو الضربات دون أن يثبتوا أمامهم في مواجهة مباشرة، ولما توقفت الجيوش العربية بمقتضى الهدنة أخذ اليهود يقاتلون كجيش منظم يتطلع إلى كسب الأرض إلى جانب ما تقوم به العصابات من معونة للقوات النظامية خلال الهدنة خاصة، وتكون حجتهم بأنها عصابات غير نظامية لا سلطان للحكومة عليها، وبهذا تنصلت من اغتيال الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة.

إذن، كانت تلك هي خطة اليهود في حرب ١٩٤٨، أما خطة اللواء المواوي والساسة المصريين، الذين كانوا يديرون القتال من مكاتبهم في القاهرة، فقد كانت تقوم على أساس كسب الرأي العام من خلال إيهامه بأن الجيش المصري احتل ثلث فلسطين في مدة لا تتجاوز يوماً ببركة وزارة السعديين وحسن سياستهم. وسيقول المدافعون عن اللواء المواوي فيما بعد بأن المواوي لم يغب عن ذهنه ما في هذه الخطة من سذاجة، لكنه

كرجل عسكري كان ينفذ الأوامر، فاضطر إلى مواصلة الزحف كلما صدرت إليه الأوامر من القاهرة.

عموماً، في تلك الأثناء بقيت وحدات الجيش المصري مرابطة على الطريق الساحلي من "رفح" حتى "أسدود" في شريط نحيل لا يتجاوز ١٠ كيلومترات. أما الأرض المواجهة لهذا الشريط الساحلي فكانت من وجهة نظرهم أرضاً معادية، وبذلك أصبح الجيش المصري يقف وجهاً لوجه أمام مساحة شاسعة تقع تحت سيطرة اليهود، أما الشريط الساحلي النحيل، الذي يرابط فيه الجيش المصري، فكان يبدو كخط القلم الرفيع على صفحة الكراس. وعندما تحول اليهود من الدفاع إلى الهجوم التقت المستعمرات جميعاً في جيش واحد، واندفعت كالحراب المشرعة إلى قلب الجيش المصري المرابط على الشريط الساحلي تمزق أوصاله وتُقَطِّع وحداته.

٤١ - قائد الهزائم

أصر المواوي أن يخضع البكباشي أحمد عبد العزيز لقيادة الجيش المصري ويرافقه في عملياته، بيد أنَّ البكباشي أحمد عبد العزيز رفض هذا الاقتراح وأصر أن يستقل بالعمل مع قوات المتطوعين من الإخوان، لكن في النهاية تم الاتفاق على أن يتولى أحمد عبد العزيز الدفاع عن منطقة بئر السبع ولا يتجاوزها إلى شمال فلسطين، فوافق أحمد عبد العزيز على ذلك واخترق صحراء النقب بقواته، وكان صيته قد سبقه إلى بئر السبع فاستقبله أهل السبع استقبالاً حافلاً، وشرع يوزع قواته على منطقة بئر السبع، ويخوض القتال هناك.

وكان أهل الخليل في تلك الأثناء قد سئموا فتور الجيش الأردني وعدم جديته في القتال، إذ أصدر الجيش الأردني أمراً لقواته بوقف جميع العمليات الهجومية واتخاذ موقف الدفاع فقط، فلما سمع أهل الخليل عن شجاعة أحمد عبد العزيز وبسالته توجهوا إليه على رأس وفد يطلبون منه الدفاع عن الخليل وما حولها، فوافق أحمد عبد العزيز

على ذلك، واتجه صوب الخليل على رأس قوة صغيرة من قواته على أمل أن يتخذ من أهل الخليل والقدس قوة مساندة.

وما إن وصل إلى الخليل حتى استقبله السكان استقبالاً حافلاً ثم سار إلى بيت لحم وهناك بدأ النزاع مع الجيش الأردني الذي كان يسيطر على بيت لحم، حيث كان الجيش الأردني في سلام ووئام مع القوات البريطانية إلى أن جاء أحمد عبد العزيز وجنوده فأنزلوا العلم البريطاني عن مركز البوليس ورفعوا علم المتطوعين، فرفض الجيش الأردني هذه الجرأة من هذا الدخيل(!) وانقسم أهل المدينة إلى معسكرين: معسكر يشايع المصريين، ومعسكر يشايع الأردنيين، وانتهز الجنرال كلوب هذه الفرصة ليوغر صدور المسؤولين في حكومة شرق الأردن تجاه أحمد عبد العزيز وقوات المتطوعين. لكن البريطانيين رأوا أن الكفة تميل لصالح أحمد عبد العزيز وقواته فآثروا السكوت والتربص به حتى تحين الفرصة للقضاء على هذا القائد المقدام، لذلك لم يعترضوا طريقه وتركوه يندفع في سبيله.

توجه أحمد عبد العزيز بقواته إلى مستعمرة "رامات راحيل" الواقعة على طريق (القدس- بيت لحم) حيث كانت تقع على ربوة عالية تتيح لليهود مراقبة القوات العربية في بيت لحم وإحصاء تحركاتها.

وفي مساء ٢٦ مايو ١٩٤٨، حين احلولك الظلام تسلل جنود أحمد عبد العزيز إلى الجبال المحيطة بالمستعمرة وبدأوا يقصفونها بالقنابل فاشتعلت النار في الأكشاك الخشبية، وبدأت الاشتباكات عند الخنادق والدشم، واستماتت اليهود في الدفاع عن المستعمرة، لكن نفراً من المجاهدين تسللوا إلى أبراج المراقبة وفجروها فبدأ اليهود بالانسحاب عبر ممرات سرية إلى مستعمرة "تل بيوت" المجاورة، وسيطر المجاهدون على مستعمرة رامات راحيل، وانطلق الأذان يجلجل من فوق أعلى برج من أبراج المستوطنة. لكن مشكلة أحمد عبد العزيز كانت تكمن في أنَّ قواته صغيرة موزعة من العوجة إلى بيت لحم، لذلك ترك قوة صغيرة ترابط في المستعمرة وراح يواصل تقدمه

ويخوض المعارك في المواقع الأخرى، وأرسل إلى اللواء المواوي يطلب إمداده بمزيد من القوات والسلاح، فرفض المواوي طلبه بحجة أن أحمد عبد العزيز تجاوز منطقة السبع إلى الشمال مخالفاً أمر سيادته.

أدرك اليهود الخلاف القائم بين البكباشي أحمد عبد العزيز واللواء المواوي، كما لاحظوا أنه لم يطرأ أي زيادة على القوة الصغيرة للمجاهدين داخل المستوطنة، فأعادوا الهجوم لاسترداد مستعمرة رامات راحيل بقوة قوامها ٥٠٠٠ مقاتل مدعومة بالمدفعية والمدرعات، فاستبسلت القوة الصغيرة المرابطة في المستعمرة وسقط عدد كبير من الشهداء، فاضطروا للانسحاب من المستعمرة.

كان أحمد عبد العزيز في تلك الفترة يخوض معركة في صور باهر إلى أنَّ وصل إلى جبل المكبر، وأخذ يصد هجمات اليهود عنه، مما اضطرهم إلى التراجع نحو القدس فأعدَّ العدة للهجوم على القدس، إلا أنَّ الأمم المتحدة تدخلت وفرضت الهدنة وقبلتها الجيوش العربية ورفضها أحمد عبد العزيز، فتوجه ليلاً إلى المجدل للتشاور مع القيادة المصرية العامة، ولما اقترب من المجدل كانت رصاصات القناصة في انتظاره، فأصابته في مقتل.

وبموته طويت صفحة من أمجد صفحات الكفاح العسكري في فلسطين، وأفل نجم لامع كان ملء سمع الناس وبصرهم، وشطب اسمه من سجلات الجيش المصري إلا أنه كتب في سجل الخالدين.

وبعد أربعة شهور من الهدنة التي فرضتها الأمم المتحدة نقض اليهود هذه الهدنة في ٤ أكتوبر ١٩٤٨؛ إذ قامت قوة صغيرة من اليهود باحتلال "بيت حانون" وقطع طريق المواصلات الذي يربط غزة بالمجدل وأسدود. وكان اللواء المواوي من خور النفس وفتور الهمة بحيث تعذر عليه أن يحاول تجنيد سرية صغيرة لمهاجمة هذه القوة، فأصدر قراراً بالانسحاب من المجدل وأسدود إلى غزة عن طريق الساحل، تاركاً وراءه ٥٠٠٠ جندي في الفالوجة.

وبذلك تخلى الجيش المصري عن أهم مناطق فلسطين دون أن يتعرض لهجوم حقيقي، لدرجه أن اليهود كانوا ينظرون إلى هذا الانسحاب بعين الريبة والحذر ظانين أن في الأمر مكيدة عسكرية. والأعجب من هذا أنَّ قوات الفالوجة ظلت في مواقعها لا تبدي حراكاً، حتى أحاط بها العدو من كل جانب، وأمطروها بوابل من نيران المدفعية والقنابل.

ولقد قيل في تعليل ذلك أقوالاً كثيرة، منها: أنَّ المواوي كان في عجلة من أمره لدرجة أنه نسي أن يصدر تعليماته إلى قوات الفالوجة بالانسحاب. وقيل إنه أصدر أوامره للسيد طه (قائد لواء الفالوجة) أن يتحرك إلى بئر السبع ليحتل الطريق التي تصل بين بئر السبع وغزة، ومن ثم تلتقي قواته بالقوات التي انسحبت إلى غزة، لكنه لم يفعل. وقيل، وهو الأرجح، إنَّ فتاتين يهوديتين أقنعتا اللواء المواوي بالانسحاب بعدما اجتمعتا به بصفتيهما صحفيتين أمريكيتين. وهو تعليل مقبول، وخصوصاً أنَّ المواوي يَعْمُر نفسه إجلال وتوقير للجمال والدلال والفتنة، أضافت إليها ظروف الحرب وانعدام رؤيته لوجه امرأة مزيداً من السحر والفتنة.

يقول الرئيس المصري محمد نجيب في مذكراته عن حرب فلسطين: "بعد عدة انسحابات مخزية أعفي اللواء المواوي من منصبه، وتم استدعاؤه إلى مصر، ولم يُدلِ بأي تصريح علني يشرح ما حدث. وعندما قامت الحرب كانت مهمتي أن أكون الرجل الثاني في قيادة القوات المهاجمة تحت قيادة اللواء أحمد علي المواوي، وهو رجل قصير بدين لا يتصرف في أي شيء بالسرعة المناسبة، وكان مريضاً بالسكر وتصلب الشرايين وخلافه، وكنت إذا أبديت له ملاحظة حول قواتنا المشاركة في الحرب كان يهز كتفيه قائلاً: "علينا تنفيذ الأوامر لا مناقشتها" وقد رفض تنفيذ خطتي في معركه "نجبة" مما تسبب لنا بهزيمة قاسية. ولما أحدق به الخطر طلب مني أن أقود الانسحاب، وعندما كنت أذكر الخسائر التي أصابتنا كان يقول لي أمام الضباط: "أنت كذاب!".

على وجه العموم، بهذا الانسحاب المهين ضاعت مدينة بئر السبع، وأتيحت الفرصة لليهود لتجميع قواتهم في مستعمرات النقب ومهاجمة القطاع الجنوبي في (عسلوج والعوجة)، واقتحام حدود مصر الشرقية ومواصلة زحفهم حتى مشارف العريش.

إذن كان الوضع في تلك اللحظة كالتالي:

قوات الفالوجة تعاني من الحصار المطبق، وقوات من المتطوعين في الخليل، وبيت لحم، وصور باهر، تعاني المرارة والحرمان بعد استشهاد قائدها أحمد عبد العزيز. وقوات على وشك أن تقضي نحبها من الزمهرير، تقبع في الخنادق تحت رحمة الأمطار والأوحال. وقوات مبعثرة في صحراء النقب لم تستطع الصمود أمام الكتائب اليهودية؛ إذ لم تكن مجهزة للمقاومة أصلاً؛ فلم يراعَ في توزيعها أي ضمان لسلامتها، بل إن هذه القوات لم تكن تعرف الهدف من بقائها ولا الغرض المكلفة بحمايته. علاوة على أن عددها المحدود لم يكن يكفي للسيطرة على هذا الفضاء الفسيح الممتد الذي ألقيت فيه، كما لم يكن لها أدنى اتصال بالمواقع الأخرى المبعثرة في الصحراء، فبين كل موقع وآخر عشرات الأميال، وكل موقع مسؤول عن حمايه نفسه من البرد القارص رغم اشتداد وطأة الصقيع وهبوب العواصف، ودون إعطائهم كفايتهم من الغطاء والكساء، وليس هناك قوة جاهزة لنجدتهم عند الخطر. وكانت المدفعية الثقيلة تصب قذائفها الملتهبة فوق رؤوسهم، دون أن يكون لديهم أي أدنى ساتر يحميهم من الشظايا المتطايرة، وكنت تسمع صياح الجنود: "ما فيش ذخيره يا فندم" "دانات المدافع خِلْصت يا سعادة البيه" "عاوزين قنابل لمدافع الهاون يا حضرة الضابط".

أما قوات المتطوعين من الإخوان فقد كانت تحتل مواقع استراتيجية تحيط بالمستعمرات في النقب، وتخوض حرب عصابات، لكن الأوامر ما لبثت أن صدرت إليهم بالانسحاب والتخلي عن مواقعهم، يقول جاك دي رينيه في كتابه (القدس عام ١٩٤٨): "ولأول مرة يواجه اليهود في النقب مقاومة منظمة تنظيماً شديداً". وبذلك انحل القيد الأخير الذي كان يكبل مستعمرات النقب عن التقدم والانطلاق، فمضت

الكتائب اليهودية تجوب غرب صحراء النقب وشرقها بحرية تامة. وتمت مهاجمة موقع العوجة (نتسانا حالياً) آخر موقع للجيش المصري في النقب؛ فما إن هاجمته القوات اليهودية حتى استسلم، وتسلل من لم يستسلم لواذاً إلى الحدود المصرية، وكنت تشاهد الجنود المصريين وهم يتعلقون بذيول السيارات الهاربة، والجنود اليهود يهتفون بالعبرية (كاديما كايرو) أي تقدم إلى القاهرة.

وبذلك انتهت حرب عام ١٩٤٨، وأصبح هدف القوات التمركز داخل الأراضي المصرية وحمايتها، بعدما كان هدفها تحرير فلسطين والقضاء على العصابات اليهودية ورميها في البحر.

في تلك الأثناء كان الشيخ البنا قد جهز قوة إضافية من المتطوعين لإرسالها إلى فلسطين، واتصل بقائد متطوعي الاخوان (كما يروي كامل الشريف في مذكراته عن حرب ١٩٤٨) وأبلغه بأنه يجهز قوة كبيرة ليدخل بها فلسطين، وأنه سيعلن الجهاد الديني والتعبئة الشعبية، بعد أن فشلت الحكومات والجامعة العربية في الدفاع عن فلسطين. وكان يكرر قوله: "ما فيش فايدة الناس دول مش عاوزين يحاربوا".

لكن وتيرة الأحداث في مصر أخذت تتصاعد حتى خرجت عن السيطرة، إذ أشعل طلاب كلية الطب النار في سطح الكلية في جامعة فؤاد الأول، وألقوا قنبلة على حكمدار القاهرة اللواء "سليم زكي" أدت إلى مصرعه، وسارعت صحف الوفد إلى اتهام الإخوان بالوقوف وراء هذه الأحداث. وأبرقت السفارة الأمريكية إلى واشنطن تؤكد مسؤولية الإخوان المسلمين عن هذه الأعمال، وسارع النقراشي الذي كان يتربص هذه الفرصة ليضرب ضربته، فأصدر أوامره بمنع صدور صحيفة الإخوان المسلمين، وإغلاق شعب الجماعة، واعتقال زعمائها. وفشلت مساعي الشيخ البنا في احتواء العاصفة. ورفض النقراشي لقاءه؛ إذ كان يبيت أمراً مهولاً؛ فلم تكد دقات الساعة تعلن الحادية عشرة مساء من يوم الاربعاء ٨ ديسمبر ١٩٤٨، حتى أذيع أمر عسكري

بحل جماعة الإخوان المسلمين، وإغلاق جميع شعبها والأمكنة المخصصة لنشاطها، وضبط أوراقها وسجلاتها، ومصادرة أموالها وممتلكاتها.

٤٢ - ليلة حل الجماعة

أقبل الأصيل رطباً مثقلاً بالضباب، وكان القمر قد أفل، وكان الظلام دامساً، وراح الشيخ البنا يذرع مكتبه في المركز العام جيئة وذهاباً فترة غير قصيرة من الزمان، مستشعراً وحشة بالغة إلى حد مميت، وكان المساء الشتوي رطباً قارصاً. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة إلا بضع دقائق، وقبل أن تعلن الساعة تمام الثانية عشرة بقليل أعلنت جلبة عجلات سيارات أنها قادمة، وشرعت السيارات المصفحة تحاصر مركز الإخوان من كل جانب، ولم تمض سوى لحظات حتى اقتحمت الشرطة المركز العام، وهناك كان يجلس الشيخ البنا في مكتبه ومعه صفوة من الإخوان، وكان على رأس القوة ضابط شاهر مسدسه، مثبت بصره وحواسه في شخص المرشد، وقال: "عندنا أمر بالقبض على كل من في الدار عدا المرشد".

نظر البنا إلى الضابط وأنعم النظر. نعم إنه هو "عبد الرحمن عمار" الذي كان فيما مضى يخطب في بنها متحدثاً باسم الإخوان، وكان يقبِّل يد المرشد ويدعوه بشيخه واستاذه، وينادي سيدي الاستاذ المرشد البنا، ولكن عبد الرحمن عمار قد تغير الآن عندما رأى اتجاه الحكومة ضد الجماعة، وكان يكثر من قوله أمام الملأ: "لا بد من العمل بحزم وعزم للقضاء على عناصر الشغب ودعاة الفتنه وأهل السوء قضاء مبرماً في غير تردد ولا شفقه ولا رحمة". يقول جفرسون باترسون (السفير الأمريكي في القاهرة) في البرقية رقم (٢١١): "على الرغم مما عُرِف عن عبد الرحمن عمار بوصفه رجلاً حسن الإسلام أحياناً لدرجة التعصب، فإنه عبر أكثر من مرة لسكرتير السفارة عن كراهيته للشيخ البنا".

إجمالاً، لقد تم القبض على كل من في المركز العام من الأعضاء، وصعد الشيخ البنا سلم إحدى سيارات اللوري فمنعه رجال الشرطة من الصعود، بيد أنه تشبث بالسيارة بعناد ورفض النزول، وأخذ يصيح "لا تأخذوا هؤلاء بجريرتي فأنا أولى منهم بالاعتقال، فإذا كان الإخوان عصابة إجرامية فأنا رئيسهم". لكن الضابط راح يؤكد له أنه لم يصدر أمر باعتقاله، وتحركت السيارات حتى وصلت إلى المحافظة، وهناك جاء أحد الضباط يرجو فضيلته أن يتفضل بمقابلة الحكمدار ليتفاهم معه.

نزل المرشد من السيارة بعد هذه الحيلة، واتجه إلى مكتب الحكمدار، الذي لم يكن موجوداً في مكتبه بطبيعة الحال، وتحركت السيارات بالأعضاء إلى مكان مجهول. هكذا فُصِلَ المرشد عن أنصاره، وهكذا حُمِلَ أنصاره نحو أصقاع مجهولة نائية. إنَّ القدر قد فصل الآن بين المرشد وبين خيرة جماعته، تلك الثلة التي زُجَّ بها في عربة عسكرية مظلمة راح يتشبث بها، ثم تركها بخدعة وراحت تتوارى بعيداً وراء الأفق، ومن ثم انقلب إلى حجرته حيث قضى الجزء الأعظم من ليله ونهاره في عزلة تامة. لقد أنفق معظم الوقت مطوِّفاً بالحجرة، وخُيِّل إليه أنَّ ما به لا يعدو حزناً لما حل به من خسارة أعضاء مكتب الإرشاد، ولا بد من التفكير بوسيلة يستعيدهم بها، ولكن ما إن انتهت أفكاره إلى غايتها، ورفع طرفه فألفى الأصيل قد انقضى، والليل يتقدم بخطى واسعة حتى تبَدَّى له اكتشاف آخر. إنه كان قد خضع في تلك الفترة اليسيرة لعملية تحول، وإن عقله كان قد رمى بكل ما أفاده من الشعور بالثقة والقوة التي كان يحيى فيها بين جماعته وأنصاره، وأنه أُسْلِمَ الآن لفطرته الأولى، أيام جداله مع شيخه "الدجوي" وتلهفه لإنشاء جماعة تخدم الإسلام، وأنه بدأ يستشعر ما طُمِر في نفسه من أحاسيس قديمة.

لم يكن الذي بدى له شَبَهاً بانتزاع سنَّاد أو دعامة ما، ولم تكن قدرته على الاعتصام بالهدوء هي التي خذلته، إنما بدا له أن وجود هذا الهدوء قد زال تماماً. فقد كانت جماعته التي أنشأها على مدى عقدين من الزمن هي دنياه كلها، أما الآن فقد أدرك أن مخاطر ومخاوف ومكاره كانت في انتظاره، وأن قرناً من الزمن قد انقضى على اليوم الذي حُلَّت

فيه جماعة الإخوان، وأن الريح العقيم التي هبت عليها بددتها وتركتها هشيماً تذروها الرياح.

وراح يراجع معلوماته وذكرياته، ونظر إلى قلبه ودرس أحاسيسه، وحاول أن ينقب بيد صارمة، ودعا نفسه إلى محكمة أقامها بنفسه، فأدلت الذاكرة بشهادتها متحدثة عن تاريخ الجماعة، وعن أماله وعواطفه ورغباته التي صاحبت تطور الجماعة، وعن الحالة الذهنية التي استولت عليه فأغرقته في خضم السياسة منذ وزارة إسماعيل صدقي، وتقدم العقل فقص بطريقته الهادئة حكاية بسيطة غير مُزَوَّقة تُظهر كيف رفض الواقع وراح يطوّف في فيافي الخيال والأمل، وعندئذ أصدر حكماً قاسياً بما معناه: إنَّ سطح الأرض لم يعرف مخلوقاً أعظم حماقة من حسن البنا، وإن أياً من الحمقى لم يزج بنفسه في الخيالات العذبة المسمومة أكثر مما زج بها نفسه. يا لك من مخدوع مسكين! ألم تستطع أن تكون أكثر تعقلاً وحكمة؟ حتى إذا سمع هذا الكلام شرع يستشعر وحشة غريبة، وأحس بأن قلبه قد غار، وأجاز لنفسه أن يتجرع مرارة الشعور بالخيبة.

كان لا يزال يجهل أو يكاد ما حدث بالضبط، ولقد بدا له وكأن جماعة الإخوان وحياته الماضية، التي قضاها في إنشاء هذه الجماعة، قد أمعنا في الطفو بعيداً، وأن مسافة لا سبيل إلى قياسها تفصله عنهما، وكان الحاضر غامضاً وغريباً، أما المستقبل فلم يستطع أن يكوِّن عنه، ولو عن طريق التخمين، أيما صورة غير صورة الرماد المحترق الذي غدا أسود خامداً بعد أن همد لهيبه.

لقد بدت مرحلة ما بعد حل الجماعة وكأنها عصر، بيد أنها لم تكن عصراً ذهبياً على أية حال، لقد انطوت على نضال مرير مع الوفد، والانجليز، والملك، وعبد الرحمن السَنَدي (مسؤول النظام الخاص) الذي تحدى أوامر مرشد الجماعة وأوردها هذا المورد الوبيل.

إنَّ حسن البنا، الذي كان متقد النشاط بعيد مرامي الأمل، قد عاد الآن يحيا حياة شاحبة، وقد ماتت آماله كلها بعدما ألمَّ بها هلاك ماحق، ولقد ألقى نظرة على ما غَذَّاه

من آمال كانت بالأمس مزهرة ومتوهجة، فإذا بها الآن جثة يابسة باردة مزرقة لا سبيل إلى بعثها من جديد، ولقد بدا له وكأن ظلاماً عاصفاً يسبح من حوله، وتدفقت أفكاره كالسيل، سوداء مشوشة، ولم يكن به رغبة في النهوض من مكانه، لقد تعين عليه أن يَصُدَّ سيلاً عرماً من العداوة، ولن يجديه نفعاً أن يدير ظهره وينكص من وجه الحاضر الأَشأم الرهيب.

لقد برزت اضطهادات حسين سري العنيفة كلها، وكبرياء النحاس ولا مبالاته، وعجرفة النقراشي وحماقاته، برزت جميعها على صفحة عقله المهتاج، واختلجت كما تختلج الرواسب على سطح بئر راكدة.

أيُّ ذعر لف روحه في ذلك الأصيل الموحش! وأي حيلة اعتملت بدماغه كله! وأي ثورة عصفت بفؤاده! هكذا لزم الشيخ البنا مكانه فاقد الرشد، لكن فكرة واحدة ظلت تختلج في جوانحه اختلاجة نابضة بالحياة، ولم تكن تلك الفكرة غير ذكر الله عز وجل وأخذ يغمغم بهذه الآية: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}.

٤٣ - في معتقل الطور

زُجَّ بالمعتقلين من جماعة الإخوان في سيارات شرطة كبيرة، أقلتهم إلى معتقل هايكستب، في ضواحي القاهرة، وفي الصباح، نقلوا إلى مدينة السويس، حيث كانت تنتظرهم الباخرة "عايدة". وبعد أن ركبوا في الباخرة علموا أنها في طريقها إلى معتقل جبل الطور بسيناء، فاستبشر أولئك الذين كان دأبهم التفتيش عن إشارات لطيفة وراء كل محنة، خصوصاً وأن الطور هو الجبل الذي كلم الله منه موسى، عليه السلام.

وبعدما ارتفعت الشمس، وانقشع ضباب الصبح، شرعت السفينة تمخر عباب الماء، متجهة إلى الطور، وهب نسيم منعش شجع البعض على الترنم بالقرآن، بينما اتجه

البعض الآخر إلى قراءة كتاب شعر كان قد أحضره معه، وراح بعضهم يتأمل مناظر الطبيعة على شاطئ خليج السويس. لكن فئة متشائمة أبت إلا أن تفسد هذه اللحظات وتنقل تشاؤمها إلى الآخرين، فأخذوا يفتعلون المشاكل ويقذفون بالشتائم قائد السفينة وحراسها، مما أحدث هرجاً ومرجاً في الباخرة.

وهنا ظهر شاب في الثانية والثلاثين، متوقد الذكاء، حاد الطبع، قوي العزيمة، سريع البديهة، قصير القامة، نحيف الجسم، رقيق الشفتين، على رأسه طاقية بيضاء، بشارب خفيف لطيف، ولحية خفيفة المنبت، وعيون ساهمة حزينة، لكنها حادة نافذة، فتكلم بكلمات موجزة بليغة، تدعوا إلى التزام الهدوء، واحترام النظام، حتى يصلوا بسلام إلى الأرض التي انطلقت منها شرارة الوحي المقدس، الذي حرر أمة مستعبدة!".

استمع الجميع إلى هذا الشاب البليغ، سريع البديهة، كأن على رؤوسهم الطير، واستجابوا لندائه كأنه السحر، فقد كان الجميع يعرفونه، كان ذلك هو الشيخ الأزهري "محمد الغزالي".

لكن حكمة هذا الشيخ كثيراً ما كانت تنتعل أحذية فيها مسامير. فكما كان الشيخ الغزالي البلسم الشافي الذي يُهدّئ الفتنة ويجتث النقمة، كان، إذا لزم الأمر، هو اللهب الحارق الذي يشعل الثورة؛ فعندما لاحظ المعتقلون في الطور أن ما يصرف لهم من أطعمة تتم سرقتها من إدارة المعتقل، وما يتبقى بالكاد يكفي أن يسد رمق المعتقلين، قام الشيخ الغزالي وحرض المعتقلين في خطبة الجمعة، ثم قادهم في مظاهرة، طالب فيها بحقوقهم المنهوبة، وشَهَّر باللصوص الذين يتاجرون بأطعمة المعتقلين، وأخذ يردد والمعتقلون يرددون خلفه "تسقط اللصوصية المنظمة، تسقط سياسة التجويع".

تلك عبارات تكثر في كتب الشيخ الغزالي وخطبه، فهي وإن كانت لا تصلح أن تكون هتافاً تلقائياً في مظاهرة لجموع هائجة، إلا أنها أدت دورها تماماً ونجحت في إخافة اللصوص، وعلى إثرها استدعى قائد المعتقل الشيخَ الغزالي وبعض كبار المعتقلين المخضرمين، وتفاوض معهم، واتفقوا على أن تتخلى قيادة المعتقل عن التصرف في

الأشياء المصروفة للمعتقلين، وتسلمها إليهم كما هي، ويتولى المعتقلون طهيها وتوزيعها بأنفسهم.

لم يكن الطور معتقلاً بمعنى الكلمة، فقد كان يستخدم مكاناً لحجر الحجاج بعد عودتهم من الحج، في زمن الأوبئة، خوفاً من أن يكونوا قد نقلوا أمراضاً معدية من الحجيج الآخرين. كان هذا المكان عبارة عن عنابر واسعة تطل على أفنية فسيحة محاطة بأسلاك شائكة، في وسط الصحراء.

ومنذ اللحظة التي قاد الشيخ الغزالي المظاهرة ضد اللصوصية، أصبحت كميات الطعام كافية ومشبعة، لدرجة أنه كان يتبقى منها الكثير، فيعطونه لأهالي منطقة الطور، الذين كانوا في غاية الفقر والأمية والجهل. ومن الحكايات التي يرويها الإخوان عن أهل الطور أنهم سألوا رجلاً منهم: "من ربك"؟ فقال: "ربنا موسى والولية كاترينا!"[٢٢]. ولما سئل: هل تعرف حسن البنا؟ قال: "جاء هنا منذ سنتين وأعطى كل واحد منا أربعين قرشاً وجلباباً".

كان يأتي عدد من الأطفال بأقدام سوداء حافية، وملابس ممزقة بالية، فيعطونهم ما زاد من الطعام، ومن يومها أصبح معتقل الطور قبلة يتجه إليها أهل الطور جميعاً لتلقي الطعام المتبقي عن المعتقلين، لدرجة أنه كان يحدث شجار عنيف بين الأهالي أثناء توزيع الطعام.

وما إن يؤذن الفجر، حتى يهرع الجميع لصلاة الفجر، يؤمهم الشيخ الغزالي، فيقرأ من القرآن ما توقف عنده ورده، كما هي عادته؛ فهو يقرأ من حيث انتهى. وبعد الصلاة يجتمع المصلون في حلقات دروس مع المشايخ، حول بعض الموضوعات الدينية والعلمية: حلقة مع الشيخ الغزالي حول السيرة النبوية، وحلقة مع الشيخ سيد سابق حول الفقه، وحلقة مع الشيخ عبد البديع صقر، حول كيف ندعو الناس؟

[٢٢] سانت كاترين قديسة مسيحية قتلت في اوائل القرن الرابع الميلادي، ويقال إن جسدها اكتشف في سيناء في القرن القرن التاسع الميلادي.

وكان من أبرز المحاضرات وأمتعها محاضرات للشيخ الغزالي عن (الإسلام والاستبداد السياسي) وهي التي ظهرت بعد ذلك في كتاب يحمل نفس الاسم.

لقد كان معتقل الطور هو المخيم الدائم للإخوان المسلمين عام ١٩٤٩ حيث تحول إلى جامع للعبادة، وجامعة للعلم، وجمعية للتعاون، ومنتدى للثقافة، وناد للرياضة، وملتقى للتعارف، وبرلمان للتشاور والتفاهم..

إلا أن هذه الأوقات السعيدة كان يفسدها أحياناً وجود عدد من العملاء والجواسيس، الذين زرعتهم الحكومة في وسط الإخوان، سماهم الإخوان (البسابس) أو (العصافير) كانت مهمتهم أن ينقلوا إلى الحكومة أخبار الإخوان أولاً بأول، حسبما صرح بذلك الإخوان. وتمثل هذا الفساد في زرع مشاعر الريبة والحذر والشك بين الإخوان، فأصبح كل واحد يشك في الآخر، وأسرع بعضهم إلى نشر هذه الأجواء البوليسية التي كانوا مفطورين على حبها، فكانت لهم بمثابة حكاية مسلية تخرجهم من جو الرتابة والملل الجاثم على نفوسهم.

لكن حسب مصادر أخرى موثوقة؛ فإن هؤلاء البسابس هم من الإخوان الذين لم يعودوا يطيقون حياة الإخوان ومعاناتهم وترحليهم، فأرادوا أن ينسحبوا من بينهم، وينفصلوا عنهم، ويقطعوا صلتهم بهم، فأصبحوا لا يستيقظون لصلاة الفجر، ولا يحرصون على الصلوات، وصاروا يهتفون عاش جلالة الملك، حتى يتم الإفراج عنهم. وبالفعل تم الإفراج عنهم بعدما أوسعهم "كروم" وهو فُتُوَّة من فتوات الإخوان، ضرباً نال عليه عقوبةً ستةَ أشهرٍ سجناً.

٤٤ - ما بعد حل الجماعة

مضى على حل الجماعة يوم الأربعاء والخميس وأصيل يوم الجمعة، وشرع الضياء يهجر الغرفة، وكانت الساعة الآن قد تجاوزت الرابعة، وكان الأصيل يجنح نحو غسق

كئيب. وكان الشيخ البنا قد أصيب بخيبة أمل لم يتوقعها من ردود أفعال الصحف وأصدقائه من الوزراء والبرلمانيين وشيوخ الأزهر، حيث اعتقد بأنهم لن يلتزموا الصمت لو حُلَّت الجماعة أو مُسَّ أعضاؤها بسوء. ففي السابق أثاروا عاصفة احتجاج شديدة في البرلمان على مجرد نقل الشيخ البنا من مدرسته إلى مدرسة بالصعيد، فكيف الآن وقد حُلَّت جماعته وصودرت أموالها وزج بأعضائها في غياهب السجون! لا شك بأنهم سيقلبون الدنيا راساً على عقب.

لكن، واأسفاه، فإن شيئاً من ذلك كله لم يحدث، وظلت جميع القلوب باردة، وجميع الأبواب مغلقة، ومضى قرار حل الجماعة بسهولة ويسر، وتم ازدراده وهضمه كما يهضم الطعام الطيب، وقام بعض رجال الأزهر بدلاً من الاعتراض على قرار الحل بالتوجه إلى مكتب عبد الرحمن عمار يهنئونه على قرار الحل قائلين: "هؤلاء إخوان الشياطين، والحمد لله على خلاص البلاد من شرهم". واتصل سكرتير الأزهر بشيخ الأزهر[٢٣] يبلغه بقرار الحل، فقال: "في داهية!".

ونشرت صحيفة الكتلة التي يصدرها الصديق المقرب للشيخ البنا مكرم عبيد نبأ حل الجماعة دون تعليق، بينما رحبت صحيفة الحوادث الوفدية بالقرار على صدر صفحتها الأولى قائلة: "لا حرية لأعداء الشعب، ويجب اعتبار تاريخ حل الجماعة عيداً يُحتَفل به كما يُحتفل بأوروبا بزوال كابوس الفاشية". وأيَّدت صحيفة مصر الفتاة التي يصدرها أحمد حسين قرار الحل، ولم تحتجُّ اللجنة الوطنية التي يرأسها الخِلُّ الوفي فتحي رضوان على قرار الحل إلا بعد عامين من صدوره.

وتجمع كُتَّاب مصر يؤيدون قرار الحكومة ضد الإخوان المسلمين، وكان العقاد على رأسهم وفي مقدمتهم وأعنفهم هجوماً؛ إذ كتب يقول: "كانت الجماعة المشؤومة، التي طلعت على هذا البلد المسكين، تغذي الأغرار من أتباعها بصنوف شتى من الغذاء المسموم. فكل نفوذ أدبي في هذا الوطن مهدد عندهم أو مستباح، فعندما يُذكر لهم شيخ

[٢٣] شيخ الأزهر في ذلك الحين هو الشيخ مأمون الشناوي.

الإسلام[٢٤] يقولون: "هو ناظر مدرسة" ولا شأن له بإمامة الدين. وعندما يذكر لهم العلماء يقولون: "إنهم لا يعلمون". وعندما يذكر لهم زعيم الأمة سعد زغلول يقولون: إنه ليس بزعيم الأمة لكنه صنيعة الإنجليز. وعندما يذكر لهم رجالات مصر والشرق واحداً واحداً يُلصِقون بكل منهم تهماً لا تُبقي لهم محلاً من الاحترام. وما من أحد يحتاج إلى تعب ليعلم أن جماعة المجرمين هذه فتنة أجنبية يزودها بالمال والسلاح أناس لا يريدون خيراً بالإسلام والمسلمين".

ونشر الشيخ البنا بياناً قال فيه: "إن سفراء بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا اجتمعوا يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨، وقرروا أن يتقدم السفير البريطاني باسمهم بطلب حل الجماعة".

وتوجه الشيخ البنا لمقابلة إبراهيم عبد الهادي، فاستوقفه السكرتير طويلاً قبل أن يأذن له بالدخول، وكان الشيخ البنا يصيخ السمع إلى اصطفاق الآنية الزجاجية والخزفية عند تقديم المشروبات والقهوة، وإلى همهمة الحديث المتقطعة كلما فتحت أبواب حجرة المكتب أو أوصدت، إذ كان اجتماعاً يضم إبراهيم عبد الهادي والمستشار القانوني بالسفارة البريطانية "تشايمان أندروز" وآخرون، وكانوا يتشاورون في قرار الحل. وأخيراً سُمح للشيخ البنا بالدخول بعض انفضاض الاجتماع وانصراف الضيوف، والتقى تشايمان أندروز وجهاً لوجه مع الشيخ البنا ونظر إليه نظرة شذراء كلها حقد وغضب، وكانت نظرته تقول: "لن تفلت من يدي هذه المرة" وتجاهله الشيخ البنا ومضى لمقابلة إبراهيم عبد الهادي ولما أصبح بمحاذاة تشايمان إذ بتشايمان يبتسم ابتسامته الصفراء ويقول بلكنة إنجليزية فيها سخرية ولؤم بارد:

-هالووو شيخ خاسن!

ومضى الشيخ حسن في طريقه دون أن يرد عليه وكأنه لم يسمعه ولم يره، وقدم الشيخ البنا رسالة أوضح فيها بأن انحراف الإخوان عن رسالتهم والاشتغال بالسياسة

[٢٤] يقصد بشيخ الاسلام: شيخ الأزهر في ذلك الوقت وهو مأمون الشناوي..

كان خطأ كبيراً، وكان أحرى بهم أن يتجنبوها ويقصروا رسالتهم على خدمة الدين والدعوة إلى مكارم الاخلاق، وإذا تم التراجع عن حلها فسيبقى الإخوان هيئة دينية تنصرف إلى تأدية رسالتها دون أن يتجاوزوها بحال. لكن هيهات هيهات!

إنَّ من طبيعة الأشخاص المستبدين أن يصبحوا أكثر راديكالية واستبداداً إذا آنسوا من خصمهم ضعفاً أو خوراً، عندئذ ينتابهم هوس التشفي والانتقام، وإنهم ليعتقدون بأن الأقدار لا تعطيهم هذه الفرصة الذهبية إلا فيما ندر، لذلك هم يريدون أن يتمتعوا بها أطول وقت ممكن. لذلك ردَّ إبراهيم عبد الهادي رداً قاسياً وهو يفحُّ بصوت واخز كأنه يصدر من لسان أفعى:

– لقد تحدد خط الحكومة بشكل قاطع، فإما أن ترضخ أو تتحمل العواقب.

يقول كريم ثابت (المستشار الصحفي للملك) وكان حاضراً آنذاك:

– وانقلب الشيخ الوديع نمراً هائجاً وقدحت عيناه شرراً.

في تلك الأيام لم يكن الشيخ البنا يخطو خطوة واحدة دون أن ينزلق خلفه شبح مخبر للحكومة يحمل على كتفه بندقية، إذ كان غالباً ما يقضي جل وقته في جمعية الشُّبان المسلمين، التي يترأسها فتحي رضوان، وكان يجلس هناك حتى تخلو من الموظفين باستثناء محمد الليثي وساعي الجمعية.

ولا ينبغي لك أن تظن أيها القارئ أنَّ الشيخ البنّا كان يجلس هناك في كامل حيويته وتألقه، كما كان في الماضي في المركز العام، يدور بين الحجرات، ويصدر التعليمات، ويراجع المستندات، ويستقبل الوفود.. كلا! لقد كانت أياماً محزونة كئيبة تلك الأيام التي قضاها المرشد في جمعية الشبان المسلمين، أياماً كلها أسَى وشَجَن، ولَشَدَّ ما كانت مختلفة عن السنوات العشر التي قضاها تحت سقف المركز العام والتي كانت مفعمة بالقوة والأمل، لقد بدا الآن وكأن جميع الأحاسيس القوية المفعمة بالأمل قد طردت،

وأن جميع الأحلام الوردية قد نُسيت، ولم يعد في ميسورك أن تشاهد على وجه الشيخ البنا تلك الابتسامة العذبة لكل من يجتاز به في الرواق والحجرات، ومن ثمَّ ينقل عدوى نشاطه وحماسته إلى جميع من في الدار.

لقد كان الشيخ البنا يتمتع أبداً بحظ وافر من القدرة على إدخال السعادة إلى القلوب، وإذكاء الحماسة في النفوس، بحيث كان مجرد تذوق الفتات الذي ينثره لتلك الطيور التائهة ضرباً من الوليمة البهيجة، وبلسماً لتلك القلوب البريئة. أما الآن، فإن الشيخ البنا يقضي وقته صامتاً. وكلما هَمَّ بالانصراف تريّث دقيقة أو دقيقتين، وأجال الطرف إلى الشارع العام ليشاهد سيل العربات المنطلقة متوقعاً أن تقف إحداها على باب الجمعية، وراكب متدثر بمعطف أو مرتدياً بذلة أنيقة، يتقدمه حارس قد يظهر كرة أخرى الآن، كما في الماضي، أو ربما رن جرس الهاتف ليعلن أن المسؤول الفلاني أو الوزير الفلاني يريد الاجتماع بفضيلة المرشد، أو ربما فتح الليثي الباب ليعلن أن زائراً كريماً ينتظر فضيلتكم! ولكن الباب يظل موصداً، والظلمة وحدها هي التي تدخل من خلال النافذة، وينقضي المساء كما ينقضي كل يوم، ولم يحدث أيما شيء، والغسق يغذ الخطى نحو الظلمة الكاملة، وسيل العربات يكاد يتوقف، وكان هذا يُذَكّره بأنه تأخر فيسرع بالانصراف من الجمعية إلى البيت.

٤٥ - مصرع النقراشي

في عشية حل الجماعة كان مرتضى المراغي (مدير الأمن العام) قد حذر سعادة الوزير النقراشي من عاقبة هذا القرار، لكن سعادته تلقى هذا التحذير بلا مبالاته المعهودة قائلاً:

- "أعرف ديتها رصاصة أو رصاصتين هنا". وأشار إلى صدره.

وبعد عشرين يوماً من حل الجماعة تحققت النبوءة كاملة!

ففي الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح يوم الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وصل النقراشي باشا إلى وزارة الداخلية محاطاً بحرس شديد من ضباط الشرطة، وتوجه إلى المصعد في طريقه إلى مكتبه في الدور الثاني، وقبل أن يصل إلى المصعد تقدم إليه شاب يرتدي ملابس ضابط شرطة، وأطلق عليه رصاصتين في صدره فأرداه قتيلاً، ولم يحاول القاتل الهرب.

اعترف عبد المجيد حسن (وهو طالب في كلية الطب) بأنه قتل النقراشي لأنه خائن للوطن، وتسبب في ضياع فلسطين، وقام بحلِّ جماعة الإخوان واستولى على أموالها، وأغلق الجامعة، وشرّد طلبة كلية الطب.

وأنكر عبد المجيد حسن معرفته الشخصية بالمرشد، كما أنكر أن يكون المرشد قد حرّضه على قتل النقراشي، ولم يضف إلى اعترافاته شيئاً آخر، على الرغم من التعذيب الوحشي الذي تعرض له هو وأسرته.

وأسرع أمين إسماعيل، عضو جماعة الإخوان، يزف البشرى إلى المرشد، وقد أيقن بأن هذا هو النبأ المطلوب لإخراج المرشد من جو اللوعة والكمد الذي خيم على نفسه منذ حل جماعة الإخوان.

كان المرشد في تلك الأثناء يتناول طعام الغداء، ولم يكد يسمع بالنبأ حتى افتَرَّ ثغره عن ابتسامة رضا، وانتعشت روحه، وتهلل جَذِلاً بإحساس الحرية والنصر. ولقد بدا وكأن رباطاً، غير منظور، كان يقيده قد تحطم وانصرم.

بدون شك، كان المرشد ناقماً على وزير الداخلية النقراشي، وبدون شك لم يفتأ المرشد منذ حل الجماعة يدعو الله في صلاته أن ينتقم من النقراشي ويريح العباد من شروره، وأن يذيقه وزر ما اقترفت يداه. ولكن، ما إن خطرت في نفسه تلك الأمنيات البهيجة المسكرة، وكان إذ اك قد تناول من الطعام لقمة أو لقمتين حتى أبعد الطعام عنه وكفَّ عن الأكل، واصطبغت أساريره بحزن عميق، وهز رأسه بأسى، وزفر زفرة حارة، وأردف يقول:

– إيه يا أمين.. سوف يرموننا بكل تهمة.. وسيقولون عنا كل شيء، وسيعلقون لنا المشانق في الشوارع.

ثم أردف يقول:

– ولكن، حسبنا الله ونعم الوكيل!

لقد أدرك الشيخ البنا على الفور بأنَّ مقتل النقراشي سوف يجلب عليه موجة من السخط لا قِبِل له بها، وأن الأحوال من الآن فصاعداً سوف تزداد صعوبة وسوءا. واتصل رجال الصحافة ليستطلعوا رأي المرشد في مقتل النقراشي، فقال: "إنه لا يعرف هوية القاتل ولم يره من قبل، ولا يعرف إن كان من الإخوان أم لا، وإن كل ما يعرفه أن اغتيال النقراشي ليس من مبادئ الجماعة، وأن الاغتيال تم على غير رغبة منه، وبدون علمه، وأنه فوجئ بمقتل النقراشي كأي إنسان آخر".

وسارعت الصحف المصرية والكتاب المصريون إلى نعي النقراشي والحديث عن مآثره ونزاهته ووطنيّته. وشارك الملك في تشييع الجنازة، وراح شباب الحزب السعدي يهتفون قائلين:

الدم الدم.. يا نقراشي لا تهتم

يا نقراشي نام واتهنّا.. رأس النقراشي برأس البنّا

وسارعت هيئة كبار العلماء بإصدار بيان يدين مقتل النقراشي، وتدعو الله أن ينتقم من القتلة المجرمين. هذا، مع العلم بأنّ النقراشي لم يكن يحظى بالشعبية لدى المصريين، إلا أن مصرعه حظي بالرثاء على نطاق واسع بفضل كثرة النائحين عليه من الكتاب والصحفيين الذين سمموا الرأي العام، وهندسوا الوعي الشعبي وأقاموه على نحو مضبوط تماماً.

واجتمع الملك فاروق في قصر عابدين بإبراهيم عبد الهادي (رئيس الديوان) وحيدر باشا (وزير الدفاع) وكريم ثابت (المستشار الصحفي للملك) وتم اختيار ابراهيم عبد

الهادي رئيساً للوزراء، وأثنى تشايمان أندروز على هذا الاختيار معتبراً إياه أفضل رجل يحطم الإخوان.

ولما رأى المرشد تلك الحملة الشعواء التي تثار ضده، وأصابع الاتهام الموجهة نحوه، أصدر بعد أسبوعين، من مقتل النقراشي، بياناً قال فيه: "لقد وقعت أحداث نُسبت إلى بعض من دخلوا في الجماعة دون أن يتشربوا روحها، ومنها هذا الحادث المروع، حادث اغتيال دولة رئيس الحكومة محمود فهمي النقراشي باشا الذي أسفت البلاد لوفاته، وخسرت بفقده علماً من أعلام نهضتها، وقائداً من قادة حركتها، ومثلاً طيباً للنزاهة والوطنية من أفضل أبنائها. ولسنا أقل من غيرنا أسفاً من أجله، وتقديراً لجهاده وفضله. ولما كانت طبيعة الإسلام تتنافى مع العنف، بل وتنكره، فإنني أناشد إخواني لله وللمصلحة العامة أن يكون كل منهم عوناً على تحقيق هذا المعنى، وأن ينصرفوا إلى أعمالهم، ويبتعدوا عن كل عمل يتعارض مع استقرار الأمن، وشمول الطمأنينة حتى يؤدوا حق الله والوطن. والله أسال أن يحفظ جلالة الملك المعظم ويَكْلأَه بعين رعايته، ويثبت خُطَى البلاد حكومة وشعباً إلى ما فيه الخير والفلاح. آمين".

وأغاظ هذا البيان تشايمان أندروز، العدو اللدود للشيخ البنا، فأبرق إلى لندن يقول: "حسن البنا رجل انتهازي منافق، غرضه من هذا البيان تخدير السلطات بشعور الأمن الزائف، على أمل أن تتراخى تدريجياً جهودها في القضاء على جماعة الإخوان المسلمين".

ولم يكد البنا يُصْدِر هذا البيان المثير للجدل حتى ارتكب رئيس النظام الخاص السندي حماقة أخرى؛ إذ وضع قنبلة داخل المحكمة، أدى انفجارها إلى إصابة ٢٥ شخصاً. يقول الشيخ الباقوري: "هذه المحاولة الحمقاء، كانت سبب حرج شديد، أخذ على المرشد العام منافذ الفكر، وجعل الدنيا على سعتها أضيق في عينيه من سَمِّ الخِياط، وكان يقول: "ماذا أفعل أأنتحر؟! كيف أصدر بياناً بالأمس استنكر فيه هذه الأعمال، فيجيء هذا الولد ويعمل ذلك، ماذا سيقولون عني؟".

في تلك الأثناء، توالت على الملك خطابات التهديد بالقتل بتوقيع من الإخوان، قيل إنها من تدبير أجهزة الأمن في الحكومة، لزيادة الضغط على الملك. والْتقى الشيخ البنا بمدير الأمن العام مصطفى المراغي وأبدى أسفه على هذا الحادث، ثم طالب بالإفراج عن المعتقلين من الإخوان حتى يتم السيطرة على التنظيم الخاص.

قال المراغي باندهاش بعدما أسند ظهره على الأريكة فسمع لها طقطقة:

– معتقلين ايه يا شيخ حسن! يعني بعد هذه الحادثة حد يقدر يتكلم في حاجة زي كدة؟

وصرح مصطفى المراغي بعد هذا اللقاء قائلاً: "لقد عجزت قيادة الإخوان عن وضع التنظيم المارد في القمقم بعد خروجه وانطلاقه". ويتوجه الشيخ البنا إلى مكرم عبيد (رئيس حزب الكتلة) ويدور الحديث عن التفجيرات التي قام بها شباب الإخوان، ويُخْرج البنا مصحفاً من جيبه ويقسم بأنه لا يعرف شيئاً عن هذه الحوادث، وأن من يرتكب حوادث إجرامية كتلك، رجل لا دين له، فإن الأديان جميعاً تحرم القتل وسفك الدماء.

وكان رد مكرم عبيد بأنه يثق في المرشد ويصدقه. لكنه اعتذر بأنه الآن خارج الوزارة، وحزبه لا يشترك فيها. ولم يكن لديه ما يقدمه له غير الحكايات المسلية واللغو الطلي اللاذع الذي عزف الشيخ البنا عن الانغماس فيه أو التجاوب معه.

واجتمع ابراهيم عبد الهادي بتشايمان أندروز وقال مفتخراً بإنجازاته:

– أرى أن حسن البنا بدأ يتراجع أمام إجراءات الحكومة الصارمة، وسوف أحصل منه على ما لدى الإخوان حتى أجتثهم نهائياً.

قال تشايمان بعدما أسند ظهره ورفع إبهامه مؤكداً:

– تمام يا باشا.. ضع رِجْلاً واحدة في الزورق يصبح جسمك كله فيه.

وكان إبراهيم عبد الهادي تطربه هذه الحِكَم التي يطلقها تشايمان في وقتها المناسب، وكان تشايمان يدرك وقوع إبراهيم عبد الهادي تحت سطوة إيحاءاته، فأطلق حكمة أخرى من حكمه الشيطانية قائلاً:

– المنافقون كجماعة النحل متى قتلت الملكة ولى سائر الجماعة الأدبار!

فبذلك أصبح حسن البنا هو الهدف.

٤٦ – الهـدف

تلى موت النقراشي أسبوعان من الهدوء المريب شعر خلالها الشيخ البنا بالخطر يقترب، بل لقد اقترب فعلاً، فأخذ يتردد على الوزراء في مكاتبهم ومنازلهم فكانوا يتهربون من لقائه. هذا الذي كانت الجماهير تلتف حوله، ورجال السياسة يتملقونه، ومليونا شخص مستعدين لافتدائه بأرواحهم، فانكفأ في بيته وقد رانت الكآبة على نفسه، ولم يعد يذهب إلى جمعية الشبان المسلمين، وامتنع عن صلاة الفجر في جامع قيسون، إذ جاءته معلومات بأنهم يريدون قتله أثناء خروجه لصلاة الفجر. يقول الماجور سامسونج: "لقد قرر رجال البلاط الملكي والحكومة اغتيال البنا بعد مصرع النقراشي".

في تلك الأثناء، كانت الحكومة تلقي القبض على المئات لأتفه الأسباب: قصاصة ورق.. نسخة من عدد قديم من جريدة الإخوان.. بطاقة عليها شعار الإخوان المسلمين.. تقويم سنوي عليه مصحف وسيف.

وكان الجنود والمخبرون يقبضون على كل شخص يمر من أمام بيته أو يزوره. ولم يعد للشيخ البنا حارس سوى شقيقه اليوزباشي عبد الباسط الذي تم اعتقاله هو الآخر، وسُحِبت سيارة الشيخ البنا القديمة التي كان يستقلها في تنقلاته، وصودر مسدسه المرخص الذي كان يحمله ويجيد الرمي به، وفُصِلت الحرارة عن هاتف منزله.

هكذا أضحى الشيخ البنا سجيناً لا يزور ولا يزار، وتقدم إلى وزارة الداخلية بطلب لاعتقاله قائلاً: "لا يوجد مبرر واحد لبقائي حراً طليقاً" بيد أن وزارة الداخلية رفضت هذا الطلب بقولها: "لا يوجد سبب للقبض عليك في الوقت الحاضر".

فأرسل إليهم يقول: "إنكم تقتلونني بعدم اعتقالي". وطلب تعيين حارس مسلح لحراسته على نفقته الخاصة، لكنه لم يتلق رداً على هذا الطلب. وطلب من وزارة الداخلية السماح له بالإقامة في مزرعة الشيخ النبراوي في قليوب؛ فهو شيخ قد بلغ الثمانين، ومصاب بشلل نصفي، مما يجعل الشيخ النبراوي بعيداً عن الاعتقال والمساءلة نظراً لحالته الصحية.

في تلك الأيام، نادراً ما كان يمضي الليل من غير أن يرى في المنام بأنه يمسك بزمام ناقة يركبها أبو بكر، رضي الله عنه، ثم إذا بيد تمتد إلى زمام الناقة فتنتزعه من يده.

عموماً، أيًّا كان المزاج الذي يكشف عنه ذلك الحلم، أو أيًّا ما كان المظهر الذي اتخذته تلك الرؤيا، فإنه لم يكُفّ مرة عن الظهور طوال سبع ليال متعاقبات حال دخوله دنيا الرقاد، ولم يرتح لهذا التكرار من جانب فكرة واحدة، أو لهذا التعاقب العجيب لصورة مفردة، فكانت أعصابه تتوتر كلما دنا موعد الهَجْعَة إلى الفراش، وكلما دنت ساعة الرؤى والأحلام.

وفي عشية اليوم الثاني عشر من فبراير عام ١٩٤٩ أوى الشيخ البنا إلى فراشه مكدوداً مرهقاً، حتى إذا احلولك الظلام رفع بصره نحو السماء عبر النافذة حيث بدا قرص القمر أحمر دامياً، وكان نصفه محجوباً بالغمام وكأنه يلقي عليه نظرة مشدوهة كئيبة، ثم يسارع فيدفن نفسه من جديد في خضم السحاب العميق. وكانت الفَجْعَة قد استولت على نفسه، وأظهرت على وجنتيه التجاعيد والأخاديد وكأن إزميلاً قد حفر تلك التجاعيد والأخاديد في وجنتيه اللتين ضربتهما الشيخوخة قبل الأوان. وعندما دخلت زوجته إلى غرفته رأته غارقاً في أفكاره لا يحس بدخولها، فشعرت على الفور

بالخجل والاضطراب في حضرة هذا الرجل الذاهل عن نفسه، الذي على ما يبدو لم يكن يسمع الخطوات القادمة ولا التحية الهامسة.

وفيما هو كذلك إذ سمع صوت طرقات على الباب يعرفها جيداً، إنه محمد الليثي (سكرتير الجمعية). وهنا توقف الشيخ عن أفكاره، وخرج من الغرفة وتقدم نحو باب المنزل، وسأله في لهفة:

- ما الخبر؟

قال الليثي: الأستاذ محمد الناغي ينتظرك في الجمعية.. يبدو أن هناك أخباراً سارة يريد إبلاغك بها.

قال الشيخ البنا بسخريه: أخبار سارة إيه! لقد أُخبرت الآن بأنهم اعتقلوا الشيخ النبراوي هو وأسرته، لأني طلبت الإذن بالإقامة في مزرعته.

ورفض الشيخ البنا الخروج. لكن الليثي ألحَّ عليه، وأمام هذا الإلحاح قال الشيخ البنا:

- خلاص يا سيدي نروح.

ثم سرح قليلاً وأضاف، وهو يرفع سبَّابته في وجه الليثي، لكنها ستكون آخر مرة. وطلب الشيخ من صهره عبد الكريم منصور المحامي مرافقته إلى جمعية الشبان المسلمين، لكن صهره رفض الخروج بادئ الأمر، وتعلق أولاد الشيخ البنا بذيل ثيابه وهم يبكون ويطلبون منه عدم الخروج، بيد أنه أصر على الخروج وهو يقول:

- جاءتني دعوة لا بد أن أجيبها.

خرج الشيخ البنا ورافقه صهره عبد الكريم المحامي، وكان المساء مثقلاً بالضباب وقد استقلا سيارة أوصلتهما إلى جمعية الشبان المسلمين، وكان الهواء رطباً قارصاً، ووجدا محمد الليثي في استقبالهما وقد حمل فانوساً سكب ضياءه على درجات سلم

الجمعية، الذي علاه الغبار، وكان ظلهما يتراقص على الحائط الذي بدا شاحباً، والساعة تشير إلى السابعة إلا بضع دقائق.

وفي الجمعية جلس الأستاذ الناغي، متوتراً بعض الشيء، ينتظر قدوم الشيخ البنا الذي سأله قبل أن يجلس:

- خير يا أستاذ محمد؟

قال محمد الناغي: الوزير زكي باشا يريد الاجتماع بك في الجمعية الساعة السابعة للتباحث في بعض الامور، وقد وعدني خيراً، وخصوصاً لو حصل منك على جواب قاطع.

قال الشيخ البنا، بعدما فرك يديه كعادته وجلس وهو يمسح الغبار عن المكتب:

- جميل! جواب قاطع في إيه يا أستاذ محمد؟

قال الناغي: الوزير يسأل عن أسماء الأعضاء الخطيرين، ومخازن السلاح، ومكان الإذاعة السرية.

وبدا الضيق على وجه الشيخ البنا، إذ ما لبث هذا السؤال المقيت يوجه إليه منذ أن حُلَّت جماعة الإخوان، وما لبث يكرر نفس الجواب، الذي سيكرره الآن للمرة الألف:

- أنا لا أعرف شيئاً ولا بد من خروج المعتقلين للحصول منهم على المعلومات المطلوبة.

استأذن الناغي ليبلغ زكي باشا بالهاتف أن الشيخ البنا في انتظاره، لكن زكي باشا لم يكن على الهاتف، فلم يكن الأمر يهمه، إنما الذي كان يهمه أن الشيخ البنا داخل المصيدة الآن.

عاد الناغي لإكمال حديثه مع شيخ البنا، وبدا الحديث معاداً لا جديد فيه. وبعدما صلَّيا العشاء معاً، عاد الناغي إلى الاتصال بزكي باشا الذي لم يرد على التليفون، وكانت

الساعة تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق، فقال الناغي، وهو يحك رأسه ويفرك عينيه من النعاس:

– أنت عارف يا شيخ حسن إنني في الستين، وصحتي لا تحتمل السهر، ولن يعود الباشا إلى بيته قبل التاسعة والنصف.

واستأذن وخرج بعدما تواعدا أن يلتقيا في الصباح. وفي الساعة الثامنة تماماً خرج الشيخ البنا وصهره عبد الكريم من الجمعية للركوب في التاكسي الذي أحضره الليثي.

كان شارع الملكة نازلي، هادئاً على غير العادة، والأنوار مطفأة، ولا يُرى أحد من المارة في الشارع. وفي تلك اللحظة رن جرس الهاتف في الجمعية فأسرع الليثي يرد على الهاتف، وكان المتحدث المقدم محمد الجزار.

وصل الشيخ البنا وصهره عبد الكريم إلى السيارة، وأصر الشيخ البنا أن يدخل صهره أولاً، ثم دخل الشيخ وأغلق الباب وأمر السائق بالتحرك. لكن السائق توانى في تشغيل السيارة ولم يتحرك، وبينما هو كذلك إذ بشخص يرتدي ملابس بلدية، ويضع شالاً حول عنقه يتقدم إلى باب السيارة، ويفتحه فتحة يسيرة ويبدأ بإطلاق النار على الشيخ البنا وهو يصد الباب بقوة، حيث كان الشيخ البنا يدفع بالباب محاولاً الإمساك بالرجل. فلما يئس من فتح الباب، نام بين الكراسي مخفياً رأسه بيديه لتفادي الطلقات المتتالية؛ عند ذلك فتح الرجل الباب على وسعه وأخذ يفرغ رصاص مسدسه في جسد البنا المسجَّى في أرض السيارة.

وتوجه رجل آخر، يرتدي جلابية وبالطو وتلفيعة فوق رأسه، إلى الناحية التي يجلس فيها عبد الكريم، صهر البنا، وأخذ يطلق عليه الرصاص. وما إن سمع الليثي صوت الرصاص حتى ترك السماعة مرفوعة، ونزل إلى الشارع وهو يقول: "حلق حوش.. أمسك" فأطلق عليه أحد الرجلين عياراً نارياً ثم تبعه بآخر، فأسرع الليثي إلى مبنى الجمعية مرة أخرى ليجد السماعة لا زالت مرفوعة، فقال الليثي وهو يلهث:

- الشيخ حسن ضربوه بالرصاص!

لم يتفاجأ المقدم الجزار من الأمر، ولم يُبْدِ الدهشة، إنما قال:

- هل مات؟

تفاجأ الليثي من هذا البرود وقال:

- لا أعرف!

وألقى بسماعة الهاتف ونزل إلى الشارع مرة أخرى، وكان صوت الرصاص قد توقف ولاذ المعتديان بالفرار، واندفع الشيخ البنا خارجاً من السيارة كما لو كان بكامل عافيته، ودخل مبنى الجمعية وأمسك بالهاتف وهو يقول:

- أنا قُتِلت.. أنا قُتِلت.. هاتوا الإسعاف!

لكن صوتاً مقهقهاً كان يرد عليه من خلال الهاتف. فألقى السماعة واندفع خارجاً من الجمعية، وقطرات الدم تسيل على الدرج، وألقى بنفسه داخل السيارة، وأهاب بالسائق قائلاً:

- اطلع على الإسعاف بسرعة!

تحركت السيارة نحو جمعية الإسعاف القريبة، ونزل الشيخ البنا من السيارة يمشي على قدميه، فلما وصل إلى الطبيب قال:

- ما فيش فايدة يا دكتور أنا هموت.

كان الشيخ البنا قد أصيب بسبع رصاصات، بينما أصيب صهره عبد الكريم برصاصتين، لكن على الرغم من ذلك فقد ظل متماسكاً يساعد الطبيب في نزع الثياب الخارجية عن موضع الجرح. وبعدما ضمد الطبيب الجراح نُقِل الشيخ البنا وصهره في سيارة الإسعاف إلى مستشفى القصر العيني. وفيما كان الشيخ البنا ممدداً في السيارة على النقالة، كان في ميسوره أن يحرز أيَّ أجزاء المدينة يجتاز الآن، وحين أنزل من على النقالة

شاهد مقهى مفتوحة، والجرسون يقدم الطلبات للزبائن. كان المقهى هادئاً وهناك عدد قليل من الرجال يجلسون يدخنون على طاولات بجانب الجدار، وكان أربعة رجال يلعبون الورق على طاولة، وأمامهم على الطاولات فناجين القهوة وأكواب الشاي، وسمع صوت المذياع يصدح بأغنية ما، ولعله جال في مخيلته حينئذ صورة جمهور المقاهي وهم محتشدون حوله قبل عشرين عاماً، يرتشفون دروسه ومواعظه.

ورأى باب المستشفى الداخلي يفتح، وأمارات القلق تبدو على وجوه الممرضين، ووجد نفسه في رواق. وكان ثمة عدة أبواب بمقابض نحاسية، وحملوه واجتازوا به رواقاً طويلاً حتى انتهوا به إلى غرفة أُغلِقت مصاريع نوافذها الخارجية، ووضعوه على سرير.

كان في الغرفة طبيب أعطاه الممرض الأوراق التي تصف حالته. تناول الطبيب الأوراق وأمعن النظر فيها من خلال نظارتيه، وكان ثمة ثلاث أوراق وكانت مطوية. وكانت الغرفة مظلمة وباردة بعض الشيء.

وفيما كان الشيخ البنا مستلقياً على السرير تجلى لناظريه، على ضوء مصباح متدلٍّ من السقف، صفاً من الأدوية والحقن في الجانب الآخر من الغرفة، وخزانة كبيرة ترتكز على الجدران العارية. وشاهد باباً أبيض اللون مغلقاً بجانب صف الأدوية، وقد عُلِّقت على الجدار صورة الملك فاروق. وكان ممرض يقف على مقربة من السرير. كان رجلاً في نحو الخمسين، صارم الوجه يحاذر أن يتكلم. ويا لدهشة الشيخ البنا، وكأنه في حلم، إذ سمع الممرض يأمر الطبيب بقوله:

– في استطاعتك أن تنصرف الآن!

أعاد الطبيب الأوراق إلى مكانها وطواها كما كانت وانصرف دون أن ينبث بكلمة.

كان الشيخ البنا يستلقي في غير حراك، ويتنفس في عسر بالغ وقد اشتد به الظمأ. نظر إليه الممرض وقال:

- مما تشكو؟

- أصبت بعيارات نارية.. أريد ماء.. أشعر بالعطش الشديد.

- ما اسمك؟

- حسن البنا.

- أين جرحت؟

- في الجنب والظهر.

- هل تعرف من ضربك بالرصاص؟

- كلا!

- هل يوجعك جرحك الآن؟

- لا. إنه لا يوجعني كثيراً الآن.

- إننا لا نستطيع أن نعطيك شيئاً إلا أن يجيء الطبيب!

- متى يجيء الطبيب؟

- الطبيب في إجازة.. إجازة طويلة، منحه إياها صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم. وأشار بيده ورأسه إلى الصورة المعلقة على الجدار!

عند ذلك أدرك حسن البنّا، في الدقيقة الأخيرة، الدور المنوط به، وعلم أن عليه أن يكون الإمام الشهيد، في هذه الحجرة التي تكاد تكون معتمة، والتي يجري قتله فيها بأكثر مما جرى في الساحات وهو يقود المظاهرات. فهو لا يريد أن يطلب الإنصاف من طبيب وضِيع، دفع به الجوع إلى بيع ذمته، ولا من قتلة مأجورين متنكرين في زي ضباط شرطة، إنما يطلب الإنصاف من القاضي العادل ألا وهو التاريخ، فكان عليه أن يتحامل على ذاته وعلى جسمه المجهد المُضنى، الذي سوف يخلد للراحة فيما بعد، راحة مديدة نهائية. ولم يبق لحسن البنا في هذا العالم سوى شيئين: أن يتحامل على جراحه النازفة،

وأن يموت برباطة جأش. لذلك، ظل محافظاً على هدوئه التام، يدعو بكلمات ما، بعد أن وصلت المسرحية الوضِيعة، التي لا مثيل لها، إلى فصلها الأخير، ومن الممكن للستار أن ينسدل الآن.

وظلت صوفية حسن البنا وفية له إلى ساعته الأخيرة، فلا يثور قط ولو بكلمة واحدة على القدر. ففي الساعة الثانية عشرة والربع مات البنا، بعدما رفع سبابته ونطق بالشهادتين، وقال:

– إن الله حق!

هكذا، بعد أربع ساعات وربع، من اختراق الرصاصات هذا الجسد الذي كان يموج بالحركة والنشاط، بدت الشفتان مضمومتان إحداهما على الأخرى، بلون ممتقع، وبمرارة، وهما اللتان جادتا بآلاف الخطب والمواعظ والدروس، التي طالما ارتجفت لكلماتها الآلاف من شدة التأثر، وكان الجفنان المزرورقان يغطيان، وهما موصدان، العينين اللتين ما انفكتا تسحان الدموع وهو يقرأ القرآن في جوف الليل. وتنبسط اليدان عاجزتين، وهما اللتان لطالما انحنى عليهما وقبَّلهما آلاف المريدين.

٤٧ – الجنازة

تحت جنح الظلام، في جوف الليل، نقل الجثمان في سيارة تتقدمها قافلة من العربات المملوءة برجال البوليس المسلحين، وفي أحد شوارع الحلمية وقفت القافلة ونزل الجنود وأحاطوا بالبيت، ولم يتركوا ثقباً في الشارع ينفذ منه الهواء إلا سدوه بجندي، وتتابعت على باب البيت طرقات، كان صداها يطحن قلب أهل البيت، فتح الباب والد الشيخ البنا الذي كان قد تجاوز السبعين، وقد علِم بوفاة ولده من أحد الضباط في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. قيل له: إنهم لن يسلموه الجثة إلا إذا تعهد بأن تدفن في الساعة التاسعة بلا احتفال، وإلا فإنهم سيضطرون إلى دفنها بمعرفتهم.

قام الوالد بتغسيله وتكفينه، وفي الساعة التاسعة صباحاً خرج النعش محمولاً على أكتاف شيخ سبعيني وثلاث نساء؛ أمه وزوجته وابنته وفاء، وسار في الجنازة صبي في الثالثة عشرة هو ولده سيف الإسلام حسن البنا. وكانت ابنته وفاء تهتف: "قرْ عيناً يا أبتاه فلن نتخلف عن رسالتك".

كانت الشرطة المسلحة وقوى الجيش على أهبة الاستعداد. وسدت الطرق الرئيسية والكباري والجسور بالعربات المصفحة والمدرعات. وكانت الشوارع كأنها ثكنات عسكرية حيث امتلأت بمدافع رشاشة على أهبة الانطلاق، وفيما تجمعت عناصر الشرطة في صفوف متقابلة، كانت شرذمة من رجال الأمن المسلحين بالبنادق الآلية يجتازون المدينة طولاً وعرضاً على الدرجات النارية. ولقد عُبّئت هذه القوى العسكرية لمجابهة رجل ميت. فالجلاد أحياناً يخاف ضحيته أكثر مما تخاف الضحية جلادها!

سار الموكب الحزين في الطريق، الذي اصطف فيه رجال البوليس، حتى وصل إلى جامع "قيسون" الذي كان خالياً من الناس حتى الخدم، ووقف الأب أمام النعش يصلي، فانهمرت دموعه التي كان يحاول إخفاءها خوفاً من أن يظن الجنود أنه قد نكث بوعده، ثم مضى النعش إلى مقابر الأسرة، ودفنوه، ثم أودعوه هناك في ذمة التاريخ.

ورابط رجال البوليس ومعهم إحدى سياراتهم المدرعة على القبر شهوراً، وحفظ التحقيق، وقيدت القضية ضد مجهول. ومنع أفراد الأسرة من إقامة العزاء وتلاوة القرآن، ولم يحضر أحد من المعزّين، فقد مُنع أي شخص من الوصول إلى العزاء، أما الذين استطاعوا الوصول فتم القبض عليهم وأودعوا المعتقلات.

وهناك في قصر النقراشي كانت زوجته تمنح الهدايا للقتلة، الذين نفذوا الجريمة: خمسين جنيهاً، وبذلة من حلل زوجها المتوفى والتي لم تعد لها قيمة.

٤٨- كما تدين تدان

في ١٣ فبراير ١٩٤٩ في الساعة الرابعة فجراً، أبرقت السفارة البريطانية إلى لندن بوفاة حسن البنا. ونشرت صحيفة الأهرام والأساس الخبر بالبنط الأسود العريض، على صدر صفحتها الأولى، متهمة الإخوان بقتل حسن البنا. ونشرت صحيفة التايمز الخبر، مكررة أقوال الصحف المصرية بأنَّ الإخوان هم الذين قتلوا الشيخ البنا، لأنه حاول إفشاء أسرار الجماعة. والتزمت هيئة كبار العلماء الصمت التام؛ فلم تصدر بياناً تدين فيه قتل الشيخ البنا مثلما أصدرت بياناً تدين فيه قتل النقراشي. وفيما بعد أكد الإيطالي "أنطوان بولي" خادم الملك ورفيق ملذاته، بأن قرار اغتيال حسن البنا تم اتخاذه في القصر الملكي وخطط له داخل أسوار القصر. وأكدت جميع القرائن صلة الملك بقتل الشيخ البنا؛ إذ راح يُظهِر بهجته الخرقاء بالحادث، ويهاتف المقربين ويبلغهم بالنبأ، وهو في حالة نشوة وحبور قائلاً:

- لقد ضربوا الشيخ البنا بالرصاص.

ولم يكن يعلم أنه بعد ستة عشر عاماً، سوف يسلك ذات الطريق الذي سلكه البنا، لكن ليس في شجاعة وشرف مثل شجاعته. لقد عاش فاروق بعد اعتزاله العرش وخروجه من مصر في عزلة شبيهة بعزلة حسن البنا في أيامه الأخيرة، فكان طيف البنا يلاحقه في ليله ونهاره حتى سمم لحظات حياته، فأنشأ ما سمي بالحرس الحديدي لحمايته، وأسرف في الشراب والسهر كي يفر من لعنة الشيخ البنا التي تلاحقه على الرغم من أنه انقضى ستة عشر عاماً على دخوله القبر.

إنه الآن منفياً في إيطاليا، بلا أتباع ولا أصدقاء. لا أحد ينافقه أو يتملقه، واختفى الذين كانوا يطلبون الأوسمة والرتب من صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم. فالرجل الذي أبصر النور في قصر عابدين، والذي كان يتنزه ما بين قصوره كيفما يشاء، أصبح الآن يقيم في شقة متواضعة، في الدور الرابع في شارع أرشميد في جزيرة كابري، لا يجد متنزهاً له هو وبناته إلا أزقة كابري وحواريها الوضيعة، ذات السمعة السيئة.

والرجل الذي كان غارقاً في الترف والنعيم، يجلس في الصالون الفرعوني، داخل يخت "المحروسة" على الأثاث الفاخر المصنوع من قرون الوعل، لم يعد في متناول يده إلا الضروري: طاولة، وكرسي، ودولاب، وسرير حديدي. والرجل الذي كان عشرات الأتباع رهن غمزة من عينيه، أصبح الآن يُستقبل ببرود ناعم، ويُرفض باحترام، ولكن بصورة قاطعة. والرجل الذي كان يتأمل لوحة انتصار رمسيس فرعون أصبح الآن يبكي بالساعات، واضعاً رأسه على صدر مغنية إيطالية، يروي لها همومه وأحزانه وأشجانه، وهو يقول:

– ما الخطأ الذي ارتكبته لكي أُقصى عن عرش مصر؟

إنَّ هذا الذي كان في خدمته حرس ملكي، وحرس حديدي، ووزراء، وجواري، ومستشارون، وصحفيون، وأطباء، وطهاة، لم يعد لديه من يهتم بفطوره أو غدائه أو عشائه. والرجل الذي كان قوي الجسم، نشيط البدن، يطوف الميناء بزورقه السريع، عاري الصدر والرأس، ويستمتع به وهو يتلوى في منحنيات دقيقة، وضحكاته تدوي فوق مياه البحر، أصبح اليوم مترهل الجسم، شاحب الوجه، بطيء الحركة. وأصبح الذي طالما اشتهته عيون نساء العِلْية في النوادي والملاهي، وطالما تنقل بين يخت "المحروسة" ويخت "فخار البحار" بصحبة الغانيات اليونانيات، أصبح يزجر ويمتهن من أحقر امرأة يسعى لغوايتها في ملهى ليلي. وسقط معظم شعر رأس هذا المخلوق، وغزا الشيب ما تبقى منه، وقد كان من قبل يضمخ بالعطور والزيوت صباح مساء. واشتد من حوله الصمت ثقلاً، والوقت خواءً، ولم يبق له شيء ذو بال، يقوم به في هذه الدنيا، إلا أن يموت ميتة وضيعة.

فبينما هو في ملهى الليلي يجلس مع امرأة من بنات الليل بمدينة روما، وقد أخرج سيجاراً ماركة هافانا أشعله وتنفس دخانه الكثيف، وفجأة تغير وجهه، وعاد برأسه إلى الوراء، فصرخت المرأة وأسرع جرسونات الملهى إليه وأجروا له تنفساً صناعياً بعد أن فكوا ربطة عنقه وخلعوا حذاءه. ولملمت المرأة حقيبتها المرصعة بالماس، التي أهداها لها

فاروق، ولاذت بالفرار. وكان على الطاولة شمعتان موقدتان، هما آخر جلسائه اللتيان شهدتا خاتمته الفاجعة وهو في الخامسة والأربعين. أما الشمعتان فقد كانتا ما تزالان موقدتين، وقد عاش لهيبهما المتذبذب أطول مما عاشه عاثر الحظ، هذا البائس المنكود.

ونُقل إلى المستشفى في سيارة إسعاف، حيث توفي في الساعة الواحدة والربع صباحاً (الثانية عشرة والربع، بعد منتصف الليل، بتوقيت القاهرة، ساعة وفاة حسن البنا). وشَيَّع جنازتَه، إلى مقبرة الروم الكاثوليك بروما، خمسُ نساء وصبيٌّ في الثالثة عشر، هو ابنه أحمد فؤاد، الذي كان في مثل سن سيف الإسلام بن حسن البنا. أما النساء فهن مطلقته الملكة فريدة، وبناته: فريال، وفوزية، وفادية، وصديقته الإيطالية "إرما" مغنية الأوبرا. وبعد اثني عشر يوماً نُقِل جثمانه إلى القاهرة، وتحت حراسة مشددة شيعته النساء فقط. ودفن في الساعة التاسعة صباحاً (ساعة دفن الشيخ البنا)، في مقبرة الإمام الشافعي (المقبرة التي دُفن فيها الشيخ البنا). وبعد اثني عشر عاماً صدر قرار بدفنه بجوار أبيه في مسجد الإمام الرفاعي، ونُقل الجثمان في الساعة التاسعة صباحاً في سيارة الموتى السوداء، سراً، بلا موكب، وتحت حراسة مشددة، ولم تحضره سوى امرأة واحدة هي شقيقته الأميرة فوزية، وصلى عليه عمال النظافة في المسجد.

هكذا دُفِن صاحب الجلالة، ثلاث مرات، بنفس الأسلوب، ونفس الساعة التي دفن فيها الشيخ البنا!.

"تم بحمد الله وفضله"